المملكة العربية السعودية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
الدراسات العليا
المعهد العالي للدعوة الاسلامية



أسباب نجاح الدعوة الإسلامية
في العهد النبوي

رسالة أعدها
عبد الله بن محمد الموسى
لنيل درجة الماجستير

اشراف الدكتور
عبد الستار فتح الله سعيد

١٤٠٢ - ١٤٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

****

المقدمـــــة

الحمد لله نحمده ، ونستهديه ، ونستغفره ونتوب اليه ، ونعوذ باللـــه مـــن شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد اللـه فلا مضل لـه ، ومن يضلل فـــلا هادى لـه ، وأشهد ألّا اله الا اللـه ، وحده لا شريك له أنعم علينا بالاســـلام ، وأمرنا بالدعوة اليـه .

وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله أرسلـه الله "شاهدا ومبشرا ونذيراوداعيـــا الى الله باذنه وسراجا منيرا" (سورة الأحزاب : ٤٥ — ٤٦) خير مـن دعـــا الى اللـه على بصيرة ، وجاهـد فى الله حق جهاده ، اللهـم صل وسلم وبـارك على هذا النبى الأمى ، وعلى آلـه الطيبين الطاهرين ، وعلى أصحابه الغر الميامين ، والمجاهدين الصادقين ، ومن تبعهـم باحسان الى يوم الدين . . . أما بعـد

فانى أشكر الله تعالى أن هيأ لي فرصة البحث والدراسة فـى الدعوة الاسلاميـة لأن الدعـوة الـى اللـه أمرهـا عظيم ، وشأنها كبـير ، وهى وظيفـة الأنبيـــاء المرسلـين .

ولقد كنت فى أوقات متفاوتـة ، أقف الوقفات الطويلة ، أمام سيرة الرسول صلـى اللـه عليه وسلـم ، منذ بدأ الدعـوة الـى اللـه ، وكيف كان يعالج قومه ، ويستعمل كل أسلوب ممكن لدعوتهـم للاسـلام ، وكيـف تحمل من أذاهـم ما تنـوء الجـبال الرواسـى عـن تحملـه ، رجاء أن يؤمـنوا ، وأمـلا فـى أن يشـرح اللـه صدورهـم للاسـلام ، ولينقـادوا لمـا جاءهـم بـه من الهدى ، وكلمـا ازدادوا فـى

الأعراض ، وأصروا على الانكار ، ازداد حرصا على طلب هدايتهم ، ورغبة في دعوتهم للاسلام ، وكنت لا أملك عندما يأخذ مني العجب مآخذه من موقف الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الا أن أردد قول الحق جل وعلا :

" لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم "

(سورة التوبة : ١٢٨) .

وكان مما يزيد اعجابي أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد استطاع وفي فترة زمنية وجيزة ، وبنور من الله ، وعلى هدى منه ، تحويل الحفاة ، رعاة الشاه، الى أمة رائدة هادية ، يقتفي الناس أثرها ، ويترسمون خطاها .

سبب اختيار الموضوع ، وأهميته :

ولما منّ الله عليّ بالتخرج من المعهد العالي للدعوة الاسلامية ، وأخذت أبحث عن موضوع لرسالتي ، اتجه تفكيري الى موضوعات تتصل بالدعوة ، يمكنني بها الاستزادة في معرفة جوانب متعددة عن تلك الدعوة المباركة ، التي عطرت عطرها في النفوس ، ولا يزال شذاها فواحا يهب بنسائمه العطرة على القلوب ، فتستريح لمنهاجه العظيم ، وأسلوبه الفريد ، فكان أن وفقني الله لاختيار هذا الموضوع الهام ، الشديد الصلة بالدعوة ، وهو :-

(أسباب نجاح الدعوة الاسلامية)

ولما كان هذا الموضوع واسعا لا يمكن الالمام به وحصره في رسالة واحدة رأيت الاقتصار في بحثي على أسباب نجاح الدعوة الاسلامية في عصر النبي صلى الله عليه وسلم لأمور :-

أولها : أن هذه الفترة تحتوي على الأسباب الرئيسة في انجاح الدعوة الاسلامية .

ثانيهـا : ان ذلك الواقع الذى واجهه صلى الله عليه وسلم ، وتمخضت عنه بعض تلك الأسباب هو الواقع الذى تعيشه البشرية اليوم ، مع اختلاف يسير فى الأشكال والصور اقتضته طبيعة اختلاف الزمان ، وتجدد الحوادث .

ثالثها : ان الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم هم القدوة الحسنة للمسلمين فى دعوتهم ، وقد بلغوا بالدعوة الاسلامية أعلى مراتب الكمال والنجاح ، وأصبح عصرهم عصرا ذهبيا للدعوة ، ولن ينتصر المسلمون ، وتنجح دعوتهم فى أى عصر الا بالسير على نهج الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه فى ذلك .

ونظرا لشدة حاجة البشرية اليوم فى كل مكان الى الدعوة الاسلامية ، لما أصاب الانسانية من زيغ وضلال ، وبعد عن الحق ، ولما أصبحت الماديات والشهوات هى المسيطرة ، وتفككت بذلك المجتمعات ، وعجزت الحضارة المادية الحالية ببهارجها الزائفة عن حل مشكلات الانسانية ، وعادت الجاهلية الأولى - كما كانت بل أشل - الا من النزر اليسير من المؤمنين ، القابضين على دينهم .

فأصيبت البشرية بالخلل والفوضى الدينية ، وحل بها الاضطراب السياسى ، والمنازعات الاقليمية والعرقية ، ومنيت بالتفكك الاجتماعى ، فأصبحت الحياة كلها على شفا جرف هار ، لا ينقذها منه ، ويخرج البشرية من هذه المتاهات التى تتخبط فيها الا العودة للدين الاسلامى الحنيف ، والامتثال لأمر هذه الدعوة الالهية المباركة .

واذا كانت البشرية اليوم تواجه هذا الواقع المظلم ، بسبب البعد

عن طريق الحق والصواب ، فان واجب المسلمين كبير ، ومسئوليتهم عظيمة ، فى مواجهة ذلك ، بعد أن ندبهم المولى عز وجل الى هذا الأمر العظيم ، بما خصهم به دون سواهم من البشر ، من تكليف بهذا الأمر الجليل ، بالدعوة الى الله ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قال تعالى : "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم فمنهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون" (سورة آل عمران : ١١٠) .

وبالقدر الذى تكون فيه البشرية بحاجة الى دعوة الاسلام ، فالدعوة بحاجة الى دعاة مخلصين ، يترسمون خطا السلف الصالح من دعاة الاسلام ، وان من أول ما يجب على الدعاة عمله ، معرفة الضعف والضياع الذى أصاب المسلمين اليوم واصلاحه ، وبعد تقويم أنفسهم ومجتمعاتهم يدعون غيرهم الى هذا الدين ، لأن المسلم هو المرآة التى يرى منها غيرة الاسلام ، والمسلمون اذا لم يصلحوا أنفسهم ، ويدعوا مجتمعاتهم ، فكيف يصلحون غيرهم ؟ أو يدعون من سواهم للاسلام ؟ وفاقد الشىء لا يعطيه،وقبل هذا وذاك يجب على المسلمين — وخاصة الدعاة — معرفة حقيقة دعوتهم التى يدعون بها واليها .

وان مما يجب معرفته عن هذه الدعوة ، الأسباب والعوامل التى بموجبها يمكن لدعوة الاسلام ، أن تحقق النصر والنجاح .

فكان أن أخترت هذا الموضوع ، وقمت بهذا الجهد المتواضع لبيان الأسباب التى نجحت بموجبها الدعوة الاسلامية ، حتى بلغت الآفاق على يدى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه الكرام رضي الله عنهم ، والتابعين لهم باحسان . وهى الأسباب التى لابد أن نأخذ بها الآن اذا ما أردنا للدعوة

الاسلامية النجاح ، وفهم المسلمون الواجب الملقى عليهم ، وقبلوا هذه الدعوة ، وطبقوا منهاجها فى حياتهم .

وسوف يجد القارئ الكريم ايضاح ذلك فى مواضعه من هذه الرسالة ان شاء الله .

ولذلك اخترت أن يكون عنوان الرسالة :

(أسباب نجاح الدعوة الاسلامية فى العهد النبوى)

وعملى فى البحث كما يلى :-

أننى بعد قراءة الكثير من المراجع ، واستشارة كثير من أساتذتى ، وبالاستفادة بما لديهم من خبرة ومعرفة ، فقد قسمت الرسالة الى :- مقدمة ، وتمهيد ، وبابين ، وخاتمة .

أما المقدمة :

ففيها بيان أهمية الموضوع ، وسبب اختياره ، وفيها تعريف بالرسالة ، وبيان لمنهجى فى البحث .

أما التمهيد :

فعنوانه : (الدعوة الاسلامية)

وتحدثت فيه عن بداية الصراع بين الحق والباطل ودعوة الحق ، وتعريف الدعوة ، كما تحدثت عن ضرورة الدعوة ، وحكم تبليغها ، وأبنت موضوع الدعوة وخصائصها ، ومن هو الداعية وما واجباته ؟

أما الباب الأول :

فعنوانه : العوامل الخارجية لنجاح الدعوة

وقد قسمته الى فصلين :ـ

الفصل الأول : حاجة العالم للدعوة

وتحدثت فيه عن حاجة العالم قبيل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم للدعوة الاسلامية ، بعد أن أصيبت الحياة بالخلل الدينى والسياسى والاجتماعى ، بما فيهم أهل الديانات السماوية ، وخصصت فيه مبحثا عما أصاب العرب خاصة من جهل وضلال وشرك ، بسبب بعدهم عن عصر النبوات والصلاح .

الفصل الثانى : التمهيد الربانى للدعوة

تحدثت فى هذا الفصل عن الاهاصات ، والدلالات الربانية التى أجراها المولى — عز وجل — فى حياة الناس والكون ، للدلالة عن صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، وثبوت دعوته ، وعمومها لكل الناس ، وأنه صلى الله عليه وسلم آخر الرسل وأفضلهم ، وأن دعوته آخر الدعوات وأكملها ، ومنها : ما كان بشائر سابقة رافقت مولده المبارك أو سبقته ، أو وقعت بعد مولده وقبل مبعثه .

اضافة الى الدلالات الأخرى ، مثل حكمة اختيار مكة وقريش منطلقا للدعوة ، وحادث الفيل وأثر كل ذلك فى نجاح الدعوة ، بعد أن تعلق العرب عامة ببيت الله الحرام ، وبعد أن تأكدت فيهم مكانته ، كما أقروا لسكان مكة من قريش بالفضل والسبق على من سواهم من العرب .

فكان كل ذلك من أسباب نجاح الدعوة الاسلامية بعد ، كما هو موضح فى موضعه .

أما الباب الثانى :

فعنوانه : العوامل الداخلية لنجاح الدعوة .

وقد قسمته الى فصول ثلاثة :

الفصل الأول : العوامل الذاتية فى الدعوة

تحدثت فيه عن الأسباب والعوامل اللصيقة بالدعوة من حيث ذاتها (والمبادئ والأحكام والأصول) وذلك لما امتازت من كونها : دعوة ربانية ، ودعوة الحق والفطرة ، ودعوة شاملة ، ودعوة تقوم على الجهاد .

وكل فقرة منها بسطتها فى مبحث مستقل ، وعرضتها عرضا مناسبا ، وسقت أدلتها ، وناقشتها مناقشة وافية ، أبانت كيف كانت تلك الخصائص عاملا من عوامل نجاح الدعوة الاسلامية .

الفصل الثانى : القرآن الكريم المعجزة الكبرى للدعوة

تحدثت فى هذا الفصل عن القرآن الكريم ، وأثره فى نجاح الدعوة ، من ناحية الاعجاز القرآنى ، وثبوت القواعد والأصول ، والتدرج مع ظروف الأمة فى أحكامه وتشريعاته ، وأثر كل ذلك فى قبول القرآن والامتثال لمنهجه وتطبيقه ، وأثر كل هذا فى نجاح الدعوة .

الفصل الثالث : العوامل الذاتية فى الدعاة

ونظرا لأن دعاة الاسلام ، وفى مقدمتهم امام الأنبياء ، وأفضل الدعاة صلى الله عليه وسلم لهم أعظم الآثار فى نجاح الدعوة الاسلامية ، لتطبيقهم الاسلام ، فى كل شئون حياتهم ، فقد أفردت هذا الفصل للحديث عن العوامل الذاتية فى الدعاة ، وهذا الفصل يحوى ثلاثة مباحث :-

المبحث الأول : عن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخلقه ، وأثر

ذلك فى نجاح الدعوة ، بعد أن أقام صلى الله عليه وسلم من سجاياه ، وتصرفاته أدلة صادقة لا يرقى اليها الشك على صحة دعواه وصدق نبوته .

المبحث الثانى : حكمته وحسن اعداده وتخطيطه للدعوة ، واستفادته من طاقات أتباعه، وما كان يتحلى به من صبر وصفح ، مما كفل للدعوة الظفر والنجاح .

المبحث الثالث : تحدثت فيه عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رجالا ونساء ، الذين رباهم صلى الله عليه وسلم ، وأثر تضحياتهم الهائلة ، وجهادهم المنقطع النظير فى نجاح دعوة الاسلام ، وأبنت كيف أن واجب المسلمين اليوم ، السير على خطاهم ، واقتفاء آثارهم ، اذا ما أرادوا للدعوة الاسلامية النجاح .

وقد راعيت فى تقسيم أبواب الرسالة التسلسل الزمنى لأسباب نجاح الدعوة ، حيث أن المقصود بالأسباب الخارجية (الباب الأول) تلك الأسباب والعوامل التى سبقت الدعوة ، ومهدت لها .

وبالأسباب الداخلية (الباب الثانى) الأسباب والعوامل التى رافقت الدعوة ، ولاصقتها ، ومازالت ضرورة لنجاحها .

أما الخاتمة :

فقد وضحت فيها النتائج التى توصلت اليها من خلال بحثى فى هذه الرسالة ، وختمت ذلك كله بفهارس الرسالة المتعددة .

منهجي في الرسالـه :

هذا وفي عملي في الرساله ، اعتبرت الأمور التاليه :

أولا : أن هذا الموضوع من الموضوعات الاسلامية المتشعبة والواسعـة ، والخوض فيه يحتاج الى جهد كبير ، ومقدرة على البحث ، وسيطـرة على القلم ، بحيث لا يخرج عن الموضوع الأصلي ، نظرا لكـثرة ما كتب في موضوعات الدعوة ، ولما كانت ظروف الرسالـة لا تمكن من كتابـة كل ذلك ، فكنت دائما آخذ الأهم وأترك المهم عند ما أجد الموضـوع متشعبا وقد يأخذ حيزا كبيرا من الرسالة .

ثانيا : اعتمدت الدليل ، وقوته في ترجيح الآراء ، ولقد كنت أترك الآراء المرجوحه ، ولا أكتبها في بحثي ؛ نظرا لعدم اتساع الرسالـة لذلك، خاصـة اذا علمنا أن الذين كتبوا في هذه الموضوعات كثيرون، تختلـف ميولهم ومشاربهم ، كما تجنبت الخلافات الفقهية ، والـردود العقائدية ؛ لعدم اتساع المجال لها .

ثالثا : رقمت الآيات القرآنية ، وخرجت الأحاديث النبوية، والآثار الأخرى الـتي وردت في كلامي ، أو في كلام من نقلت عنهم .

رابعا : حرصت على توضيح عملي في الرسالـة ، فترجمت للأعلام ، وشرحت الألفاظ اللغوية ، وبينت الاصطلاحات التي مرت بي أثناء البحـث . وضبطت ما يحتاج الى ضبط من الألفاظ .

خامسا : عملت فهارس تفصيلة للأيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والأعلام ، والمصادر والمراجع ، وأخيرا الموضوعات .

وبعد : فهذا هو بحثي ، وتلك طاقتي ، وقد بذلت غاية الوسع ومنتهى الجهد ، فأرجوا أن أكون قد وفقت في ذلك ، فانى أصبت فمن الله ، وان تكن الأخرى فمن نفسى واستغفر الله تعالى ، وحسبى أنى مجتهد ، أرجو الأجر ، وأتحرى الصواب ((ان أريد الا الاصلاح ما تستطعت وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب)) (سورة هود : ٨٨) .

شكر وتقدير :

وفى الختام فاننى أتقدم بالشكر الجزيل ، وعظيم الوفاء والامتنان ، لكل من أعاننى فى هذا العمل ، وخاصة الأستاذ الدكتور / عبد الستار فتح الله سعيد ، المشرف على الرسالة ، والذى أمدنى بكثير من النصائح العلمية ، التى أعانتنى على اخراج هذه الرسالة فالله يجزيه عنى خير الجزاء .

كما أشكر المسئولين فى المعهد وعلى رأسهم المدير ، ووكيله على ما يبذلونه من جهد فى خدمة الاسلام ، والعلم وطلابه ، والمسئولين فى المكتبات التى كنت أرتادها ، حيث وجدت منهم كل مساعدة ومعاونة .

وختاما أشكر جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية على ما تقوم به من جهود عظيمة ، فى مجال الدعوة ، وخدمة الاسلام والمسلمين ، ونشر العلم فى كل مكان .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين
وصلى الله على نبينا وسيدنا محمد وآله وأصحابه ،
ومن دعا بدعوته ، واهتدى بهداه الى يوم الدين

التمهيد

(الدعوة الاسلامية)

ويشمل الآتى :

١ - صراع الحق والباطل .

٢ - دعوة الحق .

٣ - تعريف الدعوة .

٤ - ضرورة الدعوة .

٥ - حكم تبليغ الدعوة .

٦ - موضوع الدعوة وأركانها ، وأصولها .

٧ - الدعوة وما يراد فيها .

٨ - خصائص الدعوة وأساليبها .

٩ - الداعية وواجباته .

١ - صراع الحق والباطـــل :

لقد كان من حكمة الله تعالى أن جعل الحق والباطل ، كما جعل الخير والشر ، لأن الشيء بضده يتميز ، وتعرف قيمته ، وتدرك أهميته . لذلك كان الصـــراع بـين الحق والباطل ، سنة من سنن الله تعالى ، التي اقتضتها حكمتـه لهذا الوجـــود .

والصراع بين الحق والباطل قديم قدم الانسان ، حيث كان منذ خلـق الله آدم ، وكرمـه بأمر الملائكة أن يسجدوا لـه ، وامتناع ابليـس عـن امتثال أمر ربـــه ، استكبارا منه وعلوا ، كما دل على ذلك القرآن الكريم في عدة مواضع .

ثم لما أهبط الله آدم وزوجـه الى الأرض نشبت على ظهرها عداوة هائلة بينهما وبين الشيطـان .

ثم لما تناسل آدم وحواء ، وخرجت منهما ذرية اندلع فيهـا العداء ، وأخــذ بنو آدم يتصارعـون فيمـا بينهـم : من أجل الحياة ومن أجل البقاء ، ومن أجـل العقيـدة ، ومن أجل السيطرة .... الخ .

فقتل قابيل أخاه هابيل حقدا وعدوانا ، واستمر الصراع بين الحق والباطل فـي كل العصور والأزمنـة .

٢ - دعـوة الحـق :

ومهما كان الأمر فالحق دائما هو المنتصر ، وان كان للباطل صولة فللحق صـــولات وجولات ، والنصر دائما مع أهـل الحـق ، ورجال الخـير ، وجحافل الهداية . قال تعالـى : " انا لننصر رسلنـا والذين آمنـوا في الحيـاة الدنيـا ويـــوم

يقوم الأشهاد " (سورة غافر : ٥١) .

ومع ذلك فالحق لا ينتصر بذاته ، ولا ينتشر بقوته فقط ، فكان من حكمته تعالى أن جعل الحق بحاجة الى قوة تحميه ، وتذود عنه ، وتكفل له الذيوع والانتشار ، وتبين حقيقته للناس ، وتكشف باطن أعدائه ؛ من أهل الشر ، ودعاة الضلال والهدم ، كما أن فى ذلك ابتلاء لأهل الخير ، وجند الحق ، وتمحيصا لهم ، مصداقا لقوله تعالى :

" ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين " (سورة آل عمران : ١٤٠ — ١٤١)

والدين الاسلامى هو الحق .

قال تعالى : " والذى أنزل اليك من ربك هو الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون" (سورة الرعد : ١) .

لابد من الدعوة اليه ، ونشره بين الناس ، وتلك الدعوة لابد لها من رجال يقومون بها ، وينبرون لنشرها وبيانها ، والذود عنها ، والدفاع ونها لأنها دعوة للحق والخير ، فكان لابد لها من الدعم المتواصل ، وتنويع السبل ، واختيار الوسائل المطلوبة ، والطرق الممكنة ، والأساليب المتاحة للاقناع ، وفى مقدمة ذلك ضرورة التزام العمل ،والقدوة من جانب المسلمين عموما ، وخاصة رجال الدعوة ودعاتها ، بعد أن أرشدنا الى ذلك القرآن الكريم فى عدة آيات ، كقوله تعالى :

" ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين " (سورة فصلت : ٣٣) .

فالآية تضمنت أهم قاعدتين من وسائل الدعوة : القول الحسن ، والعمل

الصالـــح .

ورسول اللـه صلى الله عليه وسلم ،وأصحابه رضوان الله عليهم ، والتابعون لهم باحسان من جند (دعوة الحق) طبقوا منهج القرآن الكريم وأسلوبه العملي تطبيقا تاما ، فكان لهم ما أرادوا من نجاح الدعوة ، وتحقيق مرادهم بنشر الاسلام .

وواجب المسلمين اليوم السير على ذلك المنهج في دعوة الناس الى دعـــــوة الحق ، والاستفادة من كل الوسائل المتاحة لهم التى تساعد فى نشر الدعوة ونجاحها . حتى تحقق البشرية كلها الفوز والسعادة فى الدنيا والآخرة .

٣ - تعريف الدعوة :

الدعوة : لغة تطلق على المناداة والطلب ، فهى من الدعاء ، وهو النداء والصيحـــة والحث على قصده ، أى قصد المنادى والطالب (١) . جاء فى أساس البلاغة "دعـــوت فلانا ، ناديته وصحت به ، والنبى داعى الله ، وهم دعاة حق ، ودعاة الباطل ، ودعـاة الضلالة " (٢)

فالدعوة بهذا المعنى اللغوى تفيد المحاولات القولية والفعلية ، والسعي الى تحقيـــــق هدف بعينه ، قد يحتاج الأمر معه الى جهد والحاح .

وأما اصطلاحا : فقد عرف العلماء (الدعوة الاسلامية) بعدة تعريفات منها :

١ - قال ابن الأثير عند ذكره لقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى كتابه لهرقل " أدعوك بدعاية الاسلام "(٣) أي دعوته ، وهى كلمة الشهادة التى يدعى اليها أهل الملك الكافرة (٤) .

٢ - ان الدعوة " صرف أنظار الناس وعقولهم الى عقيدة تفيدهم ، أو مصلحة تنفعهـــم ، وهى أيضا ندبه لانقاذ الناس من ضلالة كادوا يقعون فيها أو مصيبة كادت تحـــدق بهـم " (٥) .

---

(١) أنظر : لسان العرب جـ ٤ مادة دعو

(٢) أساس البلاغة جـ ١ ص ١٨٩ مادة دعـو

(٣) حديث صحيح رواه البخارى فى (باب بدء الوحى) جـ ١ ص ٩

(٤) النهاية فى غريب الحديث والأثر ، الطبعه الأولى جـ ٢ ص ١٢٢

(٥) تاريخ الدعوه لمؤلفه : آدم عبد الله ، الطبعه الثانيه ١٣٩٩هـ ص ١٧ .

٣ - وقيل الدعوة هى : "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" (١) .

وهناك تعريفات أخرى لا يتسع المجال لذكرها .

وهذه التعريفات لا تخلو من نقد وملاحظة منها :-

أولا : الطول فى اللفظ - كما هو التعريف الثانى - والمطلوب كون التعريف موجزا الا على القصد بقدر المستطاع ، وبحيث يكون التعريف جامعا مانعا أيضا .

ثانيا : عدم التفريق بين الدعوة والحسبة - كما فى التعريف الثالث - لأن الحسبة جزء من الدعوة العامة ، وعدم تفريقهم بين التبليغ الذى هو المقصود بالدعوة ، وبين الاسلام من حيث المبادىء ، والأحكام التى تبلغ عن طريق الدعوة كما فى التعريف الأول .

والتعريف المنضبط للدعوة الاسلامية أن يقال الدعوة :

" هى الاسلام من حيث المبادىء ، والقيام بنشره وجذب الناس اليه من حيث الوسائل والأساليب " .

ومن هذا التعريف للدعوة يفهم أن المقصود فى عنوان الرسالة بأسباب نجاحها من حيث المبادىء وهو الاسلام ، ومن حيث الوسائل والأساليب .

٤ - ضرورة الدعوة :

سبق الحديث عن بداية الصراع بين الحق والباطل ، منذ وجد الانسان على ظهر الأرض ، وأم حاجة البشر الى من ينقذهم من الضلالة ، ويهديهم

---

(١) الدعوة فريضة شرعية للدكتور / صادق أمين ص ٣٩

الى الصراط المستقيم ، ويدلهم طريق الهداية ، فكان أن بعث الله أنبياءه ورسله تترى لهذا الغرض ، من لدن نوح ، الى آخرهم محمد (عليهم الصلاة والسلام) وكان هؤلاء الرسل الكرام يواجهون ذلك الصراع الرهيب بين ما جاءوا به من الحق ، وبين الباطل وأعوانه ممن أغواهم الشيطان ، وكانوا صابرين على الحق ، متحملين الأذى ، واقفين فى وجه الصراع الذى يعتبر امتدادا لصراع آدم مع الشيطان .

وعند ما بعث الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بدعوة الأنبياء خاتما لهم بالدين الاسلامى ، وأنزل عليه آخر كتبه .

جاء القرآن الكريم كتاب دعوة ، حاملا بين دفتيه ما يتعلق بها من حيث موضوعها وهو الاسلام ونشره ، وما يختص بالتبليغ من وسائل وأساليب فقد جمع القرآن الكريم بين (مبادئ الاسلام) من عقائد وعبادات ومعاملات ، كما تضمن (أساليب ووسائل) تبليغ الدعوة القولية والعملية .

فالقرآن الكريم يأمر بالدعوة ، ويرغب فيها بآكد الأساليب ، مما يدل على أن الله تعالى أوجب على هذه الأمة الدعوة الى دين الله ، وهو الاسلام وقد تضمن القرآن الكريم عددا من الآيات الدالة على ذلك مثل قوله تعالى :

" ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون " (سورة آل عمران : ١٠٤) .

وقوله تعالى : " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون " (سورة آل عمران : ١١٠) .

فقد جعل الله تعالى لهذه الأمة شرف القيام بالدعوة الى الله ، وفرض عليهم تبليغ الاسلام للعالمين فى كل زمان ومكان ، لأن دعوة الاسلام شاملة

للعالمين جميعا ، ورحمة لهم .

قال تعالى : " وما أرسلناك الا رحمة للعالمين " (سورة الأنبياء : ١١٧)

وعلاوة على ما ورد فى القرآن من الأمر بالدعوة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فان حاجة البشر الى الشريعة ، ودعوتهم اليها ضرورة فطرية ، لا غنى عنها ، لكون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من لوازم وجود المجتمعات الانسانية ، فضلا عن أنه الحد الفارق بين الايمان والكفر ، كما يقول ابن تيمية رحمه الله (١) .

وحاجة البشر الى الدعوة ، وأمرهم بالمعروف كحاجتهم الى الطعام والشراب والدواء ، حيث لا غنى لأحد من البشر عن الدعوة والشريعة ، كما لا يستطيع الاستغناء عن الطعام والشراب والهواء كما يقول (٢) ابن قيم الجوزية رحمة الله ، ويقول فى موضع آخر عن فضل الدعوة الى الله ، والحاجة اليها ، ومكانة الدعاة عند الله تعالى :

" اضافة الدعاة الى الله للاختصاص ، أى الدعاة المخصصون به الذين يدعون الى دينه ، وعبادته ومعرفته ومحبته وهؤلاء خواص خلق الله ، وأفضلهم عنده منزلة ، وأفضلهم قدرا لأن مقام الدعوة الى الله أفضل مقامات العبد " (٣)

ومن ثم كانت الدعوة الى الله وظيفة الرسل عليهم السلام .

---

(١) أنظر : الحسبة فى الاسلام ص ١٨٣
(٢) مفتاح دار السعادة جـ ٢ ص ٢
(٣) مفتاح دار السعادة جـ ١ ص ١٥٣

٥ - حكم تبليغ الدعوة :

الأصل فى حكم تبليغ الدعوة وجوب ذلك على كل مسلم ومسلمة لورود الأمر فى القرآن الكريم بالحث على الدعوة الى الله ، أى دينه ، **والحث على عبادته وحده** ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأن الله تعالى امتدح هذه الأمة وشرفها عن غيرها من الأمم ، بالقيام بهذا الأمر العظيم ، قال تعالى : " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون " (سورة آل عمران : ١١٠) .

وندبهم تعالى الى هذا العمل الجليل فى قوله :

" ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون " (سورة آل عمران : ١٠٤) .

فأصل وجوب ذلك على العموم الا أنه اختص به العلماء ، ورجال الدعوة ، لمعرفتهم بتبليغ تفاصيله وأحكامه ومعانيه ، نظرا لسعة علمهم به ، ومعرفتهم لجزئياته (١) .

ويرى ابن تيمية (٢) (رحمه الله) أن الدعوة الى الله بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفاية لقوله تعالى :

" ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون " (سورة آل عمران : ١٠٤) .

---

(١) أنظر : أصول الدعوة ص ٣٠٠

(٢) ابن تيمية : هو أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ولد بحران سنة ٦٦١هـ وتوفى بدمشق معتقلا سنة ٧٢٨هـ كان آية فى التفسير والأصول أفتى ودرس وهو دون العشرين جاهد فى سبيل الاسلام ودعوته ، فأوذى وامتحن فى ذلك . أنظر (الأعلام جـ ١ ص ١٤٤) .

فقد أوجب الله ذلك على الكفاية اذا لم يقم به من يقوم بواجبه أثم كل قادر حسب قدرته [١] .

٦ - موضوع الدعوة وأركانها وأصولها :

أ - موضوع الدعوة :

ان موضوع الدعوة ، هو الاسلام أى تبليغه ، وبيانه للناس ، واخراجهم من عبادة ما سوا الله الى عبادة الله وحده .

ويقتضى ذلك من العباد الاستسلام لسلطان الله ، وتحكيم منهجه وشرعه فيهم ، وأن تكون السلطة فيهم لمنهاج الله ، وأوامره ونواهيه ، حتى تحقق لدعوة الاسلام ، ودين الحق السيادة والريادة ، ويعبد الله فى أرضه وفق مراده تعالى .

ب - أركان الدعوة :

لدعوة الاسلام أركان أربعة :

الأول : موضوع الدعوة وهو الاسلام أى : المدعو اليه .

الثانى : الداعى وهو من يقوم بمهمة الدعوة الى الله .

الثالث : المدعو وهو من توجه له الدعوة .

الرابع : أساليب الدعوة ووسائلها .

وهناك من يعتبر أركان الدعوة : العقيدة والشريعة والأخلاق [٢] ،

---

(١) الحسبة فى الاسلام ص ١١٦ .
(٢) أنظر الدعوة الاسلامية د / أحمد غلوش ١٤ .

وهذا التحديد لأركان الدعوة لا يستقيم عند ما ننظر لمعنى الركن لغويا (١) .

جـ - أصول الدعوة :

أما أصول الدعوة فهى : العقيدة ، والعبادات ، والأخلاق ، والمعاملات .

٧ - الدعوة وما يرادفها :

مما يرادف الدعوة الدعاية ، حيث وردت فى رسائل النبى صلى الله عليه وسلم الى الملوك ، كما جاء فى كتابه عليه السلام الى هرقل عظيم الروم . الوارد فى الصحيحين - : أما بعد ،فانى أدعوك بدعاية الاسلام (٢)" أى بدعوته .

وعلى الرغم مما يقصد بالدعاية اليوم من ترويج للباطل ، ونشر للفساد عن طريق قلب الحقائق والمعانى فان الدعاية تظل على المعنى الأصلى الذى أراده الاسلام من نشر الحق ، ودفع الباطل ، واستغلال غيرنا لها فى تلك الصور الباطلة لا يمنع المسلمين من استغلالها فى الحق .

ومما يرادف الدعوة أيضا بفروق يسيرة :

١ - الوعظ : وهو التخويف والتذكير بالخير الذى يرقق القلب ويلينه (٣) .

٢ - الارشاد : هو هداية الناس للخير ، بمجانبة الغي ، ودلهم الى الصراط المستقيم (٤) .

٣ - البشاره : هى الاخبار بما يدخل الفرح والسرور فى الصدر .

٤ - الحسبه : هى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (٥) .

---

(١) لأن الركن هو : جانب الشئ الأقوى ، والذى لا يتم ماهية الشئ الا به .

(٢) رواه البخارى جـ ١ ص ٩ (باب كيف بدء الوحى) .
رواه مسلم جـ ٣ ص ١٣٩٦ (كتاب الجهاد - باب كتاب النبى الى هرقل) .

(٣) أنظر معجم مقاييس اللغه لابن فارس جـ ٦ ص ١٢٦

(٤) أنظر النهاية فى غريب الحديث والأثر الطبعه الأولى جـ ٢ ص ٢٢٥ .

(٥) احياء علوم الدين ، لأبى حامد الغزالى ؛ طباعة دار المعرفه ببيروت جـ ٢ ص ٣١٢ .

٨ - خصائص الدعوة وأساليبها :

أ - الخصائص :

من فضل الله تعالى ، أن خص الدعوة الاسلامية بخصائص ، تنفرد بها عن غيرها ، وتميزها عن الدعوات الأخرى ، خاصة الدعوات الوضعية .

فمن خصائصها :-

كونها دعوة ربانية ، ودعوة الحق والفطرة ، وموافقتها للعقل السليم ، وكونها دعوة عالمية ، شاملة لكل البشر فى كل الأزمنه والأمكنة .

وقد كانت تلك الخصائص من أسباب نجاح الدعوة ، وعوامل انتشارها - كما سيأتى ان شاء الله - كما أن تلك الخصائص من الأساليب والوسائل التى تخدم الدعاة ، وبخاصة فى هذا العصر ، الذى تقدم فى العلم والصناعة ، متى ما استفادوا من تلك الخصائص فى دعوتهم .

ب - أساليبها :

لقد يسر الله تعالى على دعاة الاسلام،حينما جعل الدعوة الى الله متوائمة مع الفطرة ، فى كل صغيرة وكبيرة من شئون الدعوة ، بما فيها أساليب الدعوة الكثيرة التى نص القرآن الكريم على أصولها ، وأرسى قواعدها .

فى قوله تعالى : " أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين " (سورة النحل : ١٢٥) .

وقوله تعالى : " قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين " (سورة يوسف : ١٠٨)

وقوله تعالى : " ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين " (سورة فصلت : ٣٣) .

فعلى دعاة الاسلام استخدام كل وسيلة ممكنة ، متاحة فى كل عصر ، وفى أى مكان ، يمكن بها الوصول الى الهدف ، فى بيان الاسلام للناس ، ونشره بينهم ، وارشادهم اليه (كما سيأتى ان شاء الله)

٩ - الداعية وواجباته :

الداعية هو : من يمارس الدعوة الى الله .

ويلزم الداعية عدة صفات منها :-

قوة الصلة بالله وكتابه ، وأن يكون مصلحا لنفسه ، فاهما لأمور دينه وما يلزمه من أمور دنياه ، شجاعا مخلصا لدعوته (١) .

أما أبو حامد (٢) الغزالى . فيجعل صفات الداعية فى : العلم والورع وحسن الخلق (٣) .

بحيث يكون عالما بالقدر المطلوب لما يأمر به ؛ وينهى عنه على أقل تقدير .

---

(١) أنظر : كتاب مع الله للشيخ محمد الغزالى ص ١٨٧

(٢) أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسى الغزالى ، ولد بطوس سنة ٤٥٠هـ ، كان عالما مجتهدا زاهدا ورعا تقيا ، كما كان من أذكياء العالم صاحب المصنفات الكثيرة ، توفى سنة ٥٠٥ هـ .
أنظر ترجمته فى : مقدمة احياء علوم الدين جـ ١ منشورات دار المعرفة ببيروت .
والبداية والنهاية جـ ١٢ ص ١٧٢ .

(٣) أنظر : احياء علوم الدين جـ ٢ ص ٣٣٣ .

كما يجب على الداعية الى الله اعداد نفسه ، اعدادا مناسبا لتحمل أعباء الدعوة . ويكون ذلك بالاعداد : العلمى والنفسى والثقافى ، ليستطيع تحقيق الهدف من دعوته للاسلام على بصيرة ، مصداقا لقوله تعالى : " قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين " (سورة يوسف : ١٠٨) .

ويترتب على هذا معرفة الداعية لأحوال من يدعوهم ، لأن دعوته لجميع البشر ، وليست خاصة بجنس ، أو موجهة لفئة من الناس ، فقد يكون فى فئة المدعويين الجاهل والمثقف ، والفاسق والمنافق والعاصى ، والقريب والبعيد ، والعربى والأعجمى ، وكل منهم قد يحتاج فى الدعوة الى طريقة تخالف غيره ، ولذا كان تنويع أساليب الدعوة ، وتعددها بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالحسنى ، واستعمال الترغيب تارة والترهيب تارة وغير ذلك من الوسائل والأساليب ، نعمة منه تعالى ، وفضلا على الدعاة، وعلى المدعويين فى نفس الوقت .

فكان مخاطبة الداعية للناس بقدر عقولهم ، ومكانتهم ، أمثل الطرق للدعوة ولنا فى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والسلف الصالح خير دليل . كما سنبين ذلك بالتفصيل ان شاء الله (١) .

---

(١) أنظر ص ١٦٨ من هذه الرسالة .

البـــــــــــاب الأول

****

العــــــوامـل الخارجـــية لنجــــاح الدعــوة

===========================

تمهـــيد :

العوامل جمع عامل ونعني بها الأسباب والمؤثرات التي أدت مجتمعة الى نجاح هذه الدعوة الاسلامية نجاحا منقطع النظير ، عديم المثال في كل أدوار التاريخ البشرى .

والعوامل قسمان :

أولا : عوامل خارجية ترجع الى أمر خارج عن ذات الدعوة ولكنها هيأ لها أسباب النجاح كحاجة البشرية الماسة للدعوة ، وما أجراه تعالى على سنن الكون والحياة من حوادث وخوارق كانت تمهيدا لخروج الدعوة ، وتدليلا على صدق دعوته صلى الله عليه وسلم .

ثانيا : عوامل داخلية وهي التي ترجع الى ذات الدعوة ومبادئها وكتابها وأحكامها وشرائعها وموافقتها للفطرة .

والحقت بذلك عوامل أخرى خارجة عن ذات الدعوة وأعني بها شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ونوعية الرجال الذين آمنوا به ورباهم الا أن هذه العوامل الأخيرة وان كانت خارجة عن ذات الدعوة فهي استجابة لها ونتيجة حتمية لها لذلك جعلت هذه العوامل فصلا مدرجا في الباب الثاني وهي العوامل الداخلية .

وحيث سبق أن أشرت في تعريفي للدعوة أنها تشمل الاسلام وهو مبادئ الدعوة وقواعدها وموضوعها ، وكذلك التبليغ ووسائله وأساليبه ونظرا للتكامل والتلازم بين المبادئ والأساليب والوسائل فقد أدرجت العوامل مع بعضها ولم أفرق بينها لأنها مجتمعة ومتلازمة ، وبعضها يخدم بعضا ويتأثر به ولا ينفك عنه .

الفصـــل الأول

****

(حاجة العالم للدعوة)

مر بنا في الحديث عن الدعوة كيف أنها ضرورة بشرية ، لكون البشر بحاجة الى عقيدة تربيهم ، وشريعة تحفظ وجودهم ، لأن المخلوق البشرى مهما بلغ من الرقى والذكاء عاجز عن معرفة ما ينفعه ، واجتناب ما يضره دائما ، فكان فى أمس الحاجة الى الدين الذى يصله بخالقه ، ويتبين بواسطته طريق الخير والصلاح فيتبعه ، وطريق الشر والفساد فيتجنبه ، ولتدوم تلك الصلة والمعرفة لا بد من بقاء هذا الدين والمحافظة عليه ونشره ، والدعوة اليه .

وعندما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم كانت البشرية قد وصلت الى حد شنيع من التدهور والانحلال لبعد الناس عن عصر النبوات ، ودعوات الاصلاح مما كانت معه البشرية فى حاجة ماسة الى دعوة الاسلام حيث أوجز القرآن الكريم وصف تلك الحقبة الزمنية فى آية واحدة مغنينا عما نحتاج فى وصفه الى أسفار .

قال تعالى : " ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذين عملوا لعلهم يرجعون " (سورة الروم : ٤١) .

فالآية الكريمة تصور مبلغ التدهور الذى هوت اليه الانسانية كلها،من عبدة أوثان ويهود ونصارى،بلا فرق فهي تنطق بتفشي الفساد في العالم بأسره ، بعد مرور الزمن على رسالات الرسل ، وضعف الاصلاح الذى كان قد تم على أيديهم، والذى ما كاد يمضى الزمن حتى عفا ودرس .

ولهذا حذر الله المؤمنين من الوقوع فيما وقع فيه أولئك من قسوة القلوب ،

وبعد عن الحق ، ومجانية لأسباب الهداية بسبب طول الأمد .

قال تعالى : " ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون " (سورة الحديد : ١٦) .

وما كان ذلك المجتمع الجاهلي الذى واجهه صلى الله عليه وسلم قد عمه الفساد والانهيار الا بعد ما أصيب بالخلل، والاضطراب الديني، والاجتماعي والسياسي ، وهو ما سنتحدث عنه فى هذا الفصل لتجلية الموضوع، وبيان كيف كان ذلك الخلل والاضطراب عاملا من عوامل نجاح الدعوة الاسلامية، التى جاءت على أيدى خير البشر، وامام الدعاة صلى الله عليه وسلم .

وسنتناول هذا الموضوع فى مبحثين :-

المبحث الأول : حاجة غير العرب للدعوة

المبحث الثانى : حاجة العرب للدعوة

المبحث الأول : حاجة غير العرب للدعوة

عند ما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان العالم كله يعيش في وضع بئيس ، بعد أن تضافرت عليه ظروف قاسية ، أفسدت على الناس عقيدتهم ومجتمعهم ، وجميع شأنهم .

فعبدوا غير الله ، مما زينت لهم شياطينهم من الأشجار والأحجار والنجوم والشمس والقمر والنيران . وغير ذلك .

كما انحطت المجتمعات ، وانعدمت العواطف ، وفقدت الرحمة ، وانفصمت الروابط الأسرية .

كذلك انعدم النظام ، وفقدت العدالة ، فأكل القوى الضعيف ، واستبد الظالم بالمظلوم ، واستعبد الغنى الفقير .

أمام هذا الاضطراب العقدي ، والاجتماعي والسياسي كان العالم في حاجة ملحة الى دين ينظمه ، ودعوة تسلك بالناس طريق الحق والعدل والمساواة، وتحفظ حق الجميع بعد أن عجزت الحضارات المختلفة - آنذاك - عن حل مشكلات الانسانية ، ووقفت حائرة لا تستطيع أن تقدم نفعا ، ولا أن تسدى خيرا ، بل كانت من مثيرات الفساد، حتى عم الضلال كل أرجاء الأرض ، وذلك ما أخبر عن أمره المولى عز وجل في قوله تعالى :

" ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون " (سورة الروم : ٤١) .

ولذلك سوف نبين فى الصحائف التالية الخلل والاضطراب الديني والاجتماعي والسياسي الذى أصاب العالم، حتى أصبحوا بحاجة لهذه الدعوة

المباركة ، وكيف كان ذلك الاضطراب والخلل من أسباب نجاح الدعوة الجديدة .

أ - الخلل الديني :

لما بعث الله تعالى محمدا صلى اللـه عليه وسلم كان أهل الأرض صنفين :

١ - أهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى الذى وصفهم القرآن الكريم بالمغضوب عليهم وبالضالين .

٢ - الصنف الآخر أقوام لا كتاب لهم (١) .

والى هذا التقسيم يشير صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح عند مسلم :(٢)

" انى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وانهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا ، وان اللـه نظر الى أهل الكتاب فمقتهم عربهم وعجمهم الا بقايا من أهل الكتاب " (٣) .

فالناس اذا ذاك أحد رجلين :-

اما كتابى معتصم بكتاب مبدل أو منسوخ ، واما جاهلى عربى أو أعجمى مقبل

(١) أنظر : كتاب هداية الحيارى لابن قيم الجوزيه ص ٤٨٢ .
(٢) مسلم : هو أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى ، ولد بنيسابور سنة ٢٠٤هـ ورحل فى طلب العلم،وكتابه ثانى الصحيحين المعول عليهما عند أهل السنة فى الحديث ، توفى سنة ٢٦١ هـ .
أنظر : البداية والنهاية جـ ١١ ص ٣٣ والأعلام جـ ٧ ص ٢٢١ .
(٣) نص صحيح مسلم جـ٤ ص ٢١٩٧ (باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار) . ومعنى (حنفاء) أى مسلمين ، وقيل طاهرين من المعاصى ، وقيل مستقيمين منيبين لقبول الهداية .
(اجتالتهم) أى استخفوهم فذهبوا بهم ، وازالوهم عما كانوا عليه .
(المقت) أشد البغض،والمراد به المقت والنظر قبل البعثة .

على عبادة ما استحسنه ، وظن أنه ينفع من نجم أو تمثال أو صنم وغير ذلك [١] .

حتى أصبح الناس فى جاهلية جهلاء ، وأضحت الديانات فريسة للعابثين والمتلاعبين من محرفين ومنافقين وفقدت شكلها وروحها ، ولو بعث أصحابها الأولون لم يعرفوها ، وأصبحت الدنيا مسرحا للفوضى والانحلال الدينى ، وسوء النظام ، وعسف الحكام [٢] .

حتى أضحت الانسانية كلها فى حالة احتضار ، تنتظر قدرها المحتوم يقول كاتب معاصر : "فى القرنين الخامس والسادس (الميلادى) كان العالم المتمدين على شفا السقوط في هاوية الفوضى، لأن العقائد التى تعين على اقامة الحضارة قد انهارت، ولم يك ثمة ما يعتد به يقوم مقامها ، وكان يبدو وقتئذ أن المدينة الكبرى التى تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال .

وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية الى ما كانت عليه من الهمجية اذ القبائل تتحارب وتتناحر ، لا قانون ولا نظام أما النظم التى خلفتها المسيحية فكانت تعمل على التفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام .

فكانت المدنّية التى تشبه شجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها الى العالم كله واقفة تترنح وقد تسرب اليها العطب حتى اللباب ، وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحد العالم المعروف جميعه [٣]" اهـ

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيميه ص ٢ .
(٢) انظر : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ للندوى الطبعه العاشره ص٢٨
(٣) نص : كتاب (محمد رسول الله) لمولاى محمد على ص ١٣ . نقلا عن الكاتب الأمريكى (دينفسون) .

يعني محمدا صلى الله عليه وسلم الذى جاء بدعوته المباركة ، والتي أنقذت البشرية كلها من ذلك الواقع المشين ، والظلمات المتراكم بعضها فوق بعض ، بين يهودية محرفة ، موغلة في المادية ، ونصرانية أمعنت في دعوى التسامح حتى ضيعت كرامة الانسان ، ووثنية عبث الشيطان بقلوب أصحابها .

وسنعرض - حسبما يقتضيه المقام - الى بيان شيء من ذلك الخلل :-

١ - اليهود :

لقد ورد ذكر هذه الأمة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم يشق حصرها وجاء ذكرهم فيه بالتصريح تارة ، وبالتلميح تارة أخرى .
وهم رغم كونهم أكثر الأمم أنبياء ، وكتابهم التوراة من أول الكتب المنزلة من الله تعالى ، فلم يكونوا يوما من عوامل التوجيه الى الخير ، والهداية النافعة ، لينفعوا أنفسهم ، ويؤثروا في غيرهم .
نظرا لما تحطه الشخصية اليهودية في أعماقها من خصائص نفسية بالغة التعقيد ، ولما تنطوى عليه أخلاقها من العوج والالتواء ، فلذلك تموج صدورهم بحقد طافح على الانسانية كلها ، وتتأجج جوانحهم دائما بالغل المحتدم ، والسعي في الأرض بالفساد ، فهم لا يرون لأنفسهم راحة أو سعادة الا على أنقاض الآخرين (١) .
لذلك عاقبهم الله تعالى من قرون طويلة بأن يبعث من يسومهم سوء العذاب ، وأن يتعرضوا للاضطهاد والاستبداد والنفي والجلاء ،

---

(١) أنظر : كتاب (معركة الوجود بين القرآن والتلمود) للدكتور / عبد الستار سعيد الطبعه الأولى دار النصر للطباعه الاسلاميه بالقاهره ص ٢٦ .

حتى أورثهم ذلك التفرد من بين الأمم في الأرض العبودية الطويلة ، والتعالي في القومية ، والجشع وشهوة المال والتعالى بالأنساب كذبا وادعاء .

والقرآن الكريم يصفهم وصفا دقيقا يصور ما كانوا عليه فى القرن السادس (الميلادى) وما قبله من تدهور خلقي ، وانحطاط نفسى ، وفساد اجتماعي ، عزلوا بسببه عن قيادة العالم ، وامامة الأمم ، حيث سجل ذلك القرآن الكريم فى عدة مواضع ، مثل سورة البقرة الى ما بعد المائة الأولى منها ، وأول سورة الاسراء وغيرها .

فالآيات القرآنية الكريمة تصور حال ذلك النوع ، وموقفهم من أنبيائهم وما أرداهم اليه ذلك السلوك المشين من الذل والهوان ، مما استوجب معه تجديد دعوة الأنبياء ، التى تتابعت تترى من لدن آدم عليه السلام بالدعوة الاسلامية الخاتمة لكل الدعوات والديانات بعد أن اشتدت الحاجة لهذه الدعوة المباركة عند فساد الفكر اليهودى ، وانتكاسته عن الفطرة ، وبعد أن أصبح يلتزم بكثير من المبادئ المدمرة للانسانية جمعاء ، والتى أهمها :-

١ - الالحاد فى العقائد :

ان من أوضح مظاهر الفساد في الفكر اليهودى ، وانتكاسته عن طريق الحق والهداية ، التحريف في العقائد ، والالحاد فيها ، حتى ان المرء ليندهش غاية الدهشة حينما يقرأ شيئا عن اليهود وعقائدهم وتصوراتهم سواء ما أخبر عنه القرآن الكريم ، أو ما ورد فى كتبهم ، كتوراتهم المحرفة ، أو تلمودهم

المزعوم ، ففيها تطاول خطير على الله تعالى ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وسائر عقائد الدين [١] .

فهم يصفون الله تعالى بصفات تنزل به عن جلاله الاسمى - عزو تنزه - فيصفونه بالقسوة ، وانعدام الرحمة ، والعداء للشعوب غير اليهودية ، ويكفرون بالله تعالى ، ويتطاولون عليه تعالى ، الذى يقول عز شأنه عنهم :

" لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء " (سورة آل عمران : ١٨١) .

بعد افترائهم على المولى - جل وعلا عن كفرهم - حينما قالوا :- " ان الله استراح فى اليوم السابع من خلق السموات والأرض" [٢]

" وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا " (سورة المائدة : ٦٤) .

وغير ذلك من مزاعمهم التى تصور الرب فى هذه المزاعم السافلة صورا لا تليق به تعالى ، بعد انحراف اليهود عن التوحيد الحق الذى جاء به موسى عليه وعلى رسولنا السلام ، وأقاموا دينهم على الشرك والالحاد ، حتى كان التوحيد لديهم أشبه ما يكون بالشعار فقط [٣] .

وان قوما يتمردون على الله تعالى بهذه الصفة ، ليس مستغربا تعديهم ، وكذبهم على الخلق من البشر ، وان كانوا أفضلهم ،

---

(١) أنظر : كتاب معركة الوجود للدكتور / فتح الله سعيد الطبعه الأولى ص ١٠٩ .
(٢) هداية الحيارى لابن قيم الجوزيه ص ٥٨٤ .
(٣) أنظر : كتاب اليهودية والصهيونية للاستاذ / أحمد عبد الغفور عطار الطبعة الأولى ص ٢٩ .

وهم الأنبياء ، وذلك بالنظر اليهم على أنهم مجرد آباء أو ملوك لبني اسرائيل ، وعدم تنزيههم عن النقائص ، وتصويرهم على أنهم ليسوا أهلا ليكونوا كذلك ، حسبما جاء في توراتهم المحرفة ، وأسفارهم المقدسة في زعمهم ، حتى اطرد فيهم تكذيب الرسل ، وقتلهم اذا جاءوهم بما لا تهوى نفوسهم الضالة المريضة .

يقول تعالى عنهم :-

" أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون " (سورة البقرة : ٨٧) .

وقال تعالى في الآية الأخرى عن وقاحتهم مع رسلهم :-

" لقد أخذنا ميثاق بني اسرائيل وأرسلنا اليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون (سورة المائدة : ٧٠) .

وفي التوراة التي بأيديهم من التحريف ، والكذب على الأنبياء (عليهم السلام) ما يشك في كذبه من له أدنى عقل وبصيرة ، مما لا يجوز نسبه للأنبياء من الباطل .

ولم يسلم من كذبهم أي نبي ، حتى ابراهيم (أبو الأنبياء) عليهم السلام جميعا (١) .

وعندما كذبوا رسل الله الكرام بتلك الصورة ، واستكبروا عليهم ، وقتلوهم فلم يسلم من تطاولهم حتى ملائكة الله المكرمين ، حيث

---

(١) أنظر : اليهودية والصهيونية المؤلف / أحمد عبد الغفور عطار ، الطبعة الأولى ص ٢٩ .

زعموا أن جبريل عدو لهم .

قال تعالى فى الرد على زعمهم هذا :

" قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين " (سورة البقرة : ٩٧ ، ٩٨) .

٢ - ربط الثواب والعقاب بالدنيا :

من أهم المبادىء التى ينبنى عليها الفكر اليهودى ، ربطهم الثواب والعقاب بالدنيا دون الآخرة ، التى أعرضوا عنها وأنكروها ، فكان اهتمامهم بالدنيا ، وذلك ناتج عما غرس فى قلوبهم من اهتمام بالمادة ، وجمع الأموال ، وملكيته وسائل الحياة ، مما جعلهم يرون ان ما يوصلهم لهذه الغاية ، أهم من الاشتغال بالآخرة ، والاعداد لها .

وقد ترتب على هذا التصور أن لا تتحدث أسفارهم المحرفة عن عن الثواب والعقاب فى الآخرة ، فوسعوا أمام الشخص دائرة الأمل فى الدنيا عندما يظهر المسيح ، ويعطيهم حقهم (١) .

وهذا ناتج عن تحريفهم ، وانحراف سلوكهم وعقيدتهم ، والا - فالقرآن الكريم يدل فى أكثر من موضع منه على أن الديانه

---

(١) أنظر : مقارنة الأديان (اليهودية) تأليف الدكتور / أحمد شلبى الطبعه الخامسه جـ ١ ص ٢٠٢ .

اليهودية قبل التحريف كانت تقرر البعث ، والعقاب والثواب في الآخرة ، كما هو مشاهد في القرآن الكريم عند الحديث عن ابراهيم ـ عليه السلام ـ وذريته من أنبياء بني اسرائيل كاسحاق ويعقوب ويوسف وداود وسليمان عليهم السلام .

يقول الدكتور : على عبد الواحد وافي (١) :

" كانت الديانة اليهودية في أصلها تقرر البعث والنشور واليوم الآخر والحساب والجنة والنار كما ينبئ بذلك القرآن الكريم . ولكن أسفار العهد القديم ـ وهي المرجع الأصلي للعقيدة اليهودية ـ قد خلت من ذكر اليوم الآخر ونعيمه ، وجحيمه على النحو الصحيح ، ومن ثم لا نجد من فرقهم من يؤمن بالله واليوم الآخر على الوجه المطلوب الذي قرره الاسلام " (٢) .

---

(١) على عبد الواحد وافي مفكر اسلامي مصري معاصر ، ولد في أوائل القرن الهجري المنصرم ، يعتبر من رواد علم الاجتماع .
تولى تعريب وتدريس الاجتماع بمصر عام ١٩٣٦م ثم اختير عضوا للمجمع الدولي لعلم الاجتماع بفرنسا ، تولى عدة مناصب ، منها عمادة كلية الآداب بجامعة أم درمان ، ثم مستشارا بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، ثم رئيسا لقسم الاجتماع بالجامعة ، يعمل حاليا استاذا بالمعهد العالي للدعوة الاسلامية بالمدينة .
(تحصلت على هذه الترجمة من مذكراته المعدة لطلاب الجامعة ، ومن بعض زملائه وطلابه) .

(٢) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للاسلام،مطبعة نهضة مصر بالقاهرة ص٢٤.

٣ - ادعاؤهم أنهم شعب الله المختار :

ان من أشد اعتقاداتهم خطرا على الانسانية ، تصورهم بأنهم شعب الله المختار ، حيث يرون أنفسهم شعبا متميزا عن غيرهم من الأمم ، بعدما قدم الاههم لابراهيم عليه السلام وعدا بأن يفضل اليهود على جميع الأجناس !!

والقرآن الكريم يقرر أن الله اختار بنى اسرائيل ليقوموا بحمل رسالته فى العالم القديم ، وفضلهم بذلك على العالمين فى زمانهم ، ولم يكن هذا الاختيار بسبب العنصر ، أو العرق والسلالة الخاصة أو غير ذلك من دعاوى وأباطيل الجاهلية البشرية !!

وانما كان هذا الاختيار تكليفا واختيارا لبنى اسرائيل أيشكرون أم يكفرون ؟

قال تعالى : " ولقد اخترناهم على علم على العالمين . وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين " (سورة الدخان : ٣٢ ، ٣٣) .

ولكن ماذا فعل بنو اسرائيل بهذا الاختيار رغم الآيات البينات ؟ !

يشهد الله ، وكتابه ، وأولو العلم قديما وحديثا أن اليهود قد سقطوا فى هذا البلاء والاختيار سقوطا شنيعا ذريعا ، تفردوا به بين العالمين أجمعين ، بما حرفوا من دين الله ، وبما عصوا وكانوا يعتدون ، حتى سلبوا عن أنفسهم شرف حمل الرسالة وأداء الأمانة ، وغضب الله عليهم غضبا أبديا ، ولعنهم

لعنا عارما باعتراف كتبهم ، وعلى ألسنة أنبيائهم (١) .

قال تعالى : "لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون هم منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون" (سورة المائدة : ٧٨ ، ٧٩)

وتحول هذا الاختيار والابتلاء الذى لم يرعوه حق رعايته شرا مستطيرا عليهم وعلى الانسانية كلها، بعد أن أصبح اليهودى يرى فى نفسه أنه أفضل من غيره من بنى البشر ، مما جعله شاذا فى تفكيره وسلوكه وآدابه ومعتقده ومعاملته ، ومن شدة صلفهم وتعاليهم زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، فقال الله تعالى ردا لزعمهم الخطير :-

"وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء" (سورة المائدة : ١٨) .

بعد فقدهم الرحمة ، واعتقادهم أن غيرهم مجرد حيوانات لخدمتهم لا يستحقون الرحمة والعطف .

فالتلمود يقول : " الرحمة محرمة على الوثنى " (٢)

وكلمة الوثنى يطلقونها على غير اليهودى !!

لذلك احتكر اليهودى الجنة لنفسه دون غيره ، كما احتكر الاله، وكل ما هو حسن فلا يدخل الجنة أحد غير اليهودى ؛ وقد رد القرآن الكريم زعمهم وكشف باطلهم .

---

(١) أنظر : كتاب معركة الوجود ص ١٥٢ وما بعدها (بتصرف) .
(٢) اليهودية والصهيونية الطبعه الأولى ص ٢٩ .

قال تعالى :

" وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين " (سورة البقرة : ١١١)

٤ - الشذوذ فى السلوك والتعامل :

اذا كان الله تعالى قد فطر الخلق على الرحمة ، حتى لدى الحيوانات المتوحشة ؛ فان اليهود لا يعرفون الرحمة التى بها يعيش جميع البشر سعداء متآلفين متحابين ، حتى خلى سلوكهم وتعاملهم مع الغير من السلوك المستقيم، والتعامل بأدب ، بل جعلوا تعاملهم مبنيا على الخداع والمراوغة والنفاق والانتهازية ، وهذا ما يكشفه القرآن الكريم .

مما يظهر لنا حالهم، بما لا نحتاج معه الى شديد عناء ، أو بحوث تاريخية ، ودراسات نفسية أو اجتماعية .

فان واقع حالهم يدل على استحالة التعامل معهم ، وصعوبة معايشتهم فى سلام ومودة ، علاوة على ما تؤكده توراتهم، ونص تلمودهم من حرص على جعل علاقتهم مع غيرهم قائمة على التوتر، وبث الفتن ، ونشر الفساد والالحاد فى العالم بأسره ، بعد أن مردوا على الخيانة ، ونقض العهود ، ومرنوا على القسوة ، ومجافاة الرحمة التى فطر الله عليها سائر المخلوقات — بما فيها الحيوان — ومن أخطر سجاياهم ، وأشدها سوءا فى هذا المجال الكذب والغدر، وحب الافساد فى الأرض .

وأمة هذه مبادئها وتلك خصائصها البشعة ليس من العجب أن نجدها تقوم على التفرقة العنصرية ، وتسعى لتدمير العالم وخرابه ، والعبث بأمنة ، ومحاولة الاستيلاء على مقدراته ، واستعمال كل وسيلة خسيسة - ولو كان فيها خراب العالم - فى سبيل الوصول الى مآربهم وأهدافهم .

وواقعهم اليوم يتفق مع ما أورده القرآن الكريم عنهم ، فما أشبه الليلة بالبارحة !!

فهاهم يعيشون فى الأرض فسادا، يقتلون الشعوب ، ويخربون المساجد ، ويهلكون الحرث والنسل، لاشباع غرائزهم الفاسدة ، وفطرهم المنحرفة ، فلا يرون لمن خالقهم فى كفرهم وتكذيبهم لله وأنبيائه حرمة ، ولا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة .

لهذه الأسباب تنحت - أو نحيب على الصحيح - عن هذا الطريق المستقيم ، وهو طريق الخير والهداية لتتيح لغيرها المجال من الأمم التى تسعد الانسانية ولا تشقيها ، وتهدى البشرية ولا تغويها ، وتقيم العدل والمساواة بين بنى البشر ، وتقضى على الظلم والجور ، وتنقذ الانسانية من عبادة المخلوق الى عبادة الخالق ، ومن جور السلطان الى عدل الرحمن ، وهذه السمات والصفات جاءت أصدق ما تكون فى الدعوة الاسلامية .

٢ - النصارى :

الصنف الثاني من أهل الكتاب هم "المثلثة" أمة الضلال ، وعبّاد الصليب ، ومؤلّهو عيسى عليه السلام ، الذى جاءهم بالتوحيد الخالص ، وأظهر تمام العبودية لله رب العالمين .

والنصرانية جاءت فى وقت تكالب فيه اليهود على المادة ، ورأوا فيها كل مقومات الحياة ، وفتنوا فى ابتكار الطرق للحصول على المال ، غير مبالين بالوسيلة التى توصلهم الى هدفهم .

وتسبب ذلك فى أن تهون القوى الروحية ، وتتلاشى المثل العليا ، فاتجه المسيح - عليه السلام - الى الدعوة للصفاء الروحى ، والرحمة والتسامح،حتى يقتلع من بنى اسرائيل صلفهم وعبادتهم للمادة ، فنجد المسيح أولى عنايته الى تطهير النفس والروح ، ومحاربة شهوة المال ، فكان مما أثر عنه قوله : "سمعتم أنه قيل عين بعين ، وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ، ومن سخّرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين " (١)

وكان شعار النصرانية "أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله " (٢)

وعلى هذا اتخذت النصرانية ثوب الزهد التسامح وتمت بهما ، واتجهت بكليتها الى التطهير الروحى ، والتهذيب الوجدانى .

---

(١) انجيل متى : الاصلاح الخامس فقرات ٣٨ — ٤٠ (نقلا عن كتاب مقارنة الأديان) الطبعة الخامسة جـ ٣ ص ٣٨ .

(٢) كتاب (مقارنة الأديان) جـ ٢ ص ٨٣ (المسيحية) .

وكان أسوأ انحراف أصابها تحريف عقيدة التوحيد التى جاء بها عيسى - عليه السلام - حين قام بولس وطمسها بخرافات الجاهلية التى انتقل منها ، والوثنية التى نشأ عليها ، ثم قضى قسطنطين على البقية الباقية ، حتى أصبحت النصرانية مزيجا من الخرافات اليونانية والوثنية الرومانية ، والأفلاطينية المصرية ، وأصبحت نسيجا من معتقدات وتقاليد لا تغذى الروح ، ولا تمد العقل ، ولا تحل معضلات الحياة (١) .

وأصيبت بالانحراف والتحريف بسبب جهل الجاهلين وتحريف المحرفين ، الذين وصلت بهم الحال الى التفرق والتشاحن ، حتى تشعبت مذاهبهم حول طبيعة المسيح - عليه السلام - بين قائل بطبيعتين هما : الانسانية والألوهية ، وبين مؤله لمريم ومنكر لهذا التأليه ، وبين مفسر لنبوة المسيح بأنه ابن الله مجازا وقائل : ابنه على الحقيقة (٢) !!

ولم يزل الخلاف يشتد بين النصارى ، خاصة بين نصارى الشام ونصارى مصر فى القول بازدواجية طبيعة المسيح ، وبين القائلين بأنه له طبيعة واحدة ، حتى صار فى القرنين السادس والسابع (الميلاديين) كأنه حرب عوان بين أعداء متنافسين ، ثم بين اليهود والنصارى كل طائفة تقول : ان الأخرى ليست على شىء ، وقد أشار القرآن الكريم الى هذا الخلاف بينهم فى قوله تعالى :

---

(١) أنظر : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين الطبعه العاشره ص ٣٨ .
(٢) أنظر : كتاب (الله) ص ١٥٥ . وماذا خسر العالم ص ٣٩ .

"وقالت اليهود ليست النصارى على شيء . وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم" (سورة البقرة : ١١٣) .

واذا كان اليهود قد ضلوا ، وزاغوا عن طريق الحق بسبب تحريفهم لدين الله ، الذى جاء به ابراهيم عليه السلام وتابعه موسى وغيره من أنبياء الله ، فالنصارى لا يقلون زيغا،وضلالا عن سلفهم،حيث سبوا الله الخالق، مسبة ما سبّه اياها أحد من البشر ، فلم يقروا بأنه الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، ولم يجعلوه - تعالى - أكبر من كل شيء، بل قالوا فيه ما " تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا " (سورة مريم : ٩٠ — ٩١)

فقل " ما شئت فى طائفة أصل عقيدتها أن الله ثالث ثلاثة ، وأن مريم صاحبته وأن المسيح ابنه ، وأنه نزل على كرسى عظمته،والتحم ببطن الصاحبة ، وجرى له ما جرى الى أن قتل ومات ودفن ، فدينها عبادة الصلبان ، ودعاء الصور المنقوشة بالأحمر والأصفر فى الحيطان " (١) .

وسبب خلافهم هذا حول طبيعة المسيح - عليه السلام - وأمه ورفعهما الى درجة الألوهية .

---

(١) هداية الحيارى لابن قيوم الجوزيه ، مطبعة المدينه المنوره بالرياض ص ٢٨٣ .

٣ - الوثنيـــون :

عند البعثة المحمدية كانت تهيمن على العالم — كما هو معلوم — قوتان عظيمتان الفرس في الشرق والروم في الغرب ، فكان لابد أن يكـــون للفرس ذاك الدور في الحضارة الانسانية؛ حتى شاطرت الروم في حكم العالـــم المتمدين - آنذاك - وكانت الحقل الكبير لنشاط كبار الهدامين الذي عرفهم العالـم .

مما كان سببا للاضطراب والتزعزع الديني والخلقي ، وتنازع المجتمع عـدة طبقات ، حتى ضعفت السلطة المركزية في آخر عهد الساسانيين الـى حد لا يتصور ، وحصل النبلاء على سلطان كثيرة وعلى مساحات كبيرة من الأرض، وأصبح القرويون رعاء لهم . ونتيجة لهذا الوضع في فارس كان ظهـــور " ماني " في القرن الثالث الميلادي الذي كان ظهوره رد فعل عنيف طبيعي ضد النزعة الشهوانية السائدة في البلاد ، فدعا الى حياة العزوبة لحسم مادة الفساد والشر من العالم، وحرم النكاح استعجالا للفناء .

مما دفع " ببهرام " الى قتله، ثم ثارت روح الطبيعة الفارسية على تعاليم ماني المجحفة ، وتقمصت دعوة " مزدك" الذي ولد سنة ٤٨٧ ، وأعلـــن أن الناس ولدوا سواء لا فرق بينهم ، ولما كان المال والنساء مما حرصت النفوس على حفظه وحراسته كان ذلك عند مزدك أهم ما يجب فيه المساواة والاشتراك.(١)

قال الشهرستاني :

((أحل مزدك النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ)) (٢) .

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٤٨ .
(٢) الملل والنحل للشهرستاني الطبعه الثانيه ، تحقيق محمد سيد الكيلاني ص٨٦ .

وقال الطبرى (١) :

" افترص السفلة ذلك واغتنموه ، وكاتفوا مزدك وأصحابه وشايعوه، فابتلي الناس بهم ، وقوى أمرهم، حتى كانوا يدخلون على الرجل فى داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله، لا يستطيع الامتناع منهم ، وحملوا (قباذ) على تزيين ذلك وتوعدوه بخلعه ، فلم يلبثوا الا قليلا حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ، ولا يعرف المولود أباه ، ولا يملك شيئا مما يتسع به "(٢)

ويفهم من أقوال المؤرخين أن الفرس كانوا فى الزمن القديم يعبدون الله ويسجدون له، ثم جعلوا يسجدون الشمس والقمر والنجوم واجرام السماء مثل غيرهم من الأوائل (٣) .

وجاء " زرادشت " (٤) صاحب الديانة الفارسية فدعى الى التوحيد، وأبطل الأصنام، وقال : ان نور الله يسطع فى كل ما يشرق ويلتهب فى الكون ، وأمر بالاتجاه الى جهة الشمس والنار ساعة الصلاة لأن النور رمز الى الاله وأمر بعدم تدنيس العناصر الأربعة وهي : النار والهواء والتراب والماء .

ومع مرور الزمن جاء بعده علماء سنوا للزرادشتيين شرائع مختلفة حتى حرموا عليهم الاشتغال بالأشياء التى تستلزم النار ، فاقتصروا فى أعمالهم

---

(١) الطبرى : هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبرى عمدة التفسير والتاريخ ولد فى طبرستان سنة ٢٢٤هـ وتوفى فى بغداد سنة ٣١٠هـ أنظر : البداية والنهاية جـ ١١ ص ١٤٥ ، والاعلام جـ ٦ ص ٦٩ .

(٢) تاريخ ابن جرير الطبرى ؛ الطبعه الأولى بالمطبعه الحسينيه جـ ٢ ص ٨٨ .

(٣) أنظر : كتاب الأسفار المقدسة ص ١٤١ .

(٤) قال القاضى عياض : " زرادشت " تدعى المجوس وبعض المؤرخين نبوته - أنظر : الشفا بتعريف حقوق المصطفى جـ ٢ ص ٣٠٣ وقال محقق الشفا : انه كان نبيا ولكن قومه حرفوا شريعته بعده .

على الفلاحة والتجارة ، ومن هذا التمجيد للنار،واتخاذها قبلة فى العبادات تدرج الناس الى عبادتها ، ومازال الأمر على هذه الحال،حتى انقرضت كل عقيدة،وجهلت الحقيقة،ونسي التاريخ (١) .

«ولما كانت النار لا توحى الى عبادها بشريعة ، ولا ترسل رسلا ، ولا تتدخل فى شئون حياتهم أصبحت الديانة عند المجوس عبارة عن طقوس وتقاليد، يؤدونها فى أمكنة خاصة فى المعبد فقط .

أما أعمالهم الأخرى فى دورهم ودوائر حكمهم وتصرفهم ، وفى السياسة والاجتماع فكانوا أحرارا يسيرون على هواهم .

وهكذا حرمت تلك الأمة بأكملها فى حياتها من دين عميق جامع يربى النفس ، ويهذب الخلق ، وأصبح الفرس المجوس لا فرق بينهم وبين الوثنية البداة»(٢) .

حتى جاءت الدعوة الاسلامية تحمل شعار العدل والمساواه ، وأنقذت تلك الأمة مما كانت عليه من جهل وضلال وكفلت لهم الحقوق والواجبات ، وجعلت التقوى والعمل الصالح هما الميزان .

الوثنية فى الهند وما جاورها :

لم يكن الوضع فى الهند والصين وما جاورهما من بلاد بأحسن حالا من فارس . فقد اتفقت كلمة المؤرخين على أن أحط أدوار الهند ديانة وخلقا ذلك العهد الذى يبتدىء من مستهل القرن السادس (الميلادى) بعد أن شمل التدهور الدينى والخلقى والاجتماعى الكرة الأرضية كلها فى تلك الحقبة من الزمن .

بعدما كانت الهند فى قديم الزمان الغرّة التى فيها الصلاح والحكمة كما يقول

---

(١) أنظر : تاريخ ايران الطبعه الأولى سنة ١٣١٦هـ ص ٢٢١ .
(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين الطبعه العاشره ص ٥٢ .

جماعة من أهل العلم والنظر ، وأصابها ما أصاب غيرها لما تجيلت الأجيال، وتحزبت الأحزاب (١) .

وبعد أن دار الزمان أصبحت الهند حقلا لتطبيق مبدأ تعدد الآلهة ، حيث هناك عوامل تقوى غريزة تعدد الآلهة لاختلاف قوى الطبيعة ومواجهة الانسان لهذه القوى وجها لوجه .

لذا لا تجد هندوسيا الا يعبد عدة آلهة ، حتى أنه يصلى للنمر الذى يفترس أنعامه ، وأصبح لديهم من الفرق ما يصعب حصرهم (٢) .

يقول الشهرستانى :

" هم فرق كثيرة فمنهم من يعظم النار ويتقرب اليها ، ومنهم عبدة الأصنام وهم معظمهم ،ولهم أصنام عدة كل صنم لطائفة ، ويكون لذلك الصنم شكل غير شكل الصنم الآخر ومنهم عباد الماء الذين يزعمون أن الماء ملك وهو أصل كل شيء" (٣)

ومن فرقهم " البراهمة " أصحاب الفكرة والعلم بالفلك وطريقتهم فى ذلك تخالف طريقة فارس والروم (٤) .

ومما اشتهر عندهم من العادات احراقهم لجثة الميت صاحب المكانة العالية وذر رماده فى الجو (٥) .

وبالرغم مما اشتهرت به الهند من كثرة الديانات فلقد كانت (الهندوسية) أشهر الديانات وأوسعها انتشارا ، تليها " البوذية " ثم " الجينية " ومما عرف من دياناتهم كذلك عبادة الحيوان وخاصة البقر منذ القدم ، وعرفوا كذلك

(١) مروج الذهب للمسعودى الطبعه الثالثه جـ ١ ص ٣٥ .
(٢) مقارنة الأديان جـ ٤ ص ٢٩ (أديان الهند الكبرى) .
(٣) الملل والنحل للشهرستانى ص ٧٩ .
(٤) أنظر : تاريخ أبى الغداء جـ ١ ص ٩٩ . (٥) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٩ .

عبادة عضو التلقيح معتقدين أنه سبب الخلق [١] .

ويظهر أن عبادة الهنود للحيوانات نشأت عن الفكر " الطوطمي "[٢] أو اعتقادهم أن الله يتجلى في بعض الأحياء فيحل فيها لايمانهم بالتناسخ فجاز أن يكون الحيوان جدا قديما أو صديقا عائدا الى الحياة .

لذا حظيت البقرة بأسمى مكانة على توالي القرون وكرّ السنون حتى الآن لاعتقادهم أنها أم الانسان [٣] .

أما بلاد الصين وبلاد آسيا الصغرى فقد كانت دياناتها بين بوذية فاسدة ووثنية همجية ، لا تملك ثروة علمية ، ولا نظما راقية ، بل كانت في طور الانتقال من عهد الهمجية الى عهد الحضارة .

وكانت تسودها عدة ديانات منها :

ديانة "لا تسو" التي عنيت بالنظريات فقط حتى تحولت الى وثنية ، وكان اتباعها متقشفين زاهدين .

ديانة "كونفوشيوس" وهي عكس السابقة ، دنيوية مادية أكثر منها عقيدة .

ديانة "البوذية" التي قام حولها خلاف كبير بين أصحابها دعا بعضهم الى التساؤل : كيف قامت هذه الديانة العظيمة على أساس رفيق من الآداب التي ليس فيها الايمان بالله [٤] ؟ !

ولقد انتشرت تلك الديانة انتشارا رهيبا في شرق آسيا والهند والصين مع مرور الزمن .

---

(١) أنظر كتاب (الله) المؤلف/ عباس محمود العقاد ؛ الناشر : دار المعارف بالقاهرة سنة ١٣٦٧هـ ص ٧٧ .

(٢) تطلق كلمة (توتم) على كل أصل حيواني أو نباتي تتخذه عشيرة رمزا لها ، ولقبا لجميع أفرادها (أنظر : كتاب الطوطمية أشهر الديانات البدائية) للدكتور/ علي عبد الواحد وافي ، الناشر : دار المعارف بمصر - سلسلة إقرأ) .

(٣) أنظر : كتاب (الله) ص٧٧ ، وكتاب مقارنة الأديان جـ ٤ ص ٢٩ (أديان الهند الكبرى)

(٤) ماذا خسر العالم ؟ الطبعة العاشرة ص ٥٢ .

وعلى كل الأحوال فقد أصيب البرهمية والبوذية بالانحطاط ودخلت فيهما العادات الساقطة ، وأصبح من العسير التميز بينهما بعد أن اندمجت البوذية في البرهمية (١) .

ومهما يكن الأمر فلم تكن عند تلك الأمم رسالة دينية تسعدهم ، وتسعد العالم معهم ، وتحل مشكلاتهم بل كانوا مثل غيرهم في ذلك الزمان ، أو قل هم أشد حاجة الى من ينقذهم من وضعهم المشين حتى جاءت الدعوة الاسلامية حاملة مشعل الخير والهداية والسعادة لبني الانسانية في كل زمان ومكان .

ب ـ الخلل الاجتماعي والسياسي :

ان الوضع الاجتماعي في جميع نواحي المجتمع يعتبر استجابة حتمية لواقع الأمة الاعتقادي ، نظرا للتلازم الوثيق بين عقيدة المجتمع الدينية ، وطبيعة نظمه الاجتماعية وأحواله الأخلاقية والاقتصادية والسياسية بل والفكرية ـ وفي رأيي ـ ان حال أي أمة في هذه النواحي تعتبر جزءا من حالة الأمة الاعتقادية ، فاذا تحسن واقع الأمة الاعتقادي الديني ؛ تحسن معه واقع الأمة في النواحي الأخرى ، وعندما تنحط الشعوب دينيا فلابد أن تنحط وتتدهور اجتماعيا وفكريا وسياسيا ، وهذا يلحظه من يستقرىء أحوال الأمم وتاريخ تطورها ، وما واقع الأمة الاسلامية اليوم ـ بل والانسانية جمعاء ـ الآ دليلا على ما نقول ، ومن هنا كان كل نظام اجتماعي وسياسي لا ينبثق من عقيدة صحيحة ، وفطرة سليمة ، نظاما مصطنعا ، ومنهارا بكل تأكيد ، وان عاش زمنا ، واغتر به المخدوعون ، والأشقياء من بني الانسانية .

وما دمنا تحدثنا عن الخلل الديني الذي أصاب الانسانية عند مبعثه صلى الله

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين الطبعه العاشره ص ٥٤ .

عليه وسلم مما استوجب معه اشراقة أنوار الدعوة الاسلامية .ولهذا سيتطرق بنا الموضوع الى بعض جوانب الخلل الاجتماعي، المتمثل في عدة صور من سيطرة الماديات والشهوات ، وتسلط الانسان على أخيه الانسان ، وبروز طبقة على حساب أخرى ، وتبع ذلك تعطل جزء مهم من المجتمع ، وهي المرأة ، وتدهور مركزها ، وعمت الدنيا الفوضى والاضطرابات والمنازعات .

١ - سيطرة المادة والشهوات :

بالرغم مما وصلت اليه الحضارتان اليونانية والرومانية من تطور وازدهار ، فقد كانتا عاجزتين عن البقاء والاستمرار لخلوهما من الركن الأساسي لكل حضارة ، وهو الدين الصحيح ، وأصبحت الحضارات والمجتمعات في ذلك الحين مادية بحته ، وكلما تقدموا وتطوروا في مجال العلم والماديات انحطوا في الأخلاق والعقائد والمبادئ، ويعلق على ذلك الأستاذ (الندوى) (١) بقوله :

" وفي نهاية دور الجمهورية الرومية سال بالروم سيل الانحطاط الخلقي البهيمية ، وفاض بحر الترف في العيش والبذخ فيضا عظيما غاص الروم فيه الى الأذقان وتزعزع البناء الاجتماعي حتى كاد ينهدم " (٢)

كما صور (دارير) الكاتب الأمريكي المجتمع الروماني بقوله :

" لما بلغت الدولة الرومية في القوة الحربية والنفوذ السياسي أوجها ، هبطت في فساد الأخلاق وفي الانحطاط الديني والتهذيب الى أسفل الدركات " (٣)

---

(١) الندوى : أبو الحسن على الحسين الندوى ولد سنة ١٣٣٢هـ بالهند ، ينتمي الى أسرة عريقه ، عربية الأصل ، يتقن عدة لغات مما مكنه من كشف أكاذيب أعداء الاسلام من المستشرقين وغيرهم ولا زال - أطال الله في عمره - يشارك في الذود عن حمى الاسلام ، يشغل رئيس (ندوة العلماء بلكهنؤ) منذ زمن له عدة مصنفات مشهورة .
أنظر : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ - الطبعة العاشرة ص ٣٢ تعريفا بالمؤلف للدكتور / أحمد الشرباصي .

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٨٤ .

(٣) الاسلام ومشكلات الحضارة لسيد قطب ، الناشر دار الشروق ص ٥٥ .

وأصبح العدل فى بلاد الحضارة ، يباع ويسام مثل السلع ، وكانت الرشوة والخيانة تنالان من الأمة كل تشجيع ، وانحطت الدولة البيزنطية انحطاطا هائلا بسبب المغالاة فى الضرائب والمكوس ، وانصرف الناس الى شهواتهم وملذاتهم ، واهمالهم لوسائل الانتاج ، مما تتبعه كثرة مصائب الأمة ، وازدياد الأتاوات ، ومضاعفة الضرائب فى البلاد التى تستظل بالامبراطورية الرومية ، حيث كان الشعب الشامى يؤدى الجزية وعشر غلاته ، ورسما على كل رأس ، وكذا الحال فى مصر والحبشة اللتين كانت تظلهما الامبراطورية الرومانية ولم تكسبا من الرومانية المسيحية سوى المناظرات والخلافات كبقية البلاد التى تدين بالنصرانية (١) .

أما فارس التى كانت تشاطر الروم فى حكم العالم المتمدن ، فلم تكن بأحسن حالا من الروم لما أصابهم من الاضطراب ، والتزعزع الدينى والخلقى ، حتى أصبح مجتمعهم مجتمعا متعفنا ينخر فيه الفساد ، وتسيطر عليه الشهوات ، بعد أن درج الناس على المدنية المترفة ، والعادات الساقطة ، والأخلاق المنحطة ، وفشى فى المجتمع الفارسى من العادات والتقاليد ما ينفر منه الذى له أدنى عقل ، وذوق انسانى ، فالمحرمات النسبية التى تواضعت على حرمتها طبائع أهل الأقاليم المعتدلة موضع خلاف ونقاش ، حتى أن " يزد جرد الثانى " تزوج ابنته ثم قتلها ، " وابهرام " الذى تملك فى القرن السادس (الميلادى) كان متزوجا بأخته ، نتيجة لتأثر المجتمع الفارسى بدعوة مزدك ، وما نتج عنها من فوضى خلقية ، انغمست فيها ايران (٢) .

ولقد كان من مظاهر السيطرة المادية لدى الفرس مالاقاه الشعب من ضيق

---

(١) خطط الشام / محمد كرد علي، الطبعه الثانيه جـ ٥ ص ٤٧ ، والنظم الاسلامية للدكتور / صبحى الصالح، الطبعه الثانيه ص ٢٣ .
(٢) تاريخ الطبرى، الطبعه الأولى جـ ٣ ص ١٣٨ .

العيش ونكده ، وكثرة في الضرائب والاتاوات حيث قاسم الحكام الفلاحين غلاتهم ، التي بذلوا فيها جهدهم وعرقهم !

وارتفع الخراج بصورة باهظة .

وهكذا كانت الدولتان - الروم والفرس - كفرسي رهان في البذخ والترف وبذخ حكامهم بذخا عظيما يجل عن الوصف ، حتى أصبحوا في حال قد يعجز العقل عن ادراك مالديهم من الأموال ، وماحوته مجالسهم وقصورهم من آلات الترف واللهو ، وأسباب الرفاهية .

وقد صورت لنا المصادر التاريخية الاسلامية وغيرها المجتمع الفارسي أدق الصور ، وأوفاها عن ترف الأكاسرة ، وما أتوه من الكنوز التي لم يؤت أحد مثلها من العالمين (١) .

فكان " لأنوشروان " مائدة من الذهب عظيمة عليها أنواع الجواهر ، وكان له خواتم أربعة من الياقوت الأحمر (٢) .

أما كسرى " أبرويز " الذى عاصر أول القرن السابع الميلادى مبعث النبي صلى الله عليه وسلم فله في ذلك أخبار يطول ذكرها ، فقد غنم من الروم في حرب " شهريار " ألف مركب من خزائن الروم بعد أن نزل " انطاكية " وألقت بها الريح الى الساحل فغنمها ، وسميت خزائن الريح ، وأقام ايوانه المشهور في المدائن الذى وصف بأوصاف يصعب حصرها .

بعد أن جمع كسرى هذا من الأموال مالم يجمعه أحد من الملوك (٣) .

قال المسعودى :

---

(١) النظم الاسلامية الطبعه الثانيه ص ٣٥ .
(٢) أنظر : مروج الذهب الطبعه الثالثه جـ ١ ص ٢٩٤ .
(٣) مروج الذهب جـ ١ ص ٢٨٥ - ٣٠٦ .

" انه كانت له اثنتا عشرة ألف امرأة وجارية ، وألف فيل ، وخمسون ألف دابة ، وسروج ذهب مكللة بالدر والجوهر على عدد ما لركابه من الخيل .

وكان تمام شرف أحدهم أن يكون من البيوتات المقربة كالوزراء والقضاة ورجال الدين وولاة الأقاليم لما ينعمون به من التلذذ بمباهج الحياة ، والتقلب في بهارجها "[١] .

قال الشعبي [٢] :

" كان أهل فارس يجعلون قلانسهم على قدر أحسابهم في عشائرهم ، فمن تم شرفه فقيمة قلنسوته مائة ألف وكان " هرمز " ممن تم شرفه فكانت قيمتها مائة ألف وكانت مفصصة بالجوهر " [٣]

واذا كانت تلك أمثلة قليلة عما كانت عليه الحال عند أولئك القوم .

فماذا عن بقية البلدان كالهند والصين مثلا ؟

لا شك أنه قد أصابهم ما أصاب غيرهم ، فالشهوة قد امتازت بها الهند منذ العهد القديم ، وتناقلت الكتب عدة روايات وقصص عن اختلاط الجنسين ، وما تفشى فيهم من خلاعة ومجون ، وكذا الحال في الصين جارتها [٤] .

وهكذا كانت الحياة وأهلها في كل مكان بالرغم مما يظهر عليها من مظاهر العمران والحضارة تنتظر أجلها المحتوم ، مصداقا لقول الله تعالى :

" واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا " (سورة الاسراء : ١٦) .

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ، الطبعه الثالثه ١٩٧٨م .
(٢) الشعبي : هو عامر بن شراحيل الشعبي الحميري تابعي حافظ مجتهد ولد ونشأ بالكوفه مات فيها فجأة سنة ١٠٣هـ .الأعلام جـ ٣ ص ٢٥١ .
(٣) تاريخ الطبري الطبعه الأولى جـ ٤ ص ٦ .
(٤) مروج الذهب جـ ١ ص ١٥٠ وما بعدها .

٢ - شيوع النزعات الرهبانيـة :

عند ما سئمت تلك المجتمعات ما انحدرت اليه في درجات الشهوات والماديات برز في بعضها نزعات تدعوا الى الطرف المقابل ، وهو التقشف ، والابتعاد عن الحياة بجميع مافيها من نعيم وخيرات ، أباحها وسخرها الذى خلقها وأوجدها تبارك وتعالى لعباده ، من كسب حلال ، وزينة لم يحرمها عليهم . فانصرف أولئك الى الرهبانية ، بكبت الميول الفطرية ، والقضاء على الطاقات الطبيعية، بمخالفة الوظيفة الأساسية للانسان في الأرض ، وهى : عبادة الله وحده ، ثم عمارة الأرض واقامة مصالح الناس .

وبخاصة عند النصارى لما عاناه المسيحيون في عهد الاضطهاد من تعسف وسوء ، والذى كان تدريبا للفداء والتضحية - كما يقولون - وعند ما بدأ عهد الحرية تحسرس فاتهم عهد التضحية والفداء ، فقرروا التضحية بمتعهم ، والحرمان من ملاذ الحياة ، وتعذيب الجسم (١) .

وهناك من المسيحيين من ينسب أسس الرهبنة الى السيد المسيح الذى احتقر المال والعتاد والتمسك بالأسرة (٢) .

لكن هيهات أن تقدر تلك الأساليب على مخالفة الفطرة الالهية ! التى أوجدها خالق كل شيء ، وعالم سره ، مما دفع بالحياة للدمار .

لأن كلا النقيضين - التلذذ غير المحدود ، أو الرهبنة وعدم الانتفاع في حدود الفطرة - كلاهما دمار للكائن البشرى ، لمجافاتهما للفطرة البشرية ، لذا كانت رهبانيتهم التى ابتدعوها شرا مستطيرا .

---

(١) أنظر : كتاب مقارنة الأديان (المسيحية) الطبعه الخامسه جـ ٢ ص ٢٤٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٤٤ .

والناظر فى حال أولئك الرهبان يعرف كيف كانت تلك الظاهرة ، مخالفة للفطرة ، وقضاء على ميولاتها ، وانحرافا بها عن الطريق المستقيم .

يحدثنا "ليكى" فى كتابه تاريخ أخلاق أوروبا بقوله :

" زاد عدد الرهبان زيادة عظيمة ، وعظم شأنهم ، واستفحل أمرهم ، واسترعوا الأنظار ، وشغلوا الناس ، حتى أصبحوا لا يمكن حصرهم ، ففى القرن الرابع (الميلادى) كان راهب واحد يشرف على خمسة آلاف راهب وبلغ عددهم فى نهاية القرن الرابع عدد أهل مصر " (١)

ويروى المؤرخون من حكايات أولئك الرهبان ، وحالهم ما تدمع له العيون ، وتحزن منه القلوب .

" فكانوا يفرون من ظل النساء ، ويتأثمون من قربهن والاجتماع بهن ، وكانوا يعتقدون أن مصادفتهن فى الطريق ، والتحدث اليهن - ولو كن أمهات أو أزواجا أو شقيقات - تحبط أعمالهم وجهودهم الروحية " (٢)

وقد أفاض "ليكى" وغيره من المؤرخين والكتاب فى وصف حالة الرهبان ، وبشاعة بعدها عن الفطرة الانسانية ، والغلو فى الهرب مما وهبه الله تعالى للمخلوق من طيبات الحياة وزينتها ، ومكافحة نشاط الفطرة ، مما نورد عنه تلخيصا وافيا للأستاذ أبى الحسن الندوى حيث يقول :

" ظل تعذيب الجسم مثلا كاملا فى الدين والأخلاق الى قرنين ، وروى المؤرخون من ذلك عجائب ، فحدثوا عن الراهب (ماكاريوس) أنه نام ستة أشهر فى مستنقع ليقرص جسمه العارى ذباب سام ، وكان يحمل دائما نحو قنطار من حديد ، وكان صاحبه الراهب (يوسيبيس) يحمل نحو قنطارين من الحديد ، وقد أقام فى

---

(١) تاريخ أخلاق أوروبا نقلا عن كتاب ماذا خسر العالم الطبعة العاشرة ص ٧٥ .
(٢) ماذا خسر العالم ؟ ص ١٨٨ .

بئر نزح ، وقد عبد الراهب (يوحنا) ثلاث سنين قائما على رجل واحدة ، ولم ينم ولم يقعد طول هذه المدة ، فاذا تعب جدا أسند ظهره الى صخرة ، وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائما وانما يتسترون بشعرهم الطويل ، ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام " (١)

وفى فارس يجيء " مانى " فى القرن الثالث (الميلادى) رد فعل عنيف ضد النزعة المادية والشهوانية البهيمية السائدة فى فارس .

فيأخذ من الأفكار النصرانية السائدة أن الدنيا لعنة الله ، ومن الخير انهاؤها ومن أجل هذا حث على منع النسل ، وحرم النكاح استعجالا للفناء ، وبالرغم من قتله فان تعاليمه لم تمت الا بعد الفتح الاسلامى (٢) .

الوثنية الهندية والرهبانية :

المجتمع الهندى بدياناته المتعددة قد تأثر كذلك بالرهبانية ، بعد أن اتفق البوذيون مع المسيحيين فى عدم الاقتناع بالاتجاه الذى غلب على الديانتين ، وفشل ما شرعوه من تشريعات ترضى شغفهم بالمادة .

بعد ذلك نجد اتجاه بعض رجال الدين الى الرهبنة ، فمثلا (غوتاما) أحد فلاسفة الهندوسية يلجأ الى العزلة والتقشف ، وخلع ثيابه ، والاكتفاء برقاع أوراق شجر يستر بها عورته ، ويلقى بجسمه بين الأشواك والحصا ، ويهمل الطعام والشراب والملاذ ، مكتفيا بقدر ضئيل جدا من الطعام ، بلغ أحيانا حبة من الأرز فى اليوم !

وكان من مبادىء " الجينية " احدى ديانات الهند ، أنه لابد للنجاه من قهر جميع

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ ص ٨٧ .
(٢) الملل والنحل - للشهرستانى الطبعه الثانيه ؛ منشورات دار المعرفه بيروت ص ٨٦ .

المشاعر والعواطف والحاجات [١] .

وهكذا عجزت تلك الرهبانية عن تغيير " فطرة الله التى فطرالناس عليها " حيث لم تكن سوى رد فعل ضد المادية الطاغية ، احتملتها الفطرة كارهة ، بحيث لم تكن انتصارا لهذا الانحراف العاتى ، فهذا مستحيل لأن الفطرة أغلب ، كما لم تكن اعتدالا وتوازنا فى جموع المادية الشهوانية ، وانما كانت خليطا من هذا وذلك ، يفسد الحياة كلها [٢] .

فلم تفلح تلك النظم أن تصلح ما فسد من أخلاق الناس والمجتمعات ، ولا يتوهم أحد أن الرهبانية عدلت من شرهم المادى ، وكبحت من جماحهم ، وغلوائهم فى البهيمية والشهوات لأن هذا لم يكن ، ولن يكون فى الغالب لمجافاته الفطرة ، وانما الذى يوجد الاعتدال المادى ، ويخفض الشهوة الجامحة هو النظام الروحى الخلقى الذى يوافق الفطرة ، ويستجيب للرغبة والفطرة السليمة ، الذى لا يتصدى لها ، ويطمس معالمها ، بل يستغلها ويستخدمها فيما ينفع انها فطرة الاسلام ، ودعوته الالهية التى فعلت فى العرب ما فعلت عندما صرفت شجاعتهم من المنافسات القبلية الى الجهاد فى سبيل الله ، وحولت اسرافهم وتبذيرهم الى الانفاق فى سبيل الخير والبر واظهار الحق ، لأنها دعوة ورسالة كل الأنبياء التى جاءت لتكمل الفطرة لا لتستبدلها وتغيرها ، فيالها من دعوة والحمد لله . [٣]

٣ - تسلط نظام الطبقات :

ان من أشد ما واجهته الانسانية فى تاريخها الطويل من أدواء سيطرة الانسان على أخيه الانسان ، بتسلطه عليه ، وسلب حريته ، عندما انحرفت الفطرة عن الهدف

---

(١) أنظر : مقارنة الأديان جـ ٤ ص ١٤١ (أديان الهند الكبرى) .
(٢) أنظر : الاسلام ومشكلات الحضارة سيد قطب الناشر : دار الشروق ص ٦١ .
(٣) راجع كتاب (المستقبل لهذا الدين) سيد قطب طبعة ١٣٩٤ هـ دار الشروق ص ٤١ .

الذى خلقها الله له ، وهو (افراده وحده بالعبادة) لأنه تعالى مصدر كل خير ، والقادر على كل شئ .

حتى تجلت تلك السيطرة فى عدة صور ، وكانت سببا فى اهانة الانسان الذى أكرمه الله بجعله خليفته فى أرضه ، بعد أن اتخذ أولئك الحكام نظاما استبداديا يعول على سلطة الفرد (١) .

فالحكم الرومانى مثلا كان يفرض تجميع السلطات كلها فى يد الأمبراطور الذى أصبح نتيجة لذلك ـ فى نظر البيزنطيين ـ ذا صفة الهية عندما تحولت الامبراطورية الرومانية الى مسيحية ، حتى غدا الامبراطور فى نظرهم معينا من قبل الله ، مختارا فى التصرف لا معقب لحكمه ، لأنه ينفذ ارادة السماء ! لأن هذا الامبراطور هو : رئيس الكنيسة ، وحاميها ومفسر عقائدها ، كما أنه قائد الجيش ، وموزع السلطات (٢) .

ولم ينظروا لغيرهم من الأمم الا أنهم خدما لهم ، حتى ديس كل شرف ، وامتهنت كل كرامة ، ولم يجعلوا من بعض البلاد التى تظلها الامبراطورية كمصر والشام الا مطية للركوب ، وناقة حلوبا ، لا تعطى من العطف والرعاية الا ما يقيم صلبها ويدرّ ضرعها (٣) .

يقول صاحب (كتاب فتح العرب لمصر) : (٤)

" ان حكومة مصر الرومية لم يكن لها الا غرض واحد هو أن تبتز الأموال لتكون غنيمة للحكام "

---

(١) أنظر : المستقبل لهذا الدين ص ٧٨ .
(٢) أنظر : النظم الاسلامية للدكتور صبحى الصالح الطبعه الثانيه ص ٢٢ .
(٣) أنظر : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ ص ٧٦ .
(٤) مؤلفه الدكتور الفرد . ج . بتلر ، وتعريب : محمد فريد أبو حديد طبعه دار الكتب المصريه سنة ١٣٥١هـ — ١٩٣٣م ص ١٦٣ .

وفى الشام انقلبت الحال الى أسوأ حال ، وأصبح أهلها غرباء فى وطنهم بعد كـثرة المظالم والسخرات والرقيق (١) .

أما فارس فكانت أسوأ حالا من روما بالنسبة للتسلط الفردى ، والسيطرة القبلية ، حتى أن (الأكاسرة) ملوك فارس يدعون أنه يجرى فى عروقهم دم الهى ، مما دفع الفرس بالنظر اليهم كآلهة ، معتقدين أن فى طبيعتهم شيئا علويا مقدسا ، ويرونهم فوق الانتقاد، وفوق البشر (٢) .

اصطفاهم الله للحكم بين الناس، وليس للناس قبلهم حقوق ، ولهم على الناس السمع والطاعة ، وقد جاء فى كتاب (فجر الاسلام) :

ان ملوك (آل ساسان) لم يكنها أحد من رعاياها قط ، ولا سماها فى شعر ولا خطبه ولا غيره ، حيث ترفعوا أو رفعهم الشعب حتى لم يكن من الأدب أن يجرى على لسانه اسمهم ، ولا كنيتهم حتى فى الشعر (٣) .

وما زال الفرس مثل الرومان يمجدون قوميتهم ، وأن لهم فضلا على سائر الأمم، وأن الله خصهم بمواهب وخصائص دون سواهم ، يدل على ذلك موقفهم من الأمم المجاورة كالعرب ، حيث كان ينال العرب منهم الامتهان والاحتقار ، واشعال الحروب معهم لأتفه الأسباب ، والتى كان من أشهرها يوم ذى قار .

نقل المسعودى (٤) فيه :

" هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ونصرت عليهم " (٥)

---

(١) خطط الشام الطبعه الثانيه جـ ١ ص ١٠١ .
(٢) أنظر : تاريخ الطبرى الطبعه الأولى جـ ٢ ص ٨٨ .
(٣) فجر الاسلام الطبعه العاشره ص ١١٢ .
(٤) المسعودى : هو على بن الحسين بن على المسعودى ، ينتهى نسبه الى عبد الله بن مسعود من أهل بغداد ، مؤرخ رحالة مشهور ، له عدة تصانيف توفى بمصر سنة ٣٤٦هـ أنظر : الأعلام جـ ٤ ص ٢٧٧ ومعجم المؤلفين جـ ٧ ص ٨٠ .
(٥) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٠٧ (يشير المسعودى الى ان هذا لفظ حديث للرسول صلى الله عليه وسلم) ولم أقف على صحته . أوردته .

وتتجلى صورة الاستبداد الطبقي في ايران ، والاعتقاد بنظرية الحق المقدس من تسمية " أردشير " مؤسس الدولة الساسانية لنفسه " بالشاهنشاه " أو ملوك الملوك ، وأخذ هذا الحق ينتقل كابرا عن كابر حتى كانوا يدينون بالملك بالوراثة لا يبغون عنه بديلا (١) .

فاذا لم يجدوا كبيرا ملكوا طفلا ، واذا لم يجدوا رجلا ملكوا امرأة ، فقد ملكوا بعد " شيرويه " ولده ابن سبع سنين ، وملكوا " بوران " بنت كسرى (٢) .

كما كان مجتمعهم مؤسسا على اعتبار النسب والحرف، حتى وجدت هوة ساحقة بين طبقات المجتمع ، يظهر ذلك جليا في مجالس الأمراء والاشراف (٣) .

النظام الطبقي في الهند والصين :

أما بلاد الهند فلم يعرف في أمة نظام طبقي أشد قسوة ، وأعظم فصلا بين الطبقات منه في الهند ، وكان أشد ما يكون استهانة بالانسان وكرامته .

يقول علماء الأديان :

" ان الطبقات بدأت في الهند منذ القدم عند التقاء (الآريين) مع السكان الأصليين حتى وجدت طبقة " البراهمة " وطبقة " الخدم والعبيد " وطبقة " رجال الزراعة " (٤)

وحتى لنجد أنه ألف في البلاد قانون مدني ، قسم أهل البلاد الى طبقات ممتازة ومنح هذا القانون طبقة " البراهمة " امتيازات وحقوقا الحقتهم بالآلهة .

ومما قال هذا القانون :

---

(١) أنظر : النظم الاسلامية للدكتور / صبحي الصالح ، الطبعه الثالثه ص ٣٠ .
(٢) تاريخ الطبري ، الطبعه الأولى جـ ٢ ص ٨٨ .
(٣) تاريخ الطبري ، ج ٤ ص ١٠٨ .
(٤) مقارنة الأديان جـ ٤ ص ٢٥ (أديان الهند الكبرى) .

" ان البراهمة هم صفوة الله ، وهم ملوك الخلق ، وأن مافى الأرض ملك لهـــــا وحدهم ، لأن غيرهم عبيد لهم ، ولا يصح لبرهمي فى بلاده أن يموت جوعــــا ، وان استحق القتل لم يقتل ، بل يحلق رأسه فقط ، أما غيره فيقتل " (١)

أما بلاد الصين تلك البلاد الواسعة الأرجاء ، المتعددة الديانات والعـــادات ، فلم تحرم من هذا الوضع السيء ، والنزعة الى التسلط والاستبداد ، وسيطرة الطبقات . فقد كان الصينيون يقدسون ملوكهم مطلقا ، ويسمونهم " الامبراطور " ابن السمـــاء ! معتقدين أن السماء ذكر ، والأرض أنثى ، وأن الامبراطور " ختا الأول " هو بكر هذين الزوجين ، ويعتبرونه كالأب الوحيد للأمة ، له أن يفعل ما يشاء ، ولما مات الامبراطور " لي يان " لبست الصين ثوب الحداد ، وحزنت حزنا شديدا ، وكان منهم من أثخــن وجهه بالابر ، ومنهم من قطع شعره ، ومنهم من ضرب أذنيه بجانب النعش ! (٢)

وهكذا جاء الاسلام وكرامة الانسان وقف على طبقات معينة من البشر وعلى بيوت خاصة ، أما سواد الجماهير ، فهو غثاء لا وزن له ولا قيمة (٣) .

فقال الاسلام كلمته المدوية التى زلزلت عرش كسرى ، وملك قيصر والتى جاءت من فوق سبع سماوات ، وهي قول الحق تعالى :

" يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكـم عن الله أتقاكم ان الله عليم خبير " (سورة الحجرات : ١٣) .

وقال تعالى فى الآية الأخرى : " ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا " (سورة الاسراء : ٧٠) .

---

(١) ماذا خسر العالم ، الطبعة العاشرة ص ٥٨ .
(٢) أنظر : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٧٥ ومعنى أثخن : أى أصاب وآذى ، ومعنى ضرب أذنيه : أى ربطها بآلة كالمسمار .
(٣) أنظر : هذا الدين لمؤلفه / سيد قطب طبعة ١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م .

وبين تعالى منشأ الخلق وعدم وجود الفارق بينهم قال تعالى :

" يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا "

(أول سورة النساء) .

٤ - تدهور مركز المرأة :

لا شك أن المرأة تعتبر عنصرا مهما فى تكوين المجتمع ، لأنها الأم والزوجة والأخت والبنت ، تشاطر الرجل احساسه ومشاعره ، فلم تنفصل العلاقة بين الجنسين على مر العصور ، وكرّ الدهور ، ولقد كانت ولا زالت صلة الرجل بالمرأة أساس الحياة ، وعمار الكون ، وقوام الحياة الاجتماعية .

ونظرا لأهمية تلك العلاقات ، ومكانتها فى الطرفين ، ظلت علاقتهما عبر الأزمان ، تدور بين الافراط والتفريط ، استجابة لدواعى الفطرة التى أوجدها المولى — جلا وعلا — فى الذكر والأنثى .

فكلما كانت تلك العلاقة فى حدود الفطرة الالهية ، مبنية على الاحترام المتبادل ، ومعرفة ما لكل منهما من حقوق ، وما عليه من واجبات أقول : اذا سارت تلك العلاقة فى محيط هذه الحدود ، سعدت الانسانية كلها ، وكلما مالت عن صراط تلك الفطرة السليمة المستقيم ، أو اعتدى أحدهما على الآخر ، شقيت الانسانية ، وحل بها الدمار ، وخرب بناء الأسرة والمجتمع .

ومع الأسف كانت العلاقة بين الرجل والمرأة فى أكثر العصور ، وخاصة العصر الذى بزغت فيه أنوار الدعوة الاسلامية فى غاية العجب ، عند ما كانت تقوم على الظلم والاهمال والانحطاط .

فبينما نرى المرأة التى تلد الرجل ، وترضعه وتربيه أما ، أو تسعده وهى زوجة وشريكته فى الحياة ، التى جعل الله بينهما المودة والرحمة ، وجعلها سكنا له ،

بعد أن خلقها من نفسه ، تشاطره البؤس والرخاء ، بالرغم من ذلك اتخذوها خادما بل أمة تباع وتشترى محرومة من جميع الحقوق ، مسلوبة الحرية ، كما كان عند الرومان والفرس (١) .

وحتى الذين أرادوا اكرام المرأة جعلوها وسيلة للمتاع واللهو والعبث مما استتبعه حدوث موجات عنيفة من فوضى الأخلاق ، وانحطاط الآداب ، حتى أضحت المرأة وسيلة لكل شهوة ، واتخذها الرجل مطية لهواه ، يجعل منها حباله الشيطان مما يوقع الأمة بل الانسانية فى أعماق التردى الشهوانى ،والسلوك البهيمى .

مكانة المرأة عند الفرس والروم :

لقد كانت المرأة فى المجتمع الرومانى فى أسوأ حال كانت تباع وتشترى كالبهيمة والمتاع ، وتكره على الزواج والبغاء ، وكانت تورث ولا ترث ، ولا تملك ، حتى وصل بهم الأمر الى الاختلاف فى كونها انسانا ذا نفس وروح كالرجل أم لا ؟ وما زالت حال المرأة تهوى فى المجتمع الرومانى حتى لقد قرر أحد المجامع النصرانية فى رومية أنها حيوان نجس لا روح له ولا خلود ، يجب عليها الخدمة ، وأن يكم فمها كالبعير والكلب ، وكان نظر الرهبان للمرأة انها ينبوع المعاصى وأصل السيئات والفجور ! (٢)

أما عند الفرس فلم تكن المرأة بأحسن حالا حيث عاشت فى ذله وانحطاط ، وتشاؤم بها ، حتى اعتبارها رجال الديانة "الزرادشتيه" سبب هيجان الشرور، التى توجب العذاب والسخط لدى الآلهة ، لذلك اجازوا أن تعيش تحت أنواع

---

(١) أنظر : كتاب (الحجاب) للمودودى منشورات دار الفكر بالقاهره ص ١٠ .
(٢) أنظر : حقوق النساء فى الاسلام للأستاذ / محمد رشيد رضا الناشر : المكتب الاسلامى ببيروت ص ٥٧ . وكتاب الحجاب ص ١٨ .

الظلم والقهر ، وكان الزوج يتصرف فيها تصرفه فى متاعه وماله حتى كان له أن يحكم بقتلها ! (١)

وكانت أمة سجينة منزلها ، تباع بيع السوائم ، بعد ما أباحت أنظمتهم بيعها وشراؤها (٢) ، وحتى ماجاء الاسلام وأبطل ما تفعله تلك الجاهليات على ما سنبينه بعد ان شاء الله تعالى .

وكان من شدة استهان الفرس للمرأة وتدهور مركزها ابعادهم لها عن المنازل اذا حاضت ، ويجعلونها فى خيمة صغيرة خارج المدينة ، ولا يخالطها حتى الخدم ، يلفون أنوفهم وآذانهم وأيديهم بلفائف من القماش الغليظ عند تقديم الطعام لهن وخدمتهن، خوفا من أن يتنجسوا اذا ما مسوهن ، أو مسوا الأشياء المحيطة بهن حتى الهواء ! (٣)

مكانة المرأة فى الهند :

أما فى الهند التى تعتبر مسرحا للجهل الفاضح ، والجور الاجتماعى ، فقد كانت المرأة تعانى أنواعا من الظلم والاهانة ، بعد أن سلبتها ديانة "مانو" حق الاستقلال عن أبيها أو زوجها ، واذا مات هؤلاء وجب أن تنتمى الى رجل من أقاربه زوجها فى النسب ، ولم تستقل بنفسها بأى حال .

وأشد من ذلك نكران حقها فى الحياة المستقلة بعد موت زوجها ، فانه تقضى عليها بأن تموت يوم موت زوجها ، وأن تحرق معه على موقد واحد ! (٤)

أو أن تلقى فى بئر معه حتى تموت حيث لم يبق سبب للحياه بعده ! (٥)

---

(١) أنظر : المرأة وحقوقها فى الاسلام ص ١٢ .
(٢) الاسلام والمرأة ص ١٣ (٣) الاسلام والمرأة ص ١٣ .
(٤) أنظر : المرأة فى القرآن ، عباس محمود العقاد ؛ الطبعه الثالثه ١٩٦٩م ص ٧٣ .
(٥) أنظر : كتاب المرأة المسلمة ص ٢٦ .

وكانت المرأة تقدم قربانا للآلهة ، لارضائها حتى تنزل المطر والرزق ، وفى بعض مناطق الهند شجرة يقدم لها الأهالى فتاة تأكلها كل سنة !

وديانة "الجينيه" تحث على العري والانتحار حتى سميت "دين العرى ودين الانتحار" (١) .

وما دام هذه حالهم ، فليس من العجب أن يحرص أولئك القوم على تقديس البقرة وعبادتها وحمايتها ! فى حين يعيشون فى عرى وحيوانية وجوع وفاقة ! ويتساقطون فى الشوارع من ذلك ! تدوسهم تلك الأنعام السائمة التى تسرح وتمرح وتعبد ، والله قد خلقها لخدمتهم ، والتمتع بها فى حدود ما أمر الله وأباح ، ولكنه الجهل والالحاد ، والبعد عن الفطرة السليمة ! !

٥ - الانهيار السياسى والفتن والحرب والمنازعات :

لقد كان الواقع التاريخى المرير فى القرن السابع (الميلادى) يفرض أن تتقاسم العالم دولتان كبيرتان ، كلتاهما حرب للأخرى ، تنافسها ولا تأمنها ، ولا تهدأ الحرب بينهما فترة من الزمن الا ريثما تستعد لمعاودة الكرة بقوة من الجند والسلاح ، والدولتان المتنافستان هما : دولة الأكاسرة ، ودولة القياصرة ولا ثالث يصل الى قوتهما فى العالم المعمور يومئذ .

ولقد كانت الفكرة التى تقوم عليها الامبراطورية الرومانية هى الاجتياح بالقوة واستغلال الآخرين ، والاعتداء عليهم ، وسلب حرياتهم ، حتى ان العدل الرومانى المشهور لم يكن عدلا الا للرومانيين وحدهم ، وكانوا يرون أنهم المتمدينون وحدهم دون سواهم من البشر ، كما كانوا لا يقيمون لغيرهم من الشعوب وزنا ولا اعتبارا ،

---

(١) أنظر : كتاب مقارنة الاديان جـ ٤ ص ٧٣ (أديان الهند الكبرى) .

بل يوجهون اليهم الاضطرابات والمنازعات .

وهذا ما تطبقه أوروبا اليوم التى تعتبر امتدادا لجاهلية الدولة الرومانية فى ذلك الحين (١) .

ولقد ابتليت الامبراطورية الرومانية بالاضطرابات والمنازعات الداخلية التى فككت أوصالها ، وهدمت بنيانها حتى قسمت نهائيا سنة ٣٩٥م الى امبراطوريتين ، شرقية عاصمتها " القسطنطينية " وغربية عاصمتها " رومية " وكانت علامات الضعف والتفرق بادية على الامبراطوريتين بسبب تنازع الأحزاب السياسية ، والاضطرابات والخلافات بين الأمراء ، وتدخل الأجانب فى شئون الحكم ، وكثرة اغارة " البرابرة " على الامبراطورية الغربية التى لم تعمر طويلا (٢) .

ولم تكن الامبراطورية الشرقية بأحسن حالا من الغربية ، بعد كثرة الفرق الدينية ، التى سببت المنازعات والمشاحنات ، وتعصب كل فريق لرأيه حتى كثر الاضطهاد ، وعم الفساد ، ويصف ما آلت اليه الامبراطورية الرومانية المؤرخ الانجليزى " ويلز " المشهور ، بما ترجمته :

" حل الدمار بالامبراطورية الرومانية ، وساءت أحوالها السياسية والاقتصادية ، وشاعت الدسائس ، وكثرة الفتن والمصادمات العنيفة " (٣)

كما يبين المؤرخ الانجليزى الآخر " توماس أرنولد " أثر الاسلام وفضله على تلك المجتمعات ، بعد وصفه لحال الرومان آنذاك بقوله :

" وهكذا أزال الاسلام ما أصاب هذا المجتمع من فساد وخرافات واضطراب " (٤) .

---

(١) أنظر : الاسلام على مفترق الطرق للأخ المهتدى / محمد أسد ، الطبعه الثانيه ١٣٩٤هـ ص ٣٨ .

(٢) أنظر : كتاب الاسلام ظهوره وانتشاره ص ٧٨ .

(٣) الاسلام ظهوره وانتشاره ص ٨٠ .

(٤) الدعوة الى الاسلام ترجمه الدكتور حسن ابراهيم ورفقاه ؛ الطبعه الثالثه سنة ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م ص ٢٣ .

فارس والانهيار السياسى :

كانت بلاد فارس تعيش اضطرابات ومنازعات لا تهدأ ، وفتن لا تنقطع بسبب تنافس الأكاسرة على العرش ، وكان الواحد منهم يولى ثم يعزل بعد مدة قصيرة .

حتى لقد تولى العرش فى فارس ستة ولاة فى أشهر قلائل ، بسبب تدخل الجنود ، ورجال الحرس الثورى ، واطلاق أيديهم بالتصرف فى شئون الدولة ، وأخذهم يعملون السيف فى رقاب حكامهم ، يقتلونهم جهارا ، دون أن يأبهوا لوازع نفسى ، حتى سقطت هيبة الملك ، وقلة قيمة العرش ، وعمت الفوضى ، وانتشر الفساد ، وأصبح من العسير العثور على شخص قادر على تولى الحكم ، والقيام بمسئولياته ، يقول الطبرى :

" ان رجال الدولة أخذوا يبحثون عن أمير من أمراء البيت المالك ليجلسوه على سرير الملك فوجدوا "فيروزمهران" فلما توج قال :

« ما أضيق هذا التاج - لأنه ضخم الرأس - فتطيروا من كلامه فقتلوه فى الحال ، ثم طلبوا واحدا من بيت المملكة ليملكوه ، ويقاتلوا بين يديه ، ويحفظوا بلادهم من الفتح الاسلامى ، فظفروا "بيزدجر بن شهيار" فملكوه ، ولصغر سنه كان الوزراء يدبرون ملكه ، حتى بلغت فارس غاية الضعف فى عصره " (١) .

اضافة الى تلك الفتن الداخلية ، كانت المنازعات والحروب لا تهدأ بين تلك القوى فى ذلك الزمان .

وأشدها ضراوة ما كان بين القوتين فارس والروم ، وفى بعض الأحيان كان عبدة النار يهزمون عبدة المسيح ، وينهبون أموالهم ، ويأسرون رجالهم ، وقد تكون الدائرة على الفرس فيغلبهم الروم ، كما حصل فى القرن السابع (الميلادى) عندما كانت الحرب سجالا بين الامبراطوريتين .

---

(١) تاريخ الطبرى الطبعه الأولى ؛ المطبعه الحسينيه بالقاهره ج ٢ ص ٢٣ .

كما قامت الحروب بين الفرس وجيرانهم فى الشرق والشمال والغرب من العـــرب والأتراك ولم تهدأ أبدا ، مما تسبب فى ضعف فارس بوجه خاص (١) .

وعند قيام الدعوة الاسلامية ، واتضاح وجهتها وشمولها ، كان موقف الروم والفرس معاداة الدعوة ، ومحاولة القضاء عليها ، وكان المسلمون فى أول الأمر يرغبون فـــى انتصار الروم — لأنهم أهل كتاب — على الفرس المجوس .

ونجد القرآن الكريم يتعرض الى بيان شئ مما كان بين الطرفين فى (سورة الروم) المكيه مما يثبت للعالم كله عالمية الدعوة الاسلامية ، وارتباطها بأوضاع العالم من حولها فى كل زمان ومكان ، خاصة عند ما كانت ناشئة بمكة المكرمة لأنها دعوة مرتبطة بفطـــرة هذا الكون ونواميسه ، بما فيها فطرة النفس البشرية (٢) .

---

(١) أنظر : مروج الذهب الطبعه الثالثه جـ ١ ص ٣٠٧ وكتاب (انتشار الاسلام حـــول بحر قزوين) جـ ١ ص ٣٨ .

(٢) يراجع تفسير القرطبى جـ ٦ (سورة الروم) منشورات دار الشعب ،وتفسير فتح القديـــر للشوكانى الطبعه الثانيه جـ ٤ ص ٢١٤ وفى ظلال القرآن الطبعه الرابعـــــــــه ١٣٩٧هـ — ١٩٧٧م جـ ٥ (سورة الروم) .

العامل الثاني : حاجة العرب خاصة لدعوة الاسلام :

العرب وميزاتهم :

العرب أمة قديمة ، تغلب عليها البداوة ، ولم تنغمس في حمأة المدنيات المعاصرة لها وقت البعثة ، ولذلك بقية فيهم بقايا من الخصال الحميدة ، مثل علو النفس ، وقوة البيان ، وفصاحة المنطق ، والرغبة في الحرية ، والفروسية الفذة ، والشجاعة التي لا تبارى ، خاصة في الذود عن الشرف والعرض ، والعقيدة وان كانت عقيدة فاسدة ، ما دامت ورثت عن الآباء .

اضافة الى ما منحهم الله اياه من قوة الذاكرة ، وجودة الحفظ ، والوفاء بالعهد . ومع ذلك ابتلوا مثل غيرهم بالوثنية الطاسة ، وبالانحطاط الديني ، حتى سيطرت عليهم الوثنية . كما انتشرت بينهم الأدواء الخلقية والاجتماعية وعمتهم الجهالة ، حتى سيطر عليهم عدة أدواء اجتماعية ، وعادات سيئة :

كشرب الخمور ، وسبي النساء ، ووأد البنات ، واثارة الحروب لأتفه الأسباب .

ولعل أدق تصوير لحال العرب قبل أن يمتن الله عليهم بالاسلام ، وهدية ما قاله جعفر بن أبي طالب (١) ـ رضي الله عنه ـ أمام النجاشي ملك الحبشة حينما سأله عن الدين الاسلامي ، وعن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال :

" أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الرحم ، ونسيء الجوار ، يأكل القوي الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله فينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه . فدعانا الى الله ، لنوحده ،

---

(١) هو جعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم ولد ونشأ بمكة كان من أوائل السابقين للاسلام ، هاجر للحبشة واستشهد مجاهدا في غزوة مؤته في السنة الثامنة من الهجرة ، أنظر : الاصابه لابن حجر منشورات نهضة مصر سنة ١٣٨٢ هـ . وصفوة الصفوه لأبي الفرج الجوزي ، الناشر دار الوعي بحلب جـ ١ ص ٢٠٥ .

ونعبده ونخلع ما كنا نعبده نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، ولا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام قال : فعدد عليه أمور الاسلام (١) .

وروى البخارى فى صحيحه عن سعيد بن جبير (٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : " اذا سرك أن تعلم جهل العرب فأقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام ، قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم الى قوله : فضلوا وما كانوا مهتدين " (٣) .

ومما لا شك فيه أنه قد أصاب العرب ما أصاب الأمم الأخرى فى تلك الأزمنة من جهل وخرافات ، والتى تسمى (بزمن الفترة) لابتعاد الانسانية عن عصر النبوات والصلاح (٤) .

والعرب بالرغم مما كانوا فيه من جهل وضلال وابتعاد عن الحق ، فقد كان واقعهم مهيأ لهم ليكونوا أهلا لتحمل أعباء الدعوة ، وتبليغ الرسالة ، والنهوض بذلك الحمل الثقيل ، لأن اختيارهم لتلك المسئولية الكبرى ، والأمانه العظمى ، ابتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليوم ، لم يأت جزافا ، أو يحدث من باب الصدفه ، لأن هذا التكليف وهذا الاختيار والتكليف يكفى فيه أنه من لدن العليم الخبير .

---

(١) رواه أحمد فى المسند جـ ١ ص ٢٠٢ (مسند جعفر بن أبى طالب) راجع أيضا سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٥٨ .

(٢) سعيد بن جبير الأسدى من أعلم التابعين والمجاهدين فى سبيل الله ، أصله من الحبشة قتله الحجاج بواسط سنة ٩٤هـ أنظر : البدايه والنهايه جـ ٩ ص ٩٦ الطبعه الأولى والاعلام للزركلى الطبعه الرابعه جـ ٣ ص ٩٣ .

(٣) صحيح البخارى جـ ٢ ص ١٧٨ (باب قصة زمزم وجهل العرب) .

(٤) يراجع عن جهل العرب : البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٩٠ (باب جهل العرب) ومقدمة ابن خلدون الطبعه الخامسه ص ١٤٩ وما بعدها .

مصداق ذلك قوله تعالى :

" الله أعلم حيث يجعل رسالته " (سورة الأنعام : ١٢٤) .

ولما كان العرب هم أول من واجهة الدعوة الاسلامية عند بعثته صلى الله عليه وسلم ، وأول من تحمل أمانة الايمان بدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونشرها الى أرجاء الدنيا ، ورسوله الذى اختاره تعالى خاتما لرسله كان منهم ومن عشيرتهم ، كما أن القرآن الكريم الذى أنزل على رسوله بلغت العرب ، ونظرا لما كان لذلك من آثار فى نجاح الدعوة الاسلامية ، فقد رأيت تخصيص بعض الفقرات من البحث لبيان ما أصابهم من خلل دينى ، وتفكك اجتماعى ، وما حل بهم من منازعات واضطرابات كانوا بسببها أشد من غيرهم حاجة الى رسالة الاسلام ، ودعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن سبق بيان ما أصاب الأمم الأخرى من بعد عن طريق الحق والصواب ، واتباعهم كل ناعق ، ولقد أجمل القرآن الكريم فى بيان ما وصلت اليه الانسانية فى كل مكان ؛ قال تعالى :

" ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون " (سورة الروم : ٤١) .

وفى بيان حال العرب خاصة جاء قوله تعالى :

" هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين " (سورة الجمعة : ٢) .

أ - الخلل الديني :

لا يمكن تقدير قيمة فضل الاسلام ، والرسول صلى الله عليه وسلم ، والدعوة الاسلامية على الانسانية كلها ، والعرب خاصة الا بعد الالمام بتاريخ العرب ، وواقعهم العقائدى ، وما نتج عن اختلال العقيدة من تفكك اجتماعى ، وفتن واضطرابات ومنازعات قبلية .

١ - بداية الانحراف فى العقيدة :

يروى عن معظم المؤرخين أن العرب منذ تاريخ قديم كانوا على بصيرة من أمرهم ، يتعبدون بشريعة خليل الرحمن ابراهيم عليهما السلام ، بعد أن تلقوها من ابنه اسماعيل ، وهى الحنيفية التى جاء محمد صلى الله عليه وسلم (حتى طال عليهم الأمد ، وابتعدوا عن زمن النبوة ، وكثر فيهم الجهل ، وقلت معرفتهم بما جاءت به شريعتهم من الهدى ، وجروا على شهواتهم ، وافترقوا كل الافتراق ، فضلوا وتفرقت مذاهبهم وعقائدهم (١) . وكان السبب العام فى أصل ذلك اغواء الشيطان ، ووساوسه للانسان ، كما ورد فى القرآن الكريم ، ابتداء من اخراج أبينا آدم وزوجه من الجنة ، ويعلل العلامة (ابن القيم) كيفية اغواء الشيطان لأولئك المشركين بقوله : " وتلاعب الشيطان بالمشركين فى عبادة الأصنام ، وتعدد عقائدهم له أسباب عديدة ، تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم " (٢) .

ويقول (ابن الجوزى) (٣) فى هذا :

" كل محنة لبس بها ابليس على الناس فسببها الميل الى الحس والاعراض عن مقتضى العقل ، ولما كان الحس يأنس بالمثل (٤) دعا ابليس لعنه الله

---

(١) مروج الذهب للمسعودى الطبعه الثالثه جـ ٢ ص ١٢٤ .
(٢) اغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم جـ ٢ ص ٢١٨ .
(٣) ابن الجوزى : هو أبو الفرج عبد الرحمن بن على الجوزى القرشى علامة عصره فى الحديث والوعظ والتاريخ ، كثير التصانيف ولد ببغداد وتوفى فيها سنة ٥٩٧ هـ . أنظر : البداية والنهاية الطبعه الأولى ١٩٦٦م جـ ١٣ ص ٢٨ - والاعلام الطبعه الرابعه جـ ٣ ص ٣١٦ .
(٤) فى نسخه : بالميل .

خلقا كثيرا الى عبادة الصور ، وأبطل هؤلاء عمل العقل بالمرة فمنهم من حسن له أنها الآلهة وحدها ، ومنهم من وجد فيه قليل فطنة فعلم أنه لا يوافقه على هذا فزين له أن عبادة هذه تقرب الى الخالق فقالوا : " ما نعبدهم الآ ليقربونا الى الله زلفى " (١) .

ثم عقد فصلا بعنوان " ذكر بداية تلبيسه على عبّاد الأصنام " وذكر فيه قصة عمرو بن لحي الخزاعي ، وجلبة الأصنام الى بلاد العرب ، وأنه أول من غير دين اسماعيل ، ونصب الأوثان ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة (٢) ـ كما سيأتي ـ في الحديث الصحيح .
ويؤيد ذلك ما جاء عن ابن عباس رضى الله عنه ، فى قوله تعالى :

" وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا "
(سورة نوح : ٢٣) ان هذه أسماء أصنامهم التى يعبدونها من دون الله (٣) وروى البخارى فى الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : " صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد ، أما ودّ : كانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع : كانت لهذيل ، وأما يغوث : فكانت لمراد ثم لبنى غطيف بالجوف عند سبأ ـ باليمن ـ وأما يعوق : فكانت لهمدان ، وأما نسر : فكانت لحمير لآل ذى الكلاع أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم أن انصبوا الى مجالسهم التى كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى اذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت " (٤) .

---

(١) تلبيس ابليس لابن الجوزى الناشر : دار الكتب العلميه بيروت ص ٥٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٥٦ . (٣) تفسير ابن كثير الطبعه الثالثه سنه ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦م جـ ٧ ص ١٢٦ .
(٤) رواه البخارى جـ ٣ ص ٢٠٨ (تفسير : أنا أرسلنا) وتفسير جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى جـ ٢٩ ص ٦٢ .

وهذا ما روى عن عكرمة (١) والضحاك (٢) وقتادة وابن اسحاق (٣) وغيرهم وقال الشوكانى (٤) فى تفسير الآية :

" أى لا تتركوا عبادة الآلهه ، وهى الأصنام والصور التى كانت لهم ، ثم عبدتها العرب بعدهم ، وبهذا قال الجمهور ، وهذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح فنشأ بعدهم قوم يقتدون بهم فى العبادة ، قال لهم ابليس :

لو صورتهم صورهم كان أنشط لكم وأسوق الى العبادة ففعلوا ثم نشأ قوم من بعدهم فقال لهم ابليس : ان الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فأعبدوهم ، فابتدأ عبادة الأوثان كان من ذلك الوقت ، وسميت الصور بهذه الأسماء لأنهم صوروهم على صورة أولئك القوم .

وقال عروة بن الزبير (٥) وغيرهم : ان هذه كانت أسماء لأولاد آدم وكان ودّ أكبرهم (٦) ومن هنا ندرك أن السبب العام لغواية العرب وحتى غيرهم من البشر هو الشيطان ووساوسه ، وطرقه التى يتبعها مع الناس كل حسب حالة ، ولذلك تعددت وتنوعت انحرافات العرب فى العقيدة ، وتعددت معبوداتهم .

---

(١) عكرمة : هو أبو عبد الله عكرمة بن عبد الله البربرى مولى عبد الله بن عباس تابعى - كان من أعلم الناس فى التفسير - طاف البلاد للعلم يـ توفى بالمدينة المنورة سنة ١٠٥هـ . وقيل ١٠٧هـ - أنظر : البداية والنهاية الطبعه الأولى ١٣٨٦هـ جـ ٩ ص ٢٢٣ — والاعلام الطبعه الرابعه جـ ٤ ص ٢٤٤ .

(٢) الضحاك : هو أبو القاسم الضحاك بن مزاحم الهلالى الخرسانى كان اماما فى التفسير وله مدرسة يعلم فيها الأطفال حسبه توفى سنة ١٠٢ هـ وقيل سنة ١٠٥ هـ — وقيل غير ذلك أنظر : البداية والنهاية لابن كثير الطبعه الأولى ١٩٦٦م جـ ٩ ص ٢٢٣ — والأعلام للزركلي الطبعه الرابعه جـ ٣ ص ٢١٥ .

(٣) تفسير ابن كثير الطبعه الثالثه جـ ٧ ص ١٢٦ .

(٤) الشوكانى : هو محمد بن على بن محمد بن عبد الله الشوكانى - نسبة لهجرة شوكان من بلاد خولان باليمن التى ولد بها نشأ فى صنعاء كان فقيها مجتهدا ولى قضاء صنعاء ومات وهو حاكم بها سنة ١٢٥٠هـ أنظر الأعلام جـ ٦ ص ٢٩٨ .

(٥) عروة بن الزبير : هو أبو عبد الله عروة بن الزبير بن العوام الاسدى القرشى المدنى التابعى - أمه أسماء بنت أبى بكر الصديق رض الله عنهم - ولد سنة ٢٣ هـ كان فقيها عالما ورعا - روى عن مشاهير الصحابة وهو أول من صنف المغازى اختلف فى سنة وفاته ولكن المشهور أنه توفى سنة ٩٤هـ - أنظر : البداية والنهاية لابى الفداء بن كثير ؛ الطبعه الأولى ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م جـ ٩ ص ١٠١ .

(٦) فتح القدير للشوكانى : الطبعه الثانيه ١٣٨٢هـ - ١٩٦٤م منشورات مصطفى الحلبى القاهرة جـ ٥ ص ٣٠٠

حتى أصبح لكل قبيلة معبود من دون الله ، أما من الأوثان أو الأصنام أو الجن أو النجوم أو غيرها ، وكان من العرب من اتجه الى الديانات الأخرى كأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وحتى أولئك أصابهم ما أصاب غيرهم من عبدة الأوثان والأصنام ان لم تكن حالهم أشد سوءاً . وكان فيهم من بقي على الحنيفية - كما سيأتي - وهم قليل .

والدارس لعقائد العرب ، وانحرافهم قبل الاسلام يجد اختلافا حول الأسباب المباشرة لانحراف العرب ، وان كان السبب الأصلي هو غواية الشيطان كما سبق يتلخص الاختلاف فيما يأتي :

أ - التقليد : باتباع الزعماء ، والآباء والأجداد ، كفعل عمرو بن لحي الخزاعي الذى كان أول من جلب عبادة الأصنام الى بلاد العرب ودليل ذلك الحديث الصحيح الذى رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قصبه في النار ، وكان أول من سيّب السوائب " (١) .

وقال تعالى في حق أولئك :

" انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون " (سورة الزخرف : ٢٢)

وقال تعالى في الآية الأخرى : انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون " (سورة الزخرف) .

ب - التعلق بالحرم : لكونه بيت الله ، ومتعبد ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، فبقوا على دين ابراهيم بتعظيم الحرم ، ومع مرور

---

(١) رواه البخاري جـ ٢ ص ٢٦٨ (كتاب بدء الخلق بـاب قصة خزاعة) ومعنى قصبه : القصب اسم للامعاء كلها وقيل : هو ما كان أسفل البطن من الأمعاء (لسان العرب) جـ ٣ ص ٩٥ .

الزمن ، وبعدهم عن عصر النبوة ، أوصلهم هذا التعلق ، الى عبادة أحجار الحرم ، ثم انتقلت العدوى الى غيره من الأحجار . يقول أبو المنذر الكلبي (١) :

" كان الذى سلخ بهم الى عبادة الأوثان والحجارة أنه لا يظعن من مكة ظاعن الآ احتمل معه حجرا من الحرم ، تعظيما للحرم وصبابة بمكة ، فحيثما حلوا وضعوه ، وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمنا منهم بها وصبابة بالحرم وحباله ، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ، ويحجون ويعتمرون على ارث ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، ثم سلخ بهم الى أن عبدوا ما استحسنوا ، ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين ابراهيم ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا الى ما كانت عليه الأمم من قبلهم " (٢) .

جـ - الشفاعة والقربى : لقد كان العرب يعتقدون فى الله أنه اله أعظم ، خالق الأكوان ، بيده ملكوت كل شىء ، قال تعالى عنهم : " ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنا يؤفكون " (العنكبوت : ٦١) .

ولكن ما كانت حوصلة فكرهم الجاهلى البعيدة العهد بالرسالة والنبوة والمفاهيم الدينية تسيغ أن دعا أحد من البشر يتطرق الى السموات العلى ، ويحظى عند الله بالقبول مباشرة ، بغير واسطة وشفاعة ، قياسا على عاداتهم ، وأوضاع ملوكهم الفاسدة ، فبحثوا لهم عن وسطاء توسطوا بهم الى الله ، واشركوهم فى الدعاء ، وقاموا

(١) الكلبى : هو أبو المنذر محمد بن السائب بن بشر بن عمر الكلبي عالم بالتفسير وأيام العرب وأخبارهم ولد بالكوفة وتوفى بها سنة ١٤٦هـ . أنظر الأعلام الطبعه الرابعه جـ ٦ ص ١٣٣ .

(٢) كتاب الأصنام المطبعه الأميريه بالقاهره سنة ١٣٣٢هـ ص ٦ .

نحوهم ببعض العبادات ، ورسخت فى أذهانهم فكرة الشفاعة حتى تحولت الى عقيدة تصوروا بها قدرة الشفعاء على النفع والضر ، حتى ترقوا فاتخذوا من دون الله آلهة (١) قال تعالى :

" والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى " (سورة الزمر : ٣٤) .

د - يروى الكلبى أن سبب عبادة العرب للأصنام هو اتخاذهم اسافا ونائلة صنمين على موضع زمزم ، وينقل ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما (٢) .

قال ابن اسحاق (٣) :

" واتخذوا اسافا ونائلة على موضع زمزم ، ينحرون عندها وكان اساف ونائلة رجلا وامرأة من جرهم ، هو اساف بن بغى ، ونائلة بنت ديك . فوقع اساف على نائلة فى الكعبة فمسخهما الله حجرتين " (٤) وأخرجوهما من البيت ، ووضعوهما فعبدتهما خزاعة وقريش ومن حج البيت بعد من العرب (٥) .

ونقل ابن اسحاق عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت :

" مازلنا نسمع أن اسافا ونائلة كانا رجلا وامرأة من جرهم احدثا (٦) فى الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين (٧) " .

وبعد هذا العرض لآراء العلماء فى هذا الموضوع فالذى أرجحه أن عمرو بن لحى الخزاعى هو أول من جلب عبادة الاصنام الى بلاد العرب ،

---

(١) أنظر : كتاب عصر النبى وبيئته قبل البعثه ، محمد عزه دروزه الطبعه الثانيه ص ٥٢٩ .

(٢) أنظر : كتاب الأصنام ص ٨ وما بعدها .

(٣) ابن اسحاق : هو أبو بكر محمد بن اسحاق بن يسار المطلبى من أقدم مؤرخى العرب من أهل المدينة المنورة ، زار الاسكندرية واستقر فى بغداد وسكنها حتى توفى بها سنة ١٥١هـ أنظر البدايه والنهايه لابن كثير الطبعه الأولى ١٣٨٦هـ جـ ١٠ ص ١٠٥ والأعلام للزركلى الطبعه الرابعه جـ ٦ ص ٢٨ .

(٤) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٨٦ . (٥) كتاب الأصنام ص ٨ .

(٦) المراد بالحدث : الفجور . (٧) سيرة ابن هشام ص ٨٦ جـ ١ .

لورود الحديث الصحيح في ذلك ، وأن الأسباب الأخرى التي أوردناها كانت نتيجة لفعل عمرو بن لحي هذا .

٢ - المعتقدات عند العرب :

لقد أصبح الشرك عقيدة العرب عامة في الجاهلية ، حتى شغلت مظاهر الشرك حيزا كبيرا في عقائدهم وأديانهم ، سواء الذين جعلوا الشرك دينهم ، أو الذين اعتبروا شركاءهم شفعاء ووسطاء لهم عند الله ، كما دل على ذلك القرآن الكريم الذي فيه عدد كثير من الآيات الكريمة تبين عقائد العرب وأديانهم ، وتلك الآيات وان كانت بصدد تفنيد عقائدهم ، وبيان ضلالتهم،فالقرآن الكريم هو المصدر الأول المهم الذي يوثق فيه،ولا يعتريه الشك عند البحث في شأن أولئك الأعراب وأحوالهم أو غيرهم من الأمم .

وما زال العرب على تلك الأحوال من الانحراف في العقيدة حتى نسوا أصول عباداتهم ، وتمسكوا بما ورثوه عن الآباء والأجداد ، حتى جاء الاسلام بعقيدة التوحيد الخالص ، وحررهم من عبادة المخلوق الى عبادة الخالق ، وحال بينهم وبين العبودية الساقطة .

وقد أصبح العرب قبل الاسلام فرقا في معتقداتهم ودياناتهم : فكان منهم المؤمن بالله المصدق بالبعث والجزاء والحساب (١) - وقليل ما هم - ومنهم من أقر بالخالق ، ونوع من الاعادة ، وأنكروا الرسل ، وعبدوا الأصنام وحجوا وأحلوا ، وهم الدهماء من العرب ، واقرارهم هو الذي يسمى توحيد الربوبية (٢) .

قال تعالى : " ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله " (سورة الزمر : ٣٨)

وكانوا يعتقدون بعباداتهم الأصنام التقرب لله تعالى (٣) الذي قال فيهم :

---

(١) مروج الذهب للمسعودي الطبعة الثالثة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م جـ ٢ ص ١٠٢ .
(٢) بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب للالوسي الطبعة الثانية جـ ٢ ص ٢١٢ .
(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ١٠٣ .

" ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى " (سورة الزمر : ٣) .

ولقد كانت شبهات العرب كثيرة : مثل الشرك ، وانكار البعث وجحد ارسال الرسل ، قال تعالى حاكيا شكهم وانكارهم :

" أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما انا لمبعوثون . أو آباؤنا الأولون " (سورة الصافات : ١٦ - ١٧) .

ويقول شاعرهم :

حياة ثم موت ثم نشر   حديث خرافة يا أم عمرو [١]

وكان فى العرب من عبد الشمس كحمير وزعموا أنها ملك من الملائكة ، وهى أصل نور القمر [٢] . وكان من شدة تعظيمها أن تسمو بها كقولهم "عبد شمس" [٣] . وكان منهم دهريون عطلوا المصنوعات عن صانعها [٤] وقالوا [٥] ما حكاه تعالى عنهم :

" وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحى وما يهلكنا الا الدهر " (سورة الجاثية : ٢٤) .

وكان من العرب صنف يصبوا الى الصابئة وهم الذين يعتقدون فى الأنواء (النجوم) وهى أمة كبيرة ، ومن قريش زنادقة أخذوها من الحيرة ، وديانتهم لا تختلف عن الثنوية فى فارس [٦] كما يقول (ابن قتيبة) [٧] .

---

(١) ينسب هذا البيت لابن الزبعرى .
(٢) النفحة الملوكية فى أحوال الأمه العربيه الجاهليه ! المؤلف عمر القلوصى الطبعه الأولى ١٣١١ هـ ص ٥٦ .
(٣) تاريخ العرب القديم جواد على جـ ٥ ص ٣٧ .
(٤) بلوغ الارب جـ ٢ ص ٢١٢ .
(٥) وقد قام العلامة ابن القيم رحمه الله بتنفيذ مزاعم الدهريين ، وأبطل حججهم فى كتابه القيم (مفتاح دار السعادة) أنظر : جـ ١ ص ٢٦١ .
(٦) كتاب المعارف الطبعه الثانيه ١٣٩٠هـ ص ٢٦٦ .
(٧) ابن قتيبة : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ، ولد سنة ٢١٣ هـ اشتغل بالعلم ، وصنف فى اللغة والأدب والتفسير وعلوم القرآن ، ولى القضاء بمصر وتوفى بها سنة ٢٧٠هـ أنظر : البداية والنهاية جـ ١١ ص ٤٨ .

كما كان من العرب من عبد الجن ، وتعوذ بهم وخافهم قال تعالـــى :

" وأنه كان رجال من الانس يعوذ ون برجال من الجن فزاد وهم رهقا " (سورة الجن : ٦)

وقال بعض المفسرين :

" كان الرجل فى الجاهلية اذا سافر فأحس فى واد قفر ، وخاف على نفسه قال : أعـوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه يريد الجن وكبيرهم ، فبيت فى جوار منهم حتى يصبح "(١)

وفى كتاب الأصنام " كانت بنو مليـح من خزاعة يعبد ون الجن " (٢) وكان من العرب من عبد النار ، ويرون أن ذلك سرى اليهم من الفرس (٣) . وقد اعتقد العرب فى بعـض ما شاع بينهم من عادات ، وأصبحت لهم عقائد لازموها ، وسيطرت على مشاعرهم ، وأكثرها خرافات كالكهانة والعرافة وزجر الطير ، وما يرونه فى الهاتف والجان والطيرة والشيطان ، وغيرها ، وقد أفرد المسعودى فى كتابه (مروج الذهب) فصولا عجيبة عما كان يعتقده العرب فى ذلك (٤) .

والقرآن الكريم يورد فى مواضع كثيرة بيانا شافيا لما أحدثه العرب فى دين ابراهـــيم عليه السلام من عادات توارثوها عن آبائهم ، ما أنزل الله بها من سلطان ، وأصبحت لكم سلوكا وعقيـدة .

فكان من الذى ابتدعوه وزعموه دينا (الحُمْس) وهو مأخوذ من الشدة لأنهم قالوا : نحن بنو ابراهيم وأهل الحرم ، وولاة البيت فليس لأحد من العرب مثل حقنا ومنزلتنـــا حتى تركوا الوقوف بعرفة والافاضة (٥) روى مسلم فى الصحيح عن عائشة رضى الله عنهــــا قالـــــت :

---

(١) تفسير غرائب القرآن للنيسابورى الطبعه الثانيه جـ ٢٩ ص ٥٩ .
(٢) كتاب الأصنام ص ٣١٤ . (٣) بلوغ الارب جـ ٢ ص ١٩٧ .
(٤) أنظر : مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٢ وما بعدها .
(٥) أنظر : سيرة ابن هشام ، تحقيق محمد عبد الحميد طبعة ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م جـ ١ ص ٢١٦ .

" كان قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمون الحمس ، وكان سائر العرب يقفون بعرفة ، فلما جاء الاسلام أمر الله عز وجل نبيه أن يأتي عرفة ويقف بها ثم يفيض منها "(١) .

وكان مما أحدثوه افتراء على الله وتحايلا على شرعه نسيئهم للشهور فى الجاهلية بجعل الشهر من الأشهر الحرم ، مكان الشهر من أشهر الحل ، لحاجتهم للحرب والغارات ، ولذا قال رسول الله فى حجة الوداع :

" ألا ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض (٢) "

وحج صلى الله عليه وسلم فى السنة التى عاد فيها الحج الى وقته الصحيح .

ومما ابتدعوه تصنيفهم لبعض الأنعام التى كانوا يطلقونها لمعبوداتهم وآلهتهم بشروطهم التى افتروها على الله تعالى :

" ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون " (سورة المائدة : ١٠٣) ومن معانيها : البحيرة : الناقة التى تشق أذنها وتنتج خمس أبطن آخرها ذكر ، السائبة : المخلاه السيبة حيث كانوا فى الجاهلية اذا نذر الرجل لقدوم سفر ، أو برء من مرض مثلا قال : ناقتي سائبة (٣) . الوصيلة : أنثى الغنم اذا ولدت فحلا بعد أنثى سيبوها (٤) ، وقيل الأنثى اذا ولدت مع ذكر (٥) .

---

(١) رواه مسلم جـ ٢ ص ٨٩٤ (كتاب الحج) باب (فى الوقوف وقوله تعالى : ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) .
(٢) رواه البخارى جـ ٣ ص ١٣٥ (كتاب التفسير تفسير سورة براءة) .
(٣) أحكام القرآن للجصاص جـ ٢ ص ٥٩١ (٤) تفسير القرطبى جـ ٣ ص ٢٣٣٤ .
(٥) أحكام القرآن للجصاص ؛ المطبعه البهيه بمصر جـ ٢ ص ٥٩١ .

الحامي : الفحل اذا نتج عشر اناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمي ظهره فلم يركب ولم يجز وبره (١) .

والله تعالى - بهذه الآية - يذمهم على صنيعهم هذا ، ويكشف كذبهم وجهلهم ، وافتراءهم على الله تعالى .

٣ - الحنيفية عند العرب :

سبق القول أنه كان فى العرب الموحد المؤمن المصدق بالبعث والجزاء والحساب ، واستبصر ببصيرته فأعترف بوجود الله ووحدانيته ، ولم يدرك دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد بقي على أصل فطرته "فطرة الله التى فطر الناس عليها" (سورة الروم : ٣٠) وهم البقايا الذين لم يغيروا دين ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، من تعظيم البيت والطواف والحج والعمرة (٢) .

ويسمون "الحنفاء" وهم فريقان :

١ - من بقى على أصل التوحيد . ٢ - من اتبع من بقيت شريعته ولم تنسخ ملته - آنذاك - كعيسى بن مريم وهم نزر قليل ، ولقد كان الباقون على التوحيد أكثر سموا من غيرهم فى العقائد والسلوك ، ولكن لم تكن لهم المقدرة على تغيير مجتمعهم ، وعادات قومهم ، قال ابن اسحاق : "كان نفر من قريش زيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، وعثمان بن الحويرث ، وعبد الله بن جحش ، حضروا قريشا عند وثن لهم ، كانوا يذبحون عنده لعيد من أعيادهم ، فلما اجتمعوا خلا بعض أولئك النفر الى بعض وقالوا : تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض فقال قائلهم : تعلمن والله ما قومكن على شيء ، لقد أخطئوا دين ابراهيم ، ماحجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر !! ولا يضر

(١) تفسير القرطبى جـ ٣ وأحكام القرآن جـ ٢ ص ٥٩١ .
(٢) الملل والنحل للشهرستانى الطبعه الثانيه ، منشورات دار المعرفه بيروت جـ ٣ ص ٢٣٣ .

ولا ينفع ياقوم التمسوا لأنفسكم ؛ فانكم والله ما أنتم على شئ ، فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفة دين ابراهيم " [١] وفى رواية ابن كثير يلتمسون أهل الكتاب [٢] .

قال ابن اسحاق :

" أما ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث فتنصرا ، وأما عبد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ثم هاجر مع المسلمين الى الحبشة ، فتنصر وهلك نصرانيا ، وخلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم على زوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان " .

وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف ولم يدخل يهودية ولا نصرانية ، وفارق دين قومه واعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان ، ونهى عن قتل الموؤدة ، وقال أعبد رب ابراهيم ، وبادى قومه بعيب ما هم عليه [٣] " .

وروى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قوله :

ان زيد بن عمرو بن نفيل كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول :

الشاة خلقها الله ، وأنزل لها من السماء الماء ، وأنبت لها من الأرض الكلأ ثم أنتم تذبحونها على غير اسم الله [٤] " . ولذا كان لا يأكل الا ما ذبح على اسم الله وحده [٥] .

وكان من أشهر الموحدين فى ذلك الزمن وهو زمن الفترة خالد بن سنان العبسي وقس بن ساعده الايادى ، وعامر العدوانى [٦] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٤٢ .
(٢) البداية والنهاية جـ ٢ ص ٢٣٧ .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٤٣ .
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ص ٢٥٩ .
(٥) البداية والنهاية جـ ٢ ص ٢٣٧ .
(٦) أنظر : البداية والنهاية جـ ٢ ص ٢١١ ، ٢٤٠ والملل والنحل للشهرستانى الطبعه الثانيه جـ ٣ ص ٣٣٣ .

والعرب بالرغم مما كانوا فيه من شرك وجهل وضلال قد حرموا أشياء نزل القرآن بتحريمها ، فقد كانوا لا ينكحون الأمهات ولا العمات ولا الخالات ولا البنات ، ومنهم من كان يحافظ على بعض العبادات ؛ فكانوا يغتسلون من الجنابة ، ويغسلون موتاهم ، ويكفنونهم ، وكان فيهم من يداوم على السنن كالمضمضة ، والاستنشاق وقص الشارب (١) .

كما كانت قريش تصوم يوم عاشوراء ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يصومه قبل البعثة روى البخارى فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها قالت :

" كان عاشوراء يوما تصومه قريش فى الجاهلية ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يصومه فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه فلما نزل رمضان كان من شاء صامه ومن شاء لا يصومه " (٢) .

٤ - الوثنية والأصنام عند العرب :

لقد أصبح الشرك هو دين العرب العام ، بعد قيام عمرو بن عامر بن لحى الخزاعى - على قول أكثر المؤرخين - بتغيير دين اسماعيل عليه السلام ، فنصب الأوثان ، وسيب السوائب ، ووصل الوصيلة ، وبحر البحيرة ، وحمى الحامية بعد أن نازع جرهما على ولاية البيت وظفر بهم ، وتولى حجابة البيت ، ثم انه مرض مرضا شديدا فقيل له : ان بالبلقاء من الشام حمه ان أتيتها برأت ، فاستحم بها فبرأ ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال ماهذه ؟ فقالوا : نستسقى بها المطر ، ونستنصر بها على العدو ، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا ، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة (٣) .

---

(١) كتاب الأصنام ص ٣٩ .

(٢) رواه البخارى جـ ٢ ص ٣١٧ (باب أيام الجاهلية) كما رواه مسلم بهذا اللفظ (صحيح مسلم جـ ٢ ص ٧٩٢ ، كتاب الصيام ، باب صوم يوم عاشوراء) .

(٣) أنظر : سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٨٢ .

روى البخارى عن عائشة رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

" رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قصبة فى النار ، وكان أول من سيب السوائب (١) " .

وقال ابن اسحاق : " حدثنى محمد بن ابراهيم بن الحرث التيمى ، أن أبا صالح السمان حدثه أنه سمع أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأكثم بن الجون الخزاعى :

" يا أكثم رأيت عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف يجر قصبه فى النار ، فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ، ولا بك منه " فقال أكثم : عسى أن يضرنى شبهه يارسول الله ، قال : " لا ، انك مؤمن وهو كافر ، انه كان أول من غير دين اسماعيل : فنصب الأوثان ، وبحر البحيرة ، وسيب السائبة ، ووصل الوسيلة ، وحمى الحامى " (٢) .

ولقد كان أقدم أصنام العرب مناه ، وكان منصوبا على ساحل البحر الأحمر من ناحية المشلل بقديد بين مكة والمدينة ، وكانت العرب تعظمه وتسمى "عبد مناه" وتذبح له ، ثم اتخذوا بعده اللات ، وكانت صخرة مربعة فى مكان قبر يهودى يلت السويق للحجاج بالطائف . ثم العزى شجرة بوادى نخلة كانت العرب تعظمها وتذبح عندها ، وقد بعث صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد عام الفتح وأمره بعضدها وقطعها (٣) ، قال تعالى :

" أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى " (سورة النجم : ١٩ - ٢٠) وقد هوت بهم عبادة تلك الأصنام الى الحضيض فى الجهل والخرافة

---

(١) رواه البخارى جـ ٢ ص ٢٦٨ . (٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٨١ .
(٣) أنظر : كتاب الأصنام ص ١٤ وسيرة ابن هشام جـ ١ ص ٨٧ وما بعدها .

والانحراف عن طريق الهدى ، حتى عبدوا الأشجار ، وقطع الحجارة ، وتلال الرمل بعد أن يحلبوا عليها ، روى البخارى عن أبى رجاء العطاردى قال :

كنا نعبد الحجر فاذا وجدنا حجرا هو أخير منه القيناه وأخذنا الآخر فاذا لم نجد حجرا جمعنا جثوة من تراب ثم جئنا بالشاء فحلبناها عليه ثم طفنا به "(١) .

وهكذا ما ان كثرت لديهم الأصنام ، وتنوعت طقوس عباداتها ، حتى أصبحت جزءا من حياتهم ، وأضحت من الكثرة ؛ بحيث يصعب حصرها أو عدها .

ولقد كان حول الكعبة التى بنيت لعبادة الله وحده عند فتح مكة المكرمة ثلاثمائة وستون صنما ، وقد أمر صلى الله عليه وسلم باخراجها ، وأبى أن يدخل البيت وفيه الأوثان ، وكان مما أخرج سورة سيدنا ابراهيم واسماعيل عليهما السلام فى أيديهما الأزلام فقال صلى الله عليه وسلم : " قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط " (٢)

ولم يزل الأمر يستفحل فيهم ، ويقوى أمره مع أمعانهم فى الجاهلية ، حتى انغمست كل الأمة فى الوثنية ، وأصبح لكل قبيلة وناحية صنم .

وهكذا انحدرت أمة بأكملها الى الهاوية فى عباداتها ، وأخلاقها نتيجة البعد عن طريق الحق ، واتباع أسباب الغواية ، والضلال من الهوى والشيطان ، والنفس الأمارة بالسوء ، وبسبب شقاوة أحد أبنائها ، وهو عمرو بن لحى الذى جلب عبادة الأصنام الى بلاد العرب ، فارتكب اثما عظيما ، وزورا كبيرا .

---

(١) صحيح البخارى جـ ٣ ص ٧٩ (كتاب المغازى باب وفد بنى حنيفة) ومعنى جثوه : كمية قليل من التراب يضم بعضها الى بعض .

(٢) صحيح البخارى جـ ٣ ص ٦٢ (باب فتح مكة) .

٥ - اليهودية والنصرانية عند العرب :

اضافة الى الوثنية التى كانت الدين العام عند العرب ، فقد عرفوا الديانات الأخرى كاليهودية والنصرانية .

أولا : اليهودية : لقد كانت معرفة العرب لليهودية عن طريق الدعوة العامة التى يعززها سلطان الرؤساء على نحو ما حدث فى اليمن (١) . أو عن طريق الهجرة الجماعية من اليهود نتيجة القمع والتشريد حيث هاجر بنو النضير وبنو قريظة جملة واحدة الى يثرب واستقروا فيها (٢) .

ولكن الخلاف قائم بين المؤرخين فى تاريخ دخولهم ووسيلتهم فى ذلك ، لأن المعروف عن اليهود المتأخرين عدم الدعوة للدخول فى اليهودية لأنهم يرون أنفسهم شعب الله المختار (٣) وكان من أهم مواطن اليهود بعد يثرب فى شمال جزيرة العرب تيماء وفدك وخيبر ، لأنها عبارة عن حصون منيعة ، تساعد اليهود على التحصن والاحتماء ، خشية وقوع الأذى عليهم من أعراب البادية ، وفتاك (٤) القبائل ، واشتغلوا فى التجارة والسعى الى الكسب ، وجمع المال لما عرف عنهم من شهوة فى حب المادة ، والتصرف فى وسائل الانتاج ، واستعملوا كل وسيلة مشروعة ، وغير مشروعة ، وأخذوا فى بث الفرقة بين العرب ليخلوا لهم الجو ، وسيطروا على الناس بالتعامل بقروض الربا والدسائس (٥) .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٣ .
(٢) أنظر : الفصل فى الملل والنحل لابن حزم طبعة ١٣٢١هـ جـ ١ ص ٤٩ .
(٣) أنظر : مطلع النور للعقاد الطبعه الأولى ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م ص ٤٨ .
(٤) الفاتك : الجرىء وجمعها فتاك .
(٥) أنظر : مطلع النور للعقاد الطبعه الأولى ص ٤٨ .

ويرى بعض المؤرخين أن بطونا من حمير وكنانة وكندة وبنى الحارث عرفت اليهود من جوارها لطريق المدن التي يسكنها اليهود (١) .

وعلى كل الأحوال فجزيرة العرب لم تفد من أولئك اليهود الا الشر المستطير والفتن والمنازعات القبلية ، واشعال جذوة الوثنية فيها يقول الأستاذ العقاد (٢) :

" ولقد كان يحسب لهؤلاء اليهود أثر في مقدمات الدعوة الدينية أو مقدمات النهضة القومية الانسانية بعبارة أخرى ، لو أنهم أفادوا العرب من حولهم دروسا في التفكير والأخلاق ، تكشف لهم عن سخف الجاهلية ، وتهيء ضمائرهم لما هو أصح منها وأقرب الى التقدم والهداية ، هذا أو تكون حياتهم بين العرب قدوة صالحة "

" ولكنهم لم يصنعوا هذا ولا ذاك ، وصنعوا في أكثر الأحيان نقيض هذا وذاك ، لأنهم لم يكترثوا لأمر المتهودين من قبائل العرب الا لينتفعوا بولائهم وحراستهم لتجارتهم في الطريق ، فلم يكن بين الجاهليين المتهودين ، والجاهليين الوثنيين فرق في العادات والأخلاق ، الا أن يكون فرق الشجاعة والرجولة في جانب الوثنيين ، يمتازون به على الذين تعودوا اللياذ بالآطام والتعلق في حروبهم وسلمهم بذرائع المساومة والنفاق !! " (٣)

وقد كان يهود يثرب قدوة سيئة ، في كل علاقة بينهم وبين العرب ، أو بين أنفسهم في جوار المدينة ، فقد كانت سياستهم - كما هي في كل زمان ومكان - قائمة على الايقاع بينهم ، واثارة الأحقاد في المتخاصمين منهم .

---

(١) المرجع السابق ص ٤٨ .
(٢) العقاد : هو عباس محمود ابراهيم مصطفى العقاد - كاتب مصرى معاصر من كتاب القرن الرابع عشر الهجرى ، ولد بأسوان سنة ١٣٠٦ هـ له مصنفات كثيرة مشهورة توفى بالقاهرة ودفن بأسوان سنة ١٣٨٣ هـ أنظر الأعلام الطبعه الرابعه جـ ٣ ص ٢٦٦ .
(٣) مطلع النور للعقاد الطبعه الأولى ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م ص ٥١ .

كلما جنحوا الى النسيان/وتعاهدوا على الصلح والأمان ، ولزم اليهود أنفسهم داؤهم القديم ؛ من الشقاق والمشاكسة حيثما اجتمعوا فى مكان واحد (١) .

وكان من حقدهم على غيرهم ، ونشرهم الفتن والفساد فى الأرض اشعالهم الحرب بين الأوس والخزرج فى يثرب ، ثم كان موقفهم من الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين بعد الهجرة الذى اتسم بالعداوة ، وانتظار ما تكون عليه الخصومة بين الرسول صلى الله عليه وسلم وقومه من المشركين ، حيث كانوا ينتظرون قضاء الطرفين على بعضهما ليصفي لهم الأمر فى النهايه ، وعندما أحسوا بانتصار المسلمين بدأوا يظهرون العداوة للمسلمين .

وقد كانوا يقابلون احسان العرب الذين آووهم ، وعطفوا عليهم فى جزيرتهم بالعداوة والبغضاء ، حتى قضى الله عليهم بالجلاء من المدينة ، بل والجزيرة كلها ، وانتصر المسلمون على اليهود باذن الله .

ومواقف اليهود تلك ليست مستغربة من تلك الفئة التى كتب عليها الذل والهوان والخسران المبين .

ولذلك نجد التاريخ يعيد نفسه فهم الآن قابلوا تسامح المسلمين ، وعطفهم عليهم فى سائر بلادهم بالعداوة والبغضاء والاعتداء على المسلمين ، بطردهم من بلادهم وقتل أبنائهم ، واستحلال أموالهم ونسائهم ، وابادتهم بجميع وسائل الابادة ، ولم يقفوا عند حد اغتصاب فلسطين والبيت المقدس بل يصرحون أن هدفهم من الفرات الى النيل .

ثانيا : النصرانية : والى جانب اليهودية عرف العرب النصرانية التى كانت ذائعة فى البلاد المحيطة بالجزيرة كالشام ومصر والحبشة ، ولقد كان النصارى يتعبدون بنشر ديانتهم والتبشير بها ، فيجوبون البلاد متحملين المشاق فى

---

(١) مطلع النور ص ٥١ وما بعدها .

سبيل نشرهـا .

وينقل (ابن اسحاق) أن أول ما عرفت النصرانية ببلاد العرب بنجران بعد قدوم " فيمون " الذى كان رجلا صالحا من بقايا دين عيسى بن مريم - عليه السلام - مجتهدا زاهدا فى الدنيا مجاب الدعوة ، وكان سائحا ينزل بين القرى حتى استقر فى نجران ونشر دينه (١) .

وبعد فترة عرفت النصرانية كثيرا من ارجاء الجزيرة .

فاضافة الى الغساسنة فى الشام عرفت الحيرة بالعراق النصرانية ، كما دانت بها تغلب ، وتنصر من قريش بنو أسد (٢) ، ودخلت النصرانية الى اليمن كذلك فى القرن الرابع (الميلادى) على أرجح الروايات ، وانتشرت بحكم العامل السياسى والدينى والتجارى (٣) .

وعلى كل الأحوال فالعرب لم يستفيدوا من هاتين الديانتين ، لكونهما صورتين لليهودية والنصرانية فى بلاد الروم والشام ، وقد طرأ على أصلهما التحريف والوهن وسوء الاعتقاد ، وكثرة الخلاف والشقاق . مما وجب معه تجديد الدعوة الحنيفية بالدعوة الاسلامية ، وما أن أبلج صبح الدعوة حتى كتب الله لها النجاح والنصر لتقضى على تلك الدعوات المحرفة ، التى عشعش الشيطان فى رؤوس أصحابها .

---

(١) أنظر : سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٠ .
(٢) أنظر : الملل والنحل لابن حزم جـ ١ ص ٤٩ وتاريخ الطبرى الطبعه الأولى جـ ١ ص ٣ .
(٣) أنظر : عالمية الدعوة الاسلامية للدكتور / علي عبد الحليم محمود الطبعه الثانيه ١٣٩٩هـ — ١٩٧٩م ص ٧٩ .

ب - الخلل الاجتماعى والسياسى :

سبق الحديث عن فساد عقيدة العرب ، وسيطرة الأوثان عليهم ، وعلى تصرفاتهم حتى أصبح الشرك هو الدين العام لديهم ، نظرا لبعدهم عن عصر النبوة ، ودعوات الخير والصلاح ، كما صرح بذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى :

" لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك " (سورة القصص : ٤٦) وقوله تعالى :

" هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين " (سورة الجمعة : ٢)

مما كان له عظيم الأثر على واقع الأمة الاجتماعى والسياسى ، بعد أن أصيبوا فى العقيدة ، خاصة عندما تحدثنا عما أصاب غيرهم من الأمم ولا سيما - أهل الكتاب - الذين كانوا أمل الانسانية ورجاها .

واذا كان الأمر كما ذكر فليس مستغربا أن ترين على المجتمع الجاهلى ، تلك الظلمات وتتراكم عليه تلك السحب الثقيلة ، ظلمات بعضها فوق ، حتى يهوى الى الدركات ، بعد أن انتشرت بينهم بسبب ذلك ، الأدواء الخلقية ، والأمراض الاجتماعية : من شرب الخمر ، والادمان عليه ، وتعاطى القمار ، والتعامل بالربا بشتى صوره التى سيطرت على قلوبهم حتى قالوا : "انما البيع مثل الربا " (سورة البقرة : ٢٧٥) الى استحلال الزنا وغيره من المنكرات .

من بين تلك الظلمات يشرق نور الهداية ، ويظهر الحق ، لينشر العدل ويعم الرخاء والأمن ، وتعم السعادة ، لكن من أين ؟

من بين جبال مكة الشامخة ، ووهادها (١) الوادعة ، من جوار أول بيت وضع للناس ، من مكة المكرمة ، من البلد التى شهدت أول دعوة للحق ، على يدى ابراهيم عليه السلام ، فتأتى دعوة الاسلام ، مجددة لتلك الدعوة بعد أن تخلى عنها أهل الأديان السابقين من أهل الكتاب .

(١) وهاد : مفردها وهد ، وهو المنخفض المطمئن ، والوادعة من ودع : أى ساكن .

حتى كانوا يعدون من العيب والنقيصة عدم لعب القمار (١) .

ورسخت فى أذهانهم بعض العادات والخرافات ، التى أصبحت جزءا من اعتقادهم ، لا يملكون الا التسليم لها ، والانقياد لنتائجها ، كالاستقسام بالأزلام ، وزجر الطير وهو ما أسموه : بالسانح أى المرجو ، والبارح : المخوف وتفاؤلهم ببعض النجوم وتشاؤمهم بالآخر (٢) .

كما شاع بينهم تعاطى الربا ، والتعامل فيه الى حد الاجحاف والقسوة والظلم ، وأكل المال بالباطل ، قال الطبرى :

" كان الربا فى الجاهلية فى التضعيف وفى السنين ، وكان أكلهم ذلك فى **جاهليتهم أن الرجل** منهم كان يكون له على الرجل مال الى أجل فاذا حل الأجل طلبه من صاحبه فيقول له : الذى عليه المال أخر عنى دينك وأزيدك على فيفعلان (٣) " قال تعالى فى التحذير من حالهم : " يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة " (سورة آل عمران : ١٣٠) ولقد رسخ فيهم هذا وجرى مجرى الأمور الطبيعية (٤) حتى قالوا " انما البيع مثل الربا " (سورة البقرة : ٢٧٥) كما انتشر بينهم الزنا وأصبح غير مستنكر، وكان من عادات بعضهم اتخاذ عدد من الخليلات ، وكان فيهم من يكره النساء على البغاء ليأخذوا أجورهن روى مسلم - بسنده - عن جابر رضى الله عنه قال : كان عبد الله بن سلول (٥) يقول لجارية له : اذهبى فأبغينا شيئا " (٦) .

---

(١) أنظر : ماذا خسر العالم للندوى الطبعه العاشره ص ٦٦ .

(٢) مروج الذهب للمسعودى الطبعه الثالثه ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م جـ ٢ ص ١٤٨ .

(٣) تفسير الطبرى الطبعه الثانيه بدار المعرفه جـ ٤ ص ٥٩ .

(٤) أنظر : أحكام القرآن للجصاص جـ ١ ص ٤٦٥ .

(٥) عبد الله بن سلول : هو عبد الله بن أبى بن سلول بن عوف الخزرجى رأس المنافقين فى المدينة ، كان مؤذيا للرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه خاذلا لهم ، نزل القرآن بكشف أمره ، وبيان ضلاله ، هلك بالمدينة منافقا قبل وفات الرسول صلى الله عليه وسلم . أنظر : سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٤٨ .

(٦) صحيح مسلم جـ ٤ كتاب التفسير .

فأنزل الله تعالى : "ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا (سورة النور : ٣٣) .
وكانت تشيع فيهم صور شتى للنكاح ، كنكاح استبضاع ، ونكاح المتعة والشغار (١) ، وكان من صور النكاح لديهم أن يجتمع الرهط لدى المرأة فيدخلون عليها فاذا حبلت ألحقته بمن شاءت منهم ، حتى لقد روي أن بعض البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما لمن أرادهن!
فحرم الاسلام كل ذلك الا النكاح المشروع كما جاء في الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها (٢) . واذا كانت هذه حال الجاهلية التي بعث فيها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقضى على بدعهم وضلالهم ، فما أشبه الجاهلية المعاصرة بتلك الجاهلية الأولى ، وما أحوج الانسانية الى دعاة مصلحين ، يدعون الى الله على بصيرة ، ويهدون الانسانية طريق الهدى .

٢ - تسلط النظام القبلي والعصبية :

كان أكثر العرب في جزيرتهم بدوا يعيشون على الرعي ، وتربية الماشية ، والترحال وراء الماء والكلأ في القفار الواسعة ، اضافة الى ما كانت عليه بلادهم ، من طبيعة قاسية نتيجة للحرارة الشديدة في الصيف ، والبرد القارس في الشتاء ، الا في بعض الواحات أو الحواضر كالطائف ومكة والمدينة ، علاوة على ما كان عليه مجتمعهم من أمية وجهل ، فقد أثرت تلك الأسباب في حياة أبناء الجزيرة ، وأوجدت لديهم عدم الاستقرار ، وأصبح أولئك البدو من أهل الحواضر بمنزلة الوحش غير المقدور عليه ، مما يصعب معه خضوع ابن البادية لسلطان أو نظام ، وغدت القوة هي المسيطرة ، وعم السلب والنهب ، وكان أحدهم لا يأمن على نفسه

(١) صحيح البخاري جـ ٣ ص ٤٢٥ .
(٢) رواه البخاري جـ ٣ ص ٢٤٨ (كتاب النكاح باب من قال لا نكاح الا بولي) .

أو عرضه أو ماله ، وعند فقدان الرابطة الدينية لم يكن من رابطة تجمع بينهم للوقوف في وجه ذلك الوضع الآن رابطة الدم ، وعلاقة القربى ، والتعصب القبلي ، حتى شاع بين العرب قولهم المشهور (أنصر أخاك ظالما أو مظلوما) وأصبحت عادات القبيلة هي النظام والقانون ، وغدت قوة القبيلة هي الحكومة والسلطان ، وهي المناصرة لأفرادها ، والحامية لهم من القبائل الأخرى (١) . وما كاد يكون للقبيلة ذلك الدور حتى وجدت لديهم الفوارق الطبقية الناتجة عن قوة القبيلة وسلطانها ، ومدى وفائها لأفرادها وصارت كل قبيلة تحارب الأخرى ، دفاعا عن مصالح القبيلة ، حتى عمت الحروب والمشاحنات بين القبائل ، بل وبين أفراد القبيلة الواحدة حينا ، كما حصل من الاختلاف بين بني عبد مناف وبني عبد الدار وكلاهما أبناء قصي بن كلاب (٢) . وقد أوهت تلك الحروب والمشاحنات قوى العرب ، وأفقدت بعضهم الثقة ببعض كما دفعت بعض القبائل الى التحزب ، والتكتل مع قبيلة أخرى للوصول الى الانتصار في الحرب ، أو أخذ الثأر ، فلم يكسب العرب من تلك الحال الآن الفرقة والانقسام والانغماس في أتون الفتن ، وسقطت الأمة بأكملها في أعين الأمم الأخرى المجاورة كفارس والروم ، وأصبحت لقمة سائغة لكل غاصب ومعتد . مما دفع تلك القوتين الى محاولة اقتسام العرب ، أو استمالة عواطف من يليهم ضد الأمة الأخرى في الحرب على أقل تقدير ، ومع مرور الزمن ، تكاثرت تلك القبائل العربية ، وتفرقت بطونا ، خاصة في بادية الحجاز ، حيث الحرم ، وما جاوره من واحات .

وشرعت كل قبيلة تعتز بنفسها ، وتفاخر برجالها ، وتعتز بسيد أو أكثر من رجالها فتعددت السلطات ، وتعددت تبعا لذلك المصالح والعادات ، وأصبح سلطان

---

(١) أنظر : مقدمة ابن خلدون الطبعه الخامسه ص ١٣٢ وما بعدها .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٤٢ .

القبيلة درعا واقيا يستظل به كل مارق ، متبع لشهواته ، وكل صعلوك يغير للنهب والسلب(١) .

٣ - تدهور مركز المرأة فى المجتمع الجاهلى :

عند ما أصيب المجتمع الجاهلى بالزيغ والضلال ، كان نصيب المرأة وفيرا فى ذلك ، وأصبحت أشد خسرانا من الطرف الآخر فى المجتمع وهو الرجل ، بعد أن أصابها ما أصاب أختها فى تلك الجاهليات من الاهانة والذل . بعدما ان وصل الأمر فى مجتمع " ماكون" الى التساؤل هل المرأة روح أم هى جسد بلا روح ؟ وغلبوا أنها جسد بلا روح !! وانها مصدر لكل خطيئة ، ومنشأ كل شر وسيئة للرجل (٢) ! .

وحينما تقارن مكان المرأة فى المجتمع العربى بمكانها فى المجتمعات الأخرى التى يقال عنها : انها أكثر تقدما من العرب حينئذ .

نجد المرأة فى المجتمع العربى قد جرفها ذلك السيل العرم الذى جرف تلك الجاهليات كلها ، الا أن المرأة كانت أوفر حظا ، وأكثر نصيبا من الرجل فى الانحطاط والذل والاهانة وسلب الحرية ! لذا ماذا نتوقع أن يكون للمرأة عند العربى الجاهلى من الحظ فى الكرامةوالانصاف ؟ لقد هان أمرها ، وقلت منزلتها ، وأصبحت حطاما يورث مع المال والماشية ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

" كان الرجل اذا مات أبوه أو حميه فهو أحق بامرأته ، ان شاء أمسكها ، أو يحبسها حتى تفتدى بصداقها ، أو تموت فيذهب بمالها (٣) " .

---

(١) أنظر : تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور سعد زغلول عبد الحميد طبعة سنة ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م ص ٣٠١ وما بعدها .

(٢) أنظر : كتاب المرأة فى القرآن للعقاد الطبعه الثالثه ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م . وكتاب الحجاب ص ٢١ .

(٣) رواه البخارى جـ ٣ ص ١١٨ (كتاب التفسير ، باب تفسير سورة النساء) .

وقال السدى (١) :

" ان الرجل فى الجاهلية كان يموت أبوه أو أخوه أو ابنه فاذا مات وترك امرأته ، فان سبق وارث الميت فالقى عليها ثوبه فهو أحق بها ،أن ينكحها بمهر صاحبه أو ينكحها فيأخذ مهرها ، وان سبقته فذهبت الى أهلها فهى أحق بنفسها (٢) "

ولهذا كانت المرأة فى الجاهلية مهضومة الحقوق بخلاف الرجل ، حتى لقد يطفف معها الكيل ، وكانوا يمسكوهن مضارة بهن ، ونهى الله عن فعلهم هذا لما فيه من الظلم ؛

قال تعالى :

" واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه " (سورة البقرة : ٢٣١)

وكان فيهم من يعرض عنها ، ويتركها معلقة لا هى زوجة تتمتع بحقوق الزوجية ، ولا مطلقة فتكون لها حرية الزواج من غيره ، قال تعالى :

" ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وان تصلحوا وتتقوا فان الله كان غفورا رحيما . وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما " (سورة النساء : ١٢٩ - ١٣٠)

كما كان من المأكولات ما هو خالص للذكور محرم على الاناث ، قال تعالى :

" وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم " (سورة الأنعام : ١٣٩)

قال القرطبى : " هذا نوع آخر من جهلهم ، قال ابن عباس : هو اللبن جعلوه حلالا للذكور حراما على الاناث ، ويروى الأجنة قالوا : أنها لذكورنا

---

(١) السدى : هو اسماعيل بن عبد الرحمن السدى يرجع نسبه الى احدى قبائل الحجاز تابعى ، سكن الكوفة ، وتوفى سنة ١٢٨هـ أنظر الأعلام جـ ١ ص ٣١٧ .

(٢) تفسير الطبرى الطبعه الثانيه جـ ٤ ص ٢٠٧ .

ثم ان مات منها شيء أكله الرجال والنساء»(١)

وقال ابن كثير (٢) :

" كانت الشاه اذا ولدت ذكرا ذبحوه ، وكان للرجال دون النساء ، وان كانت انثى تركت فلم تذبح ، وان كان ميتة فهم فيه شركاء فنهى الله عن ذلك ، وقال الشعبي وقتادة ومجاهد (٣) : هي السائبة والبحيرة (٤) "

وكان تعدد الزوجات شائعا بدون عدد أو شرط تبعا لهوى الرجل ، روى البخاري (٥) وأبو داود (٦) - باسنادهما - ان عميرة الاسدى قال : أسلمت وعندى ثمان نسوة فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : "اختر منهن أربعا " (٧) ومن جانب آخر فقد بلغت الكراهية بأولئك الأعراب ، الجفاة الطباع ، الغلاظ الأكباد للمرأة الى حد قتلها ، وهي حية دون رحمة أو شفقة ، وذلك ما اشتهر عنههم بالوأد ، وهو دفن البنت وهي حية ، دون ذنب جنته ، أو جرم اقترفته ، قال تعالى :

" واذا الموؤدة سئلت . بأي ذنب قتلت " (سورة التكوير : ٨ - ٩) .

---

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٥٣١ .
(٢) ابن كثير : هو أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ، ولد في قرية قرب بصرى الشام ، حافظ مؤرخ فقيه ، توفي بدمشق سنة ٧٧٤هـ أنظر : الاعلام ج ١ ص ٣٢٠ .
(٣) مجاهد : هو مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي التابعي مفسر من أهل مكة توفي سنة ١٠٤هـ أنظر : الأعلام الطبعه الرابعه ج ٦ ص ٢٠٠ .
(٤) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٧٠ .
(٥) البخاري : هو أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم البخاري حبر الاسلام ، الحافظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وامام أهل الحديث ولد في بخارى سنة ١٩٤ هـ نشأ يتيما ، ورحل في طلب العلم ، وقد أجمع العلماء على قبول صحيحه وصحة ما فيه توفي سنة ٢٥٦هـ . أنظر : البداية والنهاية لابن كثير الطبعه الأولى ج ١١ ص ٢٤ ، والأعلام الطبعه الرابعه ج ٦ ص ٣٤ .
(٦) أبو داود : هو سليمان بن الأشعث بن اسحاق بن بشير الأزدي السجستاني أصله من (سجستان) أمام أهل الحديث في زمانه ، رحل طويلا في طلب العلم توفي في البصرة سنة ٢٧٥هـ أنظر : البداية والنهاية ج ١١ ص ٥٤ والأعلام ج ٣ ص ١٢٢ .
(٧) رواه البخاري ج ٣ ص ٢٤٣ (كتاب النكاح . باب لا يتزوج أكثر من أربع) ورواه أبو داود في سننه الطبعه الثانيه ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م ج ٢ ص ٣٦٥ .

ولقد تنوعت عندهم طرق الوأد ، وتعددت أسبابه ، فكان فيهم من يئد البنت لمزيد الغيرة ، أو خشية العار ، وفيهم من يئدها بسبب عاهة فيها كالسواد والبرص ، أو خشية الفقر (١) . وقد بين القرآن الكريم جهلهم في هذا العمل ، وعظم جرمهم، قال تعالى :

" ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطئا كبيرا "

(سورة الاسراء : ٣١) .

وكانوا ينفذون جرمهم هذا بقسوة نادرة في بعض الأحيان ، فقد يتأخر وأد الموؤدة لسفر الوالد وشغله ، فلا يئدها الا وقد كبرت وصارت تعقل ، وقد حكوا في ذلك عن أنفسهم مبكيات ، وكان بعضهم يلقي الانثى من شاهق (٢) .

---

(١) أنظر : بلوغ الارب في أحوال العرب المؤلف محمد شكري الالوسي الطبعه الثانيه ج ٢ ص ٣٠ .

(٢) أنظر : ماذا خسر العالم للندوي الطبعه العاشرة ص ٦٩ .

٤ - الحروب والمنازعات :

سبق الحديث عن حياة القبيلة لدى العرب ، وما نتج عنها من عصبية هوجاء ، وتقاليد عمياء ، نتيجة لظروف البلاد الطبيعية ، وتكوين المجتمع العربى الذى كان أقرب ما يكون للمجتمع البدائى . وما اختص به ابن الصحراء من خصال ، وما تبع تلك الظروف من قسوة فى العيش ، وغلظة فى الطباع ، وفقدان السلطة المهيمنة ، والنظام الحاكم . حتى عمت الفوضى ، وانتشر فيهم السلب والنهب ، وهانت عليهم الحرب ، وسهلت عندهم اراقة الدماء ، وتفرق العرب لكل منهم وجهة هو موليها ، مما أفقدهم الثقة بعضهم ببعض ، وأصبح المرء لا يأمن على نفسه ، ولا يطمئن على عرضه وماله .

ووجد بينهم اناس جعلوا النهب والسلب حرفة ، لا يتورعون عن أى عمل فى سبيل تحقيق مطلبهم ، وان كانت وسيلتهم القتل والدمار ، حيث لا يمنعهم وازع من ضمير ، أو خلق من دين ، أو خوف من سلطان .

وكان فيهم من مهنته الاغارة على القوافل ونهبها وهم المسمون " الصعاليك " حتى ان منهم من تبرأت منه قبيلته ، وكانوا يسمون " الخلعاء "(١) .

وأصبح ليس من الصعب أن تقوم الحرب بين القبيلتين ، أو أبناء القبيلة الواحدة لأى سبب .

ولقد كان الصراع لا يهدأ بينهم ، كما كان يحصل كثيرا بين القرشيين من التنافس بسبب الرغبة فى السيطرة على البيت الحرام ، وما يتعلق به من بعض الخدمات التى كانوا يفاخرون بها : كرفادة الحاج ، وقرى الضيف ، والحجابة والسقاية . مثل الصراع الذى حصل بين أبناء قصي بن كلاب : بنى عبد الدار وبنى عبد مناف ووصل بهم الأمر الى الانقسام على أنفسهم - مع مرور الزمن - بسبب مطالبة بنى

---

(١) أنظر : فى تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور / سعد زغلول عبد الحميد طبعة ١٩٧٦م ص ٣١٩ .

عبد مناف بحقهم فى الحجابة والسقاية (١) . وما رأوه من أنهم أولى بذلك من بنى عبد الدار لشرفهم وفضلهم فى قومهم قال ابن اسحاق :

" فتفرقت عند ذلك قريش : فكانت طائفة مع بنى عبد مناف يرون أنهم أحق به لمكانتهم فى قومهم ، وكانت طائفة مع بنى عبد الدار يرون أن لا ينازع منهم ما كان قصي جعل اليهم فعقد كل قوم على أمرهم حلفا مؤكدا على أن لا يتخاذلوا ، ولا يسلم بعضهم بعضا ، وأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبا ، فوضعوها لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم ، فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم فسموا المطيبين " (٢)

وقد حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحلف عندما كان غلاما ، روى الامام أحمد (٣) - بسنده - عن عبد الرحمن بن عوف عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

" شهدت حلف المطيبين مع عمومتى وأنا غلام ، فما أحب أن لي حمر النعم وانى أنكثه " (٤)

وعمل بنو عبد الدار مثل ما عمل بنو عبد مناف حيث تعاهدوا على أن لا يتخاذلوا ، وأن ينصر بعضهم بعضا ، أخذا بحقهم ، قال ابن اسحاق : " وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة حلفا مؤكدا على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا فسموا الأحلاف " ثم سوند بين القبائل ، ولز بعضها ببعض ، فعبيت بنو عبد مناف لبنى سهم ، وعبيت بنو أسد لبنى عبد الدار .

ثم قالوا : لتفنَ كل قبيلة على من أسند اليها ، وبينما الناس على ذلك قد أجمعوا للحرب ،

---

(١) معانى الكلمات : الرفادة : خرجا تخرجه قريش فى موسم الحج لاطعام من له حاجة من الحجاج ، الحجابة : جعل مفاتيح الكعبة عندهم لا تدخل الا باذنهم ، قرى الضيف : اطعام الوافد وخدمته ، السقاية : اسقاء الماء للحجاج وتأمينه .
(٢) نص ابن هشام فى السيرة جـ ١ ص ١٤٢ .
(٣) أحمد بن حنبل : هو شيخ الاسلام أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيبانى البغدادى ينتهى نسبه الى ابراهيم الخليل عليهما السلام ، ولد ببغداد سنة ١٦٤ هـ ، كان محدثا فقيها بارعا ، كما اشتهر بالورع والزهد والتقشف ، امتحن وأوذى فى دينه ، توفى فى بغداد سنة ٢٤١ هـ أنظر البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٣٢٥
(٤) مسند الامام أحمد تحقيق وشرح الاستاذ / أحمد محمد شاكر طبعة دار المعارف المصريه سنة ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م جـ ٣ ص ١٢١ .

اذ تداعوا الى الصلح ، على أن يعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار كما كانت ، ففعلوا ورضى الطرفان بذلك ، وتحاجز الناس عن الحرب " (١)

الأخذ بالثأر :

اضافة الى ما عرفه العرب من الاغارة لطلب السلب والنهب ، وما يسببه ذلك من المنازعات والحروب ، كان هناك سبب أهم من هذا لاشعال الحرب بينهم وهو طلبهم الأخذ بالثأر ، وعدم السكوت على الضيم ، وان كان سبب تافها ، حتى أصبح الأخذ بالثأر عقيدة عندهم لا يتخلى عنه الا متخاذل ممتهن ، حيث كان ينتج عن ذلك الحروب والغارات ، خاصة ما كان منها جماعيا منظما - أيام العرب - والتى كان من أشهرها ، وأطولها زمنا ، وأكثرها خسارة ، حرب " البسوس " التى جرت بين بكر وتغلب ، بسبب قتل كليب زعيم تغلب ناقة رجل نزل ضيفا عند البسوس ، خالة جساس أخى زوجة كليب ، الذى قام بقتل كليب ، لقتله الناقة التى وردت ماء لابل كليب . ولقد طال أمد تلك الحرب لمدة أربعين سنة ، وبعد أن أنهكت قواهما ، وقتل عدد من سادتهما سعى الطرفان للصلح (٢) .

ومن أيام العرب المشهوره كذلك حرب " داحس والغبراء " وهما فرسان تراهن سيد ذبيان وسيد عبس على سباق لهما ، وقام حذيفة بن فزاره سيد ذبيان باعتراض (داحس) التى كان مقررا لها الفوز ، ومن هنا اندلعت الحرب ، واستمرت بين القبيلتين مدة طويلة لم تتوقف الا قرب مطلع الاسلام ، بعد ما سعى هرم بن سنان فى الصلح ، وبعد ما أن هلكت ذبيان وعبس ، وقتل رجالهما ، وهلكت ماشيتهما ، وفضلوا جميعا الموت على الحياة لهذه الأسباب التافهة (٣) .

---

(١) نص ابن هشام فى السيرة جـ ١ ص ١٤٣ .

(٢) أنظر : الكامل لابن الأثير الطبعه الثانيه جـ ١ ص ٥٢٣ وفى تاريخ العرب قبل الاسلام ص ٣١١ وما بعدها .

(٣) أنظر : سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٠٦ والكامل فى التاريخ لابن الأثير الطبعه الثانيه ١٣٨٧هـ جـ ١ ص ٥٦٦ .

وكان من أشهر أيام العرب أيضا " حرب الفجار " بين قيس وكنانة بسبب استحلال المتحاربين المحارم مما اعتبر فجورا ، واستمرت الحرب حتى أواخر القرن السادس (الميلادى) وحضر الرسول صلى الله عليه وسلم بعضها ، وهو شاب مع أعمامه ، والتى كان من نتائجها قيام قريش بعقد حلف الفضول المشهور (١) .

ويثرب كان نصيبها وافرا من تلك الحروب والمنازعات ، خاصة بعد أن وطئتها أقدام اليهود ، عند ما قدموا لجزيرة العرب - كما سبق - كالتى كانت بين الأوس والخزرج ، وكان آخرها يوم (بعاث) بين الفريقين (٢) .

وقد كان واقعهم هذا دافعا لهم لقبول الدعوه ، والدخول فى الاسلام ، بسبب ما لاقوه من الإحن والافتراق والمشاحنات ، تقول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها " كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد افترق ملؤهم ، وقتلت سراتهم وجرحوا ، قدّمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فى دخولهم فى الاسلام (٣) " مما كان من الاسباب الباهره لنجاح الدعوة الاسلاميه بعد ذلك . وهكذا كان البؤس والتعاسة والشقاء تخيم على بلاد العرب عامة ، ويثرب خاصة قبل أن يمتن الله عليهم بالاسلام ، وبهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومآخاته بين الأوس والخزرج بعد أن كان يهود يثرب يشعلون تلك الحروب بين أبناء البلد الواحد ، والقبيلة الواحدة ، وينشرون بينهم الفرقة والشحناء ، فجاء الاسلام بدعوته المباركة وألف بين قلوبهم ، حتى جعل منهم أمة واحدة ، يعبدون ربا واحد ، ويدينون دينا واحدا ، ويتبعون نبيا واحدا ، وصدق الله العظيم اذ يقول :

" وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألّفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم انه عزيز حكيم " (سورة الأنفال : ٦٣) بعد أن كانوا فى أمس الحاجة لهذه الدعوة ، بسبب ذلك الواقع المشين ، الذى انحدر اليه العرب دينيا واجتماعيا وسياسيا مما كان مهيأ لدعوة الاسلام بالنجاح والظفر .

---

(١) أنظر : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧٠ وسيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٤٤ .
(٢) أنظر : الكامل لابن الاثير جـ ١ ص ٥٨٨ ، ٦٧٦ ، ٦٧٨ .
(٣) رواه البخارى جـ ٢ ص ٢٢٠ (القسامة فى الجاهلية) .

الفصل الثاني

****

التمهيد الرباني للدعوة

فيه مباحث :

المبحث الأول : البشارات السابقة .

المبحث الثاني : حكمة اختيار مكة وقريش منطلقا للدعوة .

المبحث الثالث : حادث الفيل ارهاص للدعوة .

التمهيد الربانـــى :

سبق الحديث عن الاهاصات العامة التى تعتبر من أسباب نجاح الدعوة الاسلامية وهى : حاجة الخلق عجمهم وعربهم الى الدعوة الاسلامية . بعد ما أصيبوا بالخلل والاضطراب الدينى والاجتماعى والسياسى ، بسبب بعدهم عن طريق الحق والصواب . وبُعد الشقة بينهم وبـــين زمن النبوه والهداية ، واتباعهم كل ناعق من شياطين الانس والجن خاصة بعد ما أن أفلس مـــن كانوا أمل الانسانية من أهل الكتاب - من يهود ونصارى - وأصبح أولئك أشد زيغا وضـــلا لا من الوثنيين والمجوس .

فى أتون ذلك الواقع البشرى المظلم ، كان هناك اضافة الى ما تقدم - ارهاصات واضحة ، ودلالات كاشفة ، وبشارات الهية ، ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخروج دعوتـــــه ، وانتشارها فى أرجاء الكون .

والارهاصات التى نحن بصدد الحديث عنها هنا ، هى من نوع آخر ليست من النوع السابـــق الذى نعتبره واقعا تاريخيا بشريا .

ان هذه الارهاصات والدلالات الربانية تعتبر تمهيدا الهيا أجراه خالق الكون ومدبره لزيادة البيان ، والتأكيد على بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصدقه ، واقامة الحجة علـــى المعاندين ، المكابرين الجاحدين لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، مما كان له أعظـــم الأثر فى نجاح الدعوة الاسلامية ، ودخول الناس فى دين الله أفواجا . وتلك الارهاصـــات التى نحن بصدد الحديث عنها منها : ما كان بشارات سابقة ، واما أحكام ووقائع أجراهـــا المولى - عز وجل - فى سنن الكون نتحدث عنها فيما يلـــى :

المبحث الأول : البشارات السابقة للبعثة النبوية :

لقد أجرى الله سبحانه وتعالى عددا من " البشارات " (١) الدالة على بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصدق نبوته ، منها ما كان قبل مولده من الأخبار ، والنقل المتواترة عن صفته ، واسمه ودينه ومبعثه ومهاجرة ، أو ما أجراه الله تعالى فى سنن الكون من الحوادث والوقائع السابقة ، أو المرافقة لمولده صلى الله عليه وسلم ، أو ما كان بعد مولده وقبيل مبعثه .

ولقد قام علماء المسلمين قديما وحديثا بدراسة تلك البشارات وبيانها للناس ، وذلك ناتج عن اهتمامهم ، بدراسة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشمائله وسنته المطهرة ، وتعبدهم فى ذلك ، لأنه القدوة الحسنة للمسلمين ؛ قال تعالى :

" لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا " (سورة الأحزاب : ٢١) .

ونحن فى هذه العجالة سوف نتطرق الى بعض الحوادث المشهورة فى هذا الباب ، دون التعرض للاختلاف الحاصل بين العلماء فى بعض تلك البشارات ، وعدم مناقشة دليل أى فريهمق لأنه ليس هذا مجال البحث فى هذا الاختلاف . وانما الذى يجب أن ننبه اليه ، أنه مهما وجد بينهم من اختلاف أو اجتهاد عند دراسة بشائر الرسالة المحمدية ، فالعلماء لم يختلفوا فى آثار تلك البشارات التى سبقت الدعوة وهذا الذى يعنينا هنا .

وهذه البشارات منها :

أ ـ تبشير أهل الكتاب وكهان العرب وغيرهم بمبعثه :

لقد بشر الأنبياء السابقون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمر الله

---

(١) بشارات : جمع بشارة وهى الاخبار بما يسر ، مما ينتج عنه بسط بشرة الوجه ، وذلك ان النفس اذا سرت انتشر الدم فيها انتشار الماء فى الشجر ، وقد جاءت فى القرآن فى معان كثيرة . أنظر : مفردات الراغب ص ٤٧ .

من أدركه منهم باتباعه ، وأن يأمر قومه باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم قال القاضي عياض(١) :

" استخص الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم بفضل لم يؤته غيره أبانه به بحيث أخذ الله الميثاق بالوحي ، فلم يبعث نبيا الا ذكر له محمدا ونعته ، وأخذ عليه ميثاقه ان أدركه ليؤمن به ، وقيل " أن يبينوه لمن بعدهم "(٢) .

كما أن القرآن الكريم يؤيد هذا الكلام ، كما قال تعالى عن عيسى عليه السلام ، " ومبشرا برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين " (سورة الصف : ٦) .

وقال على بن أبي طالب رضي الله عنه :

" لم يبعث الله نبيا من آدم فمن بعده الا أخذ عليه العهد في محمد صلى الله عليه وسلم لئن يبعث وهو حى ليؤمن به ولينصرنه ، وليأخذن العهد بذلك على قومه " (٣)

كما أخبر أحبار اليهود ، ورهبان النصارى ، وكهان العرب وغيرهم بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقرب زمانه ، قال ابن اسحاق :

" وكانت الأحبار من يهود والرهبان من النصارى والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ، لما تقارب من زمانه : أما الأحبار من يهود ، والرهبان من النصارى فمما وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم اليهم فيه ، وأما الكهان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن فيما يسترقون من السمع " (٤)

---

(١) القاضي عياض : هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي ، ولد بسبتة سنة ٤٤٦هـ كان عالم المغرب وامام أهل الحديث في وقته ، كما أنه من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم ، توفى بمراكش مسموما سنة ٥٤٤ هـ انظر : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٢٥ .

(٢) نص القاضي عياض (كتاب الشفا جـ ١ ص ٤٣) .

(٣) كتاب الشفا جـ ١ ص ٤٣ .

(٤) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٢١ .

وكان يستفتح به اليهود على العرب من قولهم : " أنه تقارب زمان نبى يبعث معكم نقتلكم معه قتل عاد وارم " فلما بعث الله رسوله أجابه العرب فيما دعى اليه وكذب به اليهود (١) .

قال تعالى :

" ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين " (سورة البقرة : ٨٩) .

ووردت صفة الرسول صلى الله عليه وسلم فى الانجيل وأخبر عنه الرهبان من النصارى كصاحب عمورية المذكور فى قصة اسلام سلمان الفارسى المشهورة عندما كان يبحث عن الحقيقة قبل اسلامه رضى الله عنه (٢) .

بل كان ذلك شائعا فى غير أهل الكتاب من اليهود والنصارى فقد روى أنه ورد ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم بلفظه العربى " أحمد " فى كتب البراهمة (٣) .

ب ـ ما رافق مولده من البشارات :

لقد رافق مولده المبارك عدة وقائع وبشارات عظيمة ، تتناسب مع مكانته وعظيم قدره ، وما أجراه الله تعالى على يديه الكريمتين من خير وفلاح للانسانية كلها .

كان منها ما رأته أمه من خروج نور من بطنها أشرقت له الآفاق ، روى الامام أحمد عن أبى أمامة قال : قلت يارسول الله ما كان أول بدء أمرك قال : " دعوة أبى ابراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمى أنه يخرج منها نور أضاءت منها قصور الشام " (٤) .

قال ابن كثير فى معنى الحديث :

" والمراد أن أول من نوه بذكره وشهره فى الناس ابراهيم عليه السلام ، ولم يزل فى

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٣١ .
(٢) أنظر : الاصابة جـ ٣ ص ١١٣ وسيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٣٣ .
(٣) أنظر : مطلع النور ص ١٤ . (٤) رواه الامام أحمد فى المسند جـ ٥ ص ٢٦٢ .

الناس مذكورا مشهورا سائرا ، حتى أفصح عن اسمه عيسى عليه السلام ، حيث قام خطيبا فى بنى اسرائيل وقال : "انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد" (١) .

وسقوطه من بطن أمه عند الولادة جاثيا على ركبتيه رافعا رأسه (٢) ، وفى رواية عندما سقط سجد على وجهه ، وكلما عدلوه رجع الى ما كان ، فقال جده عبد المطلب : "ان لابنى هذا شأنا" (٣)

وكان مما حدث كذلك خرور كثير من الأصنام عند حمله وليلة ولد على وجوهها ، وسقوطها عن أماكنها ، اضافة الى ما كان من ارتجاج ايوان كسرى ، وسقوط أربع عشرة شرفه منه ، وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام (٤) .

وكان مما حدث أيضا حجب الشياطين عن استراق السمع ، ورميهم بالشهب حتى عرف الجن أن ذلك لأمر أحدثه الله فى العباد (٥) . روى الامام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنه قال : "كان الجن يسمعون الوحى ، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشرا ، فيكون ما سمعوه حقا وما زادوه باطلا ، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك ، فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم كان أحدهم لا يأتى مقعده الا رمى بشهاب يحرق ما أصاب ، فشكوا ذلك الى ابليس ، فقال : ما هذا الآن من أمر قد حدث ، فبث جنوده فاذا هم بالنبى صلى الله عليه وسلم يصلى بين جبلي نخله ، فأتوه فأخبروه فقال : هذا الحدث الذى حدث فى الأرض (٦) "

هذا ما جاء عن هذه البشارات فى روايات كثيرة في مؤلفات علماء معروفين بالبحث والتمحيص كابن اسحاق والسيوطى وغيرهما ، ولعل هذا من قبيل الخوارق كما قلنا والعقل لا يمنع هذا ، وان كانت أسانيد بعض هذه الروايات فيها مقال .

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ١ ص ١٨٤ . (٢) السيرة الحلبية جـ ١ ص ٨٩ .
(٣) أنظر : الخصائص الكبرى للسيوطى مطبوعات دار الكتب الحديثه بالقاهرة ١٣٨٦ هـ جـ ١ ص ١١٤
(٤) أنظر : الخصائص الكبرى جـ ١ ص ١٢٨ وما بعدها والبداية والنهاية جـ ١ ص ٢٦٩ .
(٥) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٢٢ . (٦) رواه أحمد فى المسند جـ ٢ ص ١٦٠ .

جـ - ما أكرمه الله به بعد مولده قبل البعثة :

لقد أكرم الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ، قبل البعثة ببعض الحوادث والبشارات الدالة على مكانته ، وعظيم أمره ، وهي مقدمات ترتبط بما تلاها من وقائع ، وهذه البشارات لا تقل أهمية عما سبقها من خوارق وبشارات أجراها المولى لبيان ما يتبعها من أحداث غيرت مجرى التاريخ ، ووفق الله لها من شاء من عباده للاستنارة بها ، واتباع الحق ، وضل بها من شاء الله له الغواية والضلال ، وكانت من أسباب نجاح الدعوه ، وعوامل انتشارها ومن تلك البشارات في هذا الموضع :

١ - بركة آل حليمة :

لقد كانت عادت العرب التماس المراضع لمواليدهم من البوادى ليكون أنجب للولد ، حيث كانوا يقولون : " ان المربى فى المدن يكون كليل الذهن ، فاتر العزيمة "(١) ولما حضر نسوة من بنى سعد بن بكر يطلبن أطفالا يرضعنهم ، كان الرضيع اليتيم من نصيب حليمة السعدية وزوجها أبى كبشة ، بعد أن أعياهما التعب فى البحث عن وليد يكون غنيا ، وقالت لزوجها : " والله لأذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه " قال الزوج : " لا عليك أن تفعلى عسى أن يجعل لنا فيه بركة " (٢) .

فأخذت اليتيم وما أن بدأت ارضاعه حتى درّ لبنها وروى هو وابنها الآخر الذى كان لا يجد فى أمه ما يرضعه وحده ، حيث كانت السنوات عجافا من قبله ، فامتن الله عليهم بخير مضاعف ، ونزلت بهم البركة ، وكثر الخير ، مما زاد تعلقهم بالطفل بسبب ذلك ، واعزازهم له ، ومكث فى مضارب بنى سعد سنين ، نما فيها وشب وترعرع (٣) .

---

(١) نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين ص ١١ . (٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٧٤ .
(٣) أنظر : الخصائص الكبرى جـ ١ ص ١٤٣ والبداية والنهاية جـ ١ ص ٢٧٣ .

ثم حدث له حدث هام وهو (شق الصدر) واخراج حظ الشيطان منه ، روى مسلم فى الصحيح "عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب ، فاستخرج منه علقة ، فقال : هذا حظ الشيطان منك ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه (١) ثم أعاده الى مكانه ، وجاء الغلمان يسعون الى أمه (يعنى المرضعة) فقالوا : ان محمدا قتل ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون ، قال أنس : كنت أرى أثر ذلك الخيط فى صدره" (٢)

وهذه الحادثة أفزعت حليمة وزوجها مما حداهما الى اعادته الى أمه .

وحادثة الشق لصدره صلى الله عليه وسلم هذه غير شق صدره بعد البعثة ليلة أسرى به الى بيت المقدس ، وعرج به الى السماء الواردة فى الصحيحين (٣) .

٢ - ومن المكرمات الالهية له صلى الله عليه وسلم تسخير الغمام له فى سفره الى الشام ، حتى كانت تظله فى اليوم الصائف ، لا يشترك معه أحد من القافلة ، كما حكى ذلك الغلام ميسرة لسيدته خديجة ، مما حببه لها ، وخطبته لنفسها ، وتيقنت أن سيكون له شأن (٤) .

٣ - وكان مما امتن الله به على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ما كان يسمعه من السلام عليه من الاشجار والأحجار ، فقد روى مسلم . عن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " انى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث انى لأعرفه الآن" (٥)

---

(١) لأمه : أى أعاده بأن ضم بعضه الى بعض .
(٢) رواه مسلم جـ ١ ص ١٤٧ (كتاب الايمان ، باب الاسراء) .
(٣) صحيح البخارى جـ ١ ص ٣٢٧ (باب المعراج) وصحيح مسلم جـ ١ ص ١٤٧ ، (كتاب الايمان-باب الاسراء) ونور اليقين للخضرى ص ٢٢ .
(٤) أنظر : شرح المواهب اللدنية للزرقانى الطبعه الأولى جـ ١ ص ٢٤٠ .
(٥) رواه مسلم فى الصحيح جـ ٤ ص ١٧٨٢ (كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبى صلى الله عليه وسلم وتسليم الحجر عليه قبل النبوة) .

٤ - وهذا اضافة الى ما اشتهر به صلى الله عليه وسلم بين قومه منذ نعومة أظفاره ؛ من حسن الخلق ، وصدق الحديث ، وعظم الأمانة ، والبعد عن الفحش ، وهجر ما كان متفشيا فى قومه ؛ من عبادة الأصنام ، وشرب الخمور ، وتعاطى القمار ، وشيوع الزنا وغيرها من الموبقات مما يجل حصره فى هذه العجالة ، وكل تلك الحوادث والبشارات كان لها عظيم الأثر ، حيث لفتت الأنظار الى شخص الرسول ، وأن له شأن كبير ، مما كان من أسباب نجاح الدعوة ، وقبولها لدى الناس بعد بعثه .

المبحث الثاني : حكمة اختيار مكة وقريش منطلقا للدعوة .

جعل الله مكة المكرمة منطلقا للدعوة الاسلامية ، واختار قريشا ومنها الرسول صلى الله عليه وسلم لتحمل أعباء الدعوة في مهدها ، وكان في هذا حكمة الهية ، وعناية ربانية ، يعجز المرء مهما أوتي من قوة البيان عن حصرها . وتلك الحكم كانت أشد ما تكون صلة بنجاح الدعوة الاسلامية ، بعد أن اصطفى الله تعالى أفضل خلقه لتحمل أعباء الدعوة ، ومسئوليات الرسالة ، وأمانة الوحي المنزل من رب العالمين ، روى مسلم - بسنده - عن واثله بن الأصقع قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم " (١) .

اضافة الى ما كان للبلد الحرام من ميزات اجلال ، وعظمة تقديس منذ القدم كانت تلك السمات والخصوصيات كافية لتكون ارهاصات لانطلاق الدعوة من تلك البلاد، وأولئك العباد ، وأن تكون من أسباب نجاح الدعوة كما سيأتي .

وعلى كل الأحوال فالمرء لا يسعه أمام تلك الحكم الباهرة الا أن يردد قول الله تعالى :

" الله أعلم حيث يجعل رسالته " (سورة الأنعام : ١٢٤) .

فهو سبحانه أعلم بأصلح مكان لها ، وأصلح رجل يحملها ، وأصلح زمان لنجاحها على ما نبينه فيما يلي :

أ - حكمة انبثاق الدعوة من مكة :

لقد خص الله تعالى مكة المكرمة بمكانة عالية ، لم تصلها أي بقعة من بقاع

---

(١) رواه مسلم جـ ٤ ص ١٧٨٣ (كتاب الفضائل - باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم) .

الأرض . بأن حرمها الله ، وقدسها منذ القدم ، فحرمة مكة وقداستها ضاربة فى أعماق التاريخ ، حيث حرمها الله تعالى يوم خلق السموات والأرض ؛ روى البخارى فى الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنه قال : ان النبى صلى الله عليه وسلم قال :

" ان هذا بلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض ، وهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة ، وانه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى ، ولم يحل لى الا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة . . . " (١)

فلم يكن تحريمها بهوى الخلق ، أو رغبة البشر ، كما لم يكن تحريمها بدعا أو حدثا طارئا ؛ فقد روى البخارى فى رواية أخرى : " ان مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما أو يعضد بها شجرة . . . " (٢)

وبقيت لمكة المكرمة تلك الحرمة والقداسة عند جميع الخلق ، حتى أمر الله تعالى خليله ابراهيم عليه السلام بالتوجه الى مكة ، وبناء البيت بعد اسكان ذريته فيه ، فزادت حرمتها ، وعلت مكانتها ، وعظمت قدسيتها ، وبعد أن هدى الله خليله ابراهيم عليه السلام الى مكان البيت ، وأمره وابنه اسماعيل عليهما السلام ببنائه قال تعالى :

" واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود " (سورة الحج : ٢٦) .

فابتدأ الخليل وابنه عليهما السلام البناء ، ورفع القواعد من البيت ؛ قال تعالى :

" واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم " (سورة البقرة : ١٢٧) .

---

(١) رواه البخارى جـ ١ ص ٣١٥ (كتاب الحج - باب لا يحل القتال بمكة) .
(٢) رواه البخارى فى الموضع السابق .

واكتمل البناء بعون الله وفضله ، وهما يرددان "ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم" (سورة البقرة : ١٢٧ - ١٢٩) .

فكان من سعادة الانسانية كلها ، وانعام الله تعالى عليها ، أن يستجيب الرب دعاءهما ، ويبعث نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بالدعوة الحنيفية ، فيكتمل العقد باتصال حلقاته ، من قداسة مكة ، الى بناء البيت على يدى أبى الأنبياء ، الى بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم الذى استقرت واكتملت به ، وبدعوته أسباب الهداية للبشرية .

وكانت تلك المكانة العالية ، والقداسة العظيمة لمكة المكرمة ، ولبيت الله الحرام فى نفوس العرب ، تجرى فيهم مجرى الدم ، لاعتقادهم أنهم أبناء اسماعيل ، وورثة ابراهيم عليهما السلام . ولم تتغير تلك المنزلة فى نفوسهم بالرغم مما أعترى حياتهم من شرك ، لبعدهم عن زمن النبوة ، وتعدد معبوداتهم ، فقد بقيت العرب تعرف فضل الكعبة ، ومكانة مكة المكرمة لأنها عرفت أن فيها بيت الله تعالى ، ومسجد خليله ابراهيم عليه السلام (١) .

واضافة الى هذا فان لمكة المكرمة من الميزات ، والخصائص الكثير ، مما تنفرد به عما سواها من البلاد ، مما زاد فى قدسيتها وتعظيمها .

ففيها أول بيت وضع لعبادة الله تعالى وحده ، قال تعالى :

" ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا " (سورة آل عمران : ٩٦ ، ٩٧) .

---

(١) أنظر : سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٧٢ .

فكانت مهوى الأفئدة ، ومتعلق الأنظار ، وموضع الحج والنسك . وكانت المأمن لكل خائف ، وهذه السمة اكتسبها من حرمتها القديمة ، قال تعالى ممتنا على المشركين ، ومبينا فضله عليهم : "أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم" (سورة العنكبوت : ٦٧) حتى ان هذا الأمن فى البلد الحرام ليس للانسان وحده ، بل تعداه الى الحيوان والطير والشجر ، حيث حرم الله اصطياد صيدها وتنفيره ، وحرم قطع شجرها ، كما فى الحديث الصحيح الذى رواه الشيخان عن أبى هريرة (١) .

وقدم قداسة مكة وحرمتها ، الواردة فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

"ان هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض" لا يعارض قول الخليل عليه السلام :

"رب اجعل هذا بلدا آمنا وأرزق أهله من الثمرات" (سورة البقرة : ١٢٦) لأن الحديث اخبار عما سبق من تقدير الله ، ومعنى الآية أن ابراهيم أعلم الناس بذلك (٢) .

وقال ابن كثير :

"ان قوله تعالى فى سورة البقرة : "رب اجعل هذا بلدا آمنا" أى اجعل هذه البقعة بلدا آمنا ، وناسب هذا لأنه قبل بناء الكعبة ، أما قوله تعالى فى سورة ابراهيم :

"واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا" ناسب هذا هناك لأنه - والله أعلم - كأنه وقع دعاء مرة ثانية بعد بناء البيت واستقرار أهله به" (٣) .

كما أن الأحاديث الدالة على حرمة مكة قبل ابراهيم لا تعارض الأحاديث التى بعضها فى الصحيحين الواردة فى تحريم رسول الله صلى الله عليه وسلم للمدينة ، كما حرم ابراهيم مكة لأن ابراهيم عليه السلام بلغ عن الله حكمه فيها ، وتحريمه لها

---

(١) رواه البخارى جـ ١ ص ٣٢ (كتاب العلم - باب كتابة العلم) ورواه مسلم جـ ٢ ص ٩٨٦ (كتاب الحج - باب تحريم مكة) .

(٢) أنظر فتح البارى لابن حجر العسقلاني الطبعه الأولى جـ ٣ ص ٣٤٩ .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٧٤ .

قال ابن كثير :

" فلا منافاة بين الأحاديث الدالة على أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض وبين الأحاديث الدالة على أن ابراهيم حرمها لأن ابراهيم بلغ عن الله حكمه فيها وتحريمه اياها ، وأنها لم تزل بلدا حراما عند الله قبل بناء ابراهيم عليه السلام لها - للكعبة - كما أنه قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مكتوبا عند الله خاتم النبيين وأن آدم لمنجدل من طينته ، ومع هذا قال ابراهيم عليه السلام :

" ربنا وابعث فيهم رسولا منهم " الآية وقد أجاب الله دعاءه بما سبق فى علمه وقدره (١)"

وكان من ميزات مكة أنها لا تقر فيها ظلما ولا بغيا منذ القدم ، ولا يبغى فيها أحد الا أخرجته فكانت تسمى " الناسة " ولا يردها ملك يستحل حرمتها الا هلك مكانه ، وما سميت ببكة الا أنها كانت " تبك " (٢) أعناق الجبابرة اذا أحدثوا فيها شيئا كما حصل لأساف ونائلة عندما بغيا فى الحرم فمسخهما الله حجرين - كما سبق - وما حصل لجرهم من الاجلاء من مكة بعد أن بغوا فيها ، واستحلوا حلالا من الحرمة ، وظلموا من دخلها من غير أهلها ، ففرق الله أمرهم ، وما أجراه الله على أبرهة وقومه ، من الهلاك عندما حاول هدم الكعبة (كما سيأتى ان شاء الله) .

ومما يدل على قداستها وعلو مكانتها لدى المؤمنين بالله على تعاقب العصور والدهور كثرة أسمائها التى من جملتها أم القرى وبكة ومكة والبلد الحرام والبلد الآمن وغيرها مما وردت فى القرآن الكريم (٣) .

وعلاوة على ما تقدم فان موقع مكة الجغرافى بتوسطها ووقوعها فى منتصف طريق القوافل بين اليمن والشام ، وما انفردت به من بقائها مستقلة بسلطانها - خاصة منذ تولى قصى ابن كلاب حكم مكة ، وعمارته لها - على قول بعض المؤرخين (٤) - وما كانت تعمر به أسواقها

---

(١) تفسير ابن كثير الطبعه الثانيه جـ ١ ص ١٧٤ . (٢) تبك : من بك مصدر بمعنى الدق دق عنقه .
(٣) أنظر : معجم البلدان لياقوت الحموى جـ ٥ ص ١٨٢ .
(٤) أنظر : كتاب اعلام النبوه للماوردى الطبعه الثانيه ١٤٠١ - ١٩٨١م ص ١٧٢ .

من تجارة ، امتن الله بها عليهم ، فى رحلتى الشتاء والصيف ، وما وهبه الله لسكانها ، من غنى بعد فقر ، وأمن بعد خوف ، وخلوها من السلطان أو الحكومة القوية الموحدة التى تقف فى وجه الدعوة الناشئة ، وبقاء مكة حرة من أى تبعية لسلطان خارجى ، وفشل (الامبراطوريات) القوية المجاورة فى السيطرة على أولئك الأعراب ، بواسطة هذا البيت ، الذى تعظمــــه ، وللأسباب السالفة كان لمكة مكانة عظيمة عند العرب ومن هذا البلد الذى يأتيه العرب من كــل مكان كان انطلاق الدعوة لتبلغ الآفاق عن طريق الحجيج ، والعمار ، والزوار ، وليستطيع كـل انسان أن يسمع هذا الداعية مباشرة أو بالواسطة ، وهل كان اسلام النفر من الأنصار الا عــن طريق الحج ؟ وهل كانت بيعة العقبة الا فى موسم الحج ؟ ولو اختير بلد غير ذلك لما أمكن أن تنجح الدعوة ذلك النجاح المنقطع النظير ، وقد أشار القرآن الكريم الى تلك الحكم ودورها فى نجاح الدعوة فى مواضع شتى كقوله تعالـى :

" اذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربــك واستغفره إنه كان توابا " (سورة النصر) وهكذا تدرك طرفا من حكمة الله فى اختيار هــذه البقعة المباركة من الأرض ، لانطلاق الدعوة الاسلامية من هذا البلد المقدس ، الذى يحجه العرب ويقدسونه ، وما منحته للانسانية كلها من دعوة خير وبركة بعد ذلك ، وكيف كانت تلـك الانطلاق من مكة المكرمة من عوامل نجاح الدعوة الاسلامية .

ب ـ حكمة انطلاق الدعوة من قريش :

اذا كانت لمكة تلك المكانة والقدسية لدى العرب منذ القدم ، التى لم يزدها مرور الدهــر الا عظمة ، وعلو مكانه لدى العرب قاطبة ، على اختلاف نحلهم ومللهم ، فلابد أن يكـــون لذلك أثره فى سكان مكة ، ومجاورى بيته العتيق ، مما جعل قريشا يخالفون غيرهم من العــرب ، وينفردون بكثير من الميزات ، حتى دانت لهم العرب بالرئاسة ، وتولى سدانه البيت ، وخدمـة قاصديه من الحجاج والعمار .

عند ما استقرت فيهم وظائف البيت التى تعارف عليها العرب ، كالحجابة والسقاية والرفادة ، ولم يتطلع اليها أحد من العرب أو ينافسهم اياها ، بل رقوا بسببها الى مكانة عالية فى نفوس أبناء تلك البوادى .

بعد أن عرفت قريش قدرها ، وقاموا بأمانتها خير قيام ، حيث لم يقم بها أحد كما قام بها أجداد النبى صلى الله عليه وسلم خاصة بنى هاشم ، الذين عرفوا سمتها ، وحفظوا حقها ، حتى صارت فيهم فطرة طبعوا عليها من غير كلفة ، واذا كان الأمر بهذه الحال فلم يكن مستغربا أن يكون لقريش ذلك الفضل الكبير على من سواهم من بقية القبائل (١) .

وهذا الفضل الكبير ، والمكانة العالية كان امتدادا لما لقريش من رفعة فى النسب لكونهم سلالة اسماعيل وابراهيم عليهما السلام ، ولتوسط نسبهم بين قبائل العرب ، ولما كان يربطهم من علاقات قربى ومصاهرة لأكثر قبائل العرب وأرفعها فى النسب .

ومما زاد فى فضلهم أيضا كونهم حلفاء متحالفين متألفين ، متمسكين بكثير من شريعة ابراهيم الخليل ولم يكونوا كالأعراب الذين لا يوقرهم دين ، ولا يزينهم أدب كما كانوا مستمسكين ببعض شعائر الحج مقيمين لبعض نسكه ، وغيرها من الشعائر ، وما تعارفوا عليه من عادات وفضائل انفردوا بها عمن سواهم (٢) . ودان بها العرب لقريش كما كان من أمر الحُمْس - كما تقدم (٣) - وما جعلته العرب لقريش من أشهر حرم لا ينكرونهم ، ولا يدفعونهم يسيرون الى أى بلاد العرب شاءوا لا يخافون منهم

---

(١) أنظر : كتاب أعلام النبوه للماوردى ص ١٧٢ ومطلع النور ص ١٤٤ .
(٢) أنظر : بلوغ الارب فى أحوال العرب جـ ١ ص ٢٤٣ .
(٣) أنظر : ص ٨١ من هذه الرسالة .

العرب ، ونقف عند عبد المطلب بن هاشم جد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسيد قريش غير منازع ، الذى بلغت شهرته الآفاق حيث كان رجلا متدينا صادق اللهجة ، ملتزما بمحارم دين قومه فى الجاهلية وكان أول من حلى الكعبة الذهب من ماله ، وقام بتجديد حفر زمزم ، عندما اشتدت حاجة مكة للماء ، فى تاريخ يطول سرده ، وكان فى قمة فضائله ومآثره ما وهبه من عطفه وحنانه لابنه محمد بن عبد الله عندما كان يخصه من بين أبنائه بالجلوس على ردائه تحت الكعبة .

ولا أدل على مكانة تلك الأسرة من وقوفهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحمايته وان كان بخلاف دينهم ، لقد كان أولئك وخاصة بنى عبد المطلب جميعا فى نصرة النبى صلى الله عليه وسلم من آمن به منهم ، ومن لم يؤمن ما عدى أبا لهب وبنيه ، بل لقد كان اسلام بعضهم من باب الحمية ، والدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أصابه من أذى المشركين كما كان من قصة اسلام حمزة رضى الله عنه (١) .

وكل هذا اضافة الى ما منحهم تعالى من خصال يحمدون عليها كالشجاعة والمروءة ، وفصاحة اللسان ، حتى احتوت لغتهم على محاسن لغات العرب ، وحازت عليها قصب السبق ، وكان تتويج فضلهم فى ذلك نزول القرآن الكريم بلغتهم ، روى البخارى عن أنس رضى الله عنه أن عثمان بن عفان رضى الله عنه عندما كلف الثلاثة الرهط من القرشيين بنسخ القرآن فى المصاحف قال بهم : " اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فكتبوه بلسان قريش فانما نزل بلسانهم ففعلوا ذلك " (٢) .

وهكذا يتجلى للباحث كيف كانت مكانة تلك القبيلة ، وكيف كانت تلك المكانة والفضل لهم على سواهم ، كافية لخروج الرسول صلى الله عليه وسلم منهم ، مما كان ارهاصا وعلما من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم ، والعرب كانت تعرف لقريش ذلك

---

(١) أنظر : سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٣١٢ .
(٢) رواه البخارى جـ ٢ ص ٢٦٦ (كتاب بدء الخلق - باب نزل القرآن بلسان قريش) .

الفضل ، مما كان له أعظم الأثر فى نفوسهم ، فانه ما كادت تسلم قريش حتى تسابق العرب للاسلام ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

وعند ما ننظر فى أسلوب الرسول صلى الله عليه وسلم فى الدعوة ،نجده لم يهمل هذا الجانب لما له من أثر فى نجاح الدعوة الاسلامية ، حيث كان حريصا على اسلام قريش واشرافهـا ، وسأكتفى بايراد نموذج واحد فى هذا الموضع ، وهو صلح الحديبية المشهور فى السنة السادسة من الهجرة بين الرسول صلى الله عليه وسلم ومشركى مكة ، الذى عده القرآن الكريم فتحا مبينا ، قال تعالى :

" انا فتحنا لك فتحا مبينا " (سورة الفتح : ١) .

ولم يكن فتحا مبينا الا لما ترتب عليه من نتائج باهرة ، وما أظهره هذا الصلح من الدلالة على نبوته ، وبعد نظره ، ولو لم يكن لقريش ذلك الدور فى الدعوة الاسلامية وعوامل نجاحها ، لما كان هذا الصلح فتحا مبينا فقد ورد عن أمير المؤمنين أبى بكر الصديق رضى الله عنه قوله : " ما كان فتح فى الاسلام أعظم من فتح الحديبية ، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد صلى الله عليه وسلم وربه ، والعباد يعجلون والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد [1] " يعنى بذلك رضى الله عنه ما كان من اعتراض بعض الصحابة على الصلح وبعض نصوصه .

وقال الزهرى ـ رحمه الله ـ : " فما فتح فى الاسلام فتح قبله كان أعظم منه ، انما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب أوزارها ، وأمن الناس كلهم بعضهم بعضا ، فالتقوا وتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، فلم يكلم أحد بالاسلام يعقل شيئا الا دخل فيه ، فلقد دخل فى تينك السنتين مثل ما كان فى الاسلام قبل ذلك وأكثر [2] .

---

(١) السيرة الحلبية : علي برهان الدين الحلبى ، طبعة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م بيروت جـ ٢ ص ٢٦٦ .

(٢) تاريخ الطبرى جـ ١ ص ٨١ .

ويجلى العلامة النووى (١) ـ رحمه الله ـ قيمة هذا الصلح وأثره فى الدعوة ، ويبين أثر اسلام قريش فى نجاح الدعوة ، بعد أن كان هذا الصلح من أسباب كف آذاهم عن الدعوة ، ومن ثم اسلامهم ، واسلام غيرهم بعد ذلك ودخول الناس فى دين الله أفواجا ، يقول النووى :

" والمصلحة المترتبة على اتمام الصلح ما ظهر من ثمراته الباهرة ، وفوائده المتظاهره التى كان عاقبتها فتح مكة ، واسلام أهلها ، ودخول الناس فى دين الله أفواجا ، وذلك أنهم قبل الصلح لم يكونوا يختلطون بالمسلمين ، ولا تتظاهر عندهم أمور النبى صلى الله عليه وسلم كما هى ، ولا يحلون ـ أى يجتمعون ـ بمن يعلمهم بها مفصلة ، فلما حصل صلح الحديبية اختلطوا بالمسلمين ، وجاءوا الى المدينة ، وذهب المسلمون الى مكة ، وحلوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يستنصحونه ، وسمعوا منهم أحوال النبى صلى الله عليه وسلم ، مفصلة بجزئياتها ومعجزاته الظاهرة ، وحسن سيرته ، وجميل طريقته ، وعاينوا بأنفسهم كثيرا من ذلك ، فما زالت نفوسهم الى الايمان حتى بادر خلق منهم الى الاسلام ، قبل فتح مكة فأسلموا بين صلح الحديبية وفتح مكة وازداد الآخرون ميلا الى الاسلام ، فلما كان يوم الفتح أسلموا كلهم ، لما كان قد تمهد لهم من الميل . وكانت العرب من غير قريش فى البوادى ينتظرون باسلامهم اسلام قريش فلما أسلمت قريش أسلمت العرب فى البوادى "(٢) ا . هـ

قال تعالى فى بيان ذلك :

" اذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا " (سورة النصر) .

وهكذا يتضح كيف كان لاختيار الرسول صلى الله عليه وسلم من هذه القبيلة أبلغ الأثر فى نفوس العرب ، فانها ما كادت تسلم حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا ، وكيف كان هذا عاملا من عوامل نجاح الدعوة بعد أن اختار الله عز اسمه ـ خير البلاد ، وخير العباد لنشرها فضلا منه وكرما .

---

(١) النووى : هو أبو زكريا محى الدين يحى شرف بن مروى الحورانى النووى الشافعى ولد ب (نوا) من قرى حوران الشام وفيها توفى سنة ٦٧٦هـ كان علامة فى الفقه والحديث انظر : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧٨ والاعلام جـ ٨ ص ١٤٩

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٢ ص ١٤٠ .

المبحث الثالث : حادثة الفيل ارهاص للدعوة :

استجاب الله تعالى دعوة خليله ابراهيم عقب بناء البيت ، بأن جعله آمنا تهوى اليه الأفئدة ، ويأوى اليه كل خائف ، حتى حين انحرف العرب عن دين ابراهيم عليه السلام وعبدوا الأصنام ، فلم يهم أحد بالبغى فيه الا أهلكه الله قال تعالى :

" ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم " (سورة الحج : ٢٥) .

فكان من جملة ما حفظ الله البيت منه أصحاب الفيل ، فى حادثة أصحاب الفيل المستفيضة الشهرة لدى العرب قبل البعثه ، والتى كان من ضخامة الحادث وأهميته ، أن أخذ العرب يؤرخون به لأنفسهم .

وقبل التعرض لبيان أثر حادث الفيل فى نجاح الدعوة الاسلامية فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أرى أنه من المفيد تلخيص الروايات الواردة فى حادث الفيل : (كان الحاكم الحبشى لليمن " ابرهة " بنى كنيسة فى اليمن باسم ملك الحبشة لها من أسباب الفخامة الشىء الكثير ، لما رآه من تعلق العرب بالحرم المكى وحجهم اليه ، فقصد صرف العرب عن البيت الحرام ، ولكن العرب لم ينصرفوا عن بيتهم المقدس ، لأنه موضع عزهم وفخرهم ، ومتعلق أفئدتهم ، فكتب أبرهة للنجاشى يخبره ببناء تلك الكنيسة المسماه " القليس " وأنه ليس منتهيا حتى يصرف اليها حج العرب ، فلما تحدث العرب بكتاب أبرهة غضب رجل منهم فخرج حتى أتى القليس فأحدث فيها ، فأخبر بذلك أبرهة ، وحلف ليسيرون الى البيت حتى يهدمه ، وتجهز ثم سار فى جيش لجب (١) فيه عدد من الفيلة فى مقدمتها فيل عظيم مشهور ، فلما سمعت بذلك العرب أعظموه ، ورأوا جهاده حقا عليهم ، حين سمعوا أن هدفهم هدم الكعبة . فوصل الى الطائف بعد أن هزم من تعرض له من العرب ، فلما كان بالمغمس بين مكة

---

(١) لجب : أى كثير وقوى .

والطائف بعث قائدا من قواده ، حتى انتهى الى مكة ، فساق اليه أموال تهامة من قريش وغيرهم ، وكان مما أصاب مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ، فهمت قريش وكنانة وهذيل وغيرهم بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به . ثم بعث أبرهة برسول الى مكة ، يسأل عن سيد هذا البلد ، ويبلغه أن الملك لم يأت لحربهم وانما جاء لهدم هذا البيت ، فان لم يعترضوا له فلا حاجة له في دمائهم . فلما كلم الرسول عبد المطلب فيما جاء به قال له : والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله ابراهيم عليه السلام ، فان يمنعه فهو بيته وحرمه ، وان يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع فانطلق معه الى أبرهة) (١) .

قال ابن اسحاق : " وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجلهم وأعظمهم ، فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه ، وأكرمه عن أن يجلس تحته ، وكره أن تراه الحبش يجلس على سرير ملكه ، فنزل أبرهة عن سرير ملكه ، وجلس على بساط ، وأجلسه الى جانبه ، ثم قال لترجمانه : " قل له : ما حاجتك ؟ فقال : حاجتي أن يرد على الملك مائتي بعير أصابها لي فلما قال ذلك : قال أبرهه لترجمانه قل له : قد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ! أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك ، قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ؟ ! قال له عبد المطلب : اني أنا رب الابل ، وان للبيت ربا سيمنعه ، قال : ما كان ليمتنع مني ، قال : أنت وذلك فرد عليه ابله ، فانصرف عبد المطلب الى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة ، والتحرز في شعف الجبال والشعاب تخوفا من معرة (٢) الجيش ، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ، ويستنصرونه على أبرهه وجنده .

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله ، وعبأ جيشه ، وكان اسم الفيل محمودا ،

---

(١) أنظر : سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٦ وما بعدها .
(٢) معرة : أى ضرر ومصيبة .

وابرهة يجمع لهدم البيت ، ثم الانصراف لليمن ، فلما وجهوا الفيل الى مكة برك فضربوه ليقوم فأبى ، فأدخلوا محاجن فى مراقة فبزغوه (١) بها ليقوم فأبى ، فوجهوه راجعا الى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه الى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه الى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجهوه الى مكة فبرك ، فأرسل الله تعالى عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحطها : حجر فى منقاره ، وحجران فى رجليه أمثال الحمص والعدس لا تصيب منهم أحدا الا هلك ، وليس كلهم أصابت ، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى منه جاءوا ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق الى اليمن ، فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك ، وأصيب أبرهة فخرجوا به معهم يتساقط جسده أنملة أنملة ، فما مات حتى انصدع صدره على قلبه (٢) " انتهى .

أثر الحادث فى نفوس العرب :

لم يكن وقع هذا الحادث سهلا ويسيرا على نفوس العرب حيث كان غرض ابرهة هدم البيت الحرام الذى بلغ لديهم أعلى مكانة ، وأعظم قداسة ، ونشر النصرانية بعد ذلك فى جزيرة العرب . فقد هالهم اقدام أبرهة على محاولة هدم البيت ، وعز عليهم أن يروا هذا النصرانى يقدم لبلادهم للقضاء على بيت الله الحرام الذى بناه ابراهيم واسماعيل ، وهم أبناء ابراهيم واسماعيل عليهم السلام ، اضافة الى ما استقر فى نفوس الجميع من أنهم خدم البيت الحرام ، وعلاوة على ما كانوا يرونه من أن ديانتهم - بالرغم مما اعتراها من وثنية - أفضل من نصرانية أولئك . فتيقنوا أن قتال أبرهة ، والحيلولة بينه وبين هدم البيت ، واجبا عليهم ، الا أنهم لم يكن لهم

(١) المحجن : هى عصا طويلة معوجة وقد يجعل فيها حديد ، المراق : هو أسفل البطن ، البزغ هو : اخراج الدم ومنه قيل مشرط الحجام بزغ لأنه يسيل الدم .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٥٠ .

طاقة بلقاء أبرهه وجيشه . فكان لهلاك أبرهه وجيشه ومنعه من تحقيق غرضه أعظم الأثر في نفوسهم ، كما تيقنوا أن ما أجراه الله على أبرهة من الهلاك لم يكن الا بسبب البيت وحرمته ، بعد ذلك أحسوا بفضله عليهم ، ودوره في حياتهم ، كما عرفت العرب كافة مكانة البيت وحرمته ، ومكانة مكة وأهلها .

وبالرغم مما قد يتصوره البعض من أن حادث الفيل كان أمرا عارضا فان الأمر بخلاف ذلك حيث كان للحادث آثار عظيمة على الحياة العامة في مكة وما جاورها .

منها ما كان من أثر مضاعف في زيادة حرمة البيت عند العرب في جميع أنحاء الجزيرة ، وزيادة مكانة أهله وسدنته من قريش ، مما ساعدهم على أن يسيروا في الأرض آمنين ، حيثما حلوا وجدوا الكرامة والرعاية ، مما شجعهم على انشاء خطين عظيمين بتنظيم رحلتين تجاريتين احداهما لليمن في الشتاء ، والأخرى الى الشام في الصيف ، في حين كانت حالة الأمن في الجزيرة على أسوء حال لما كان شائعا من السلب والنهب ، الا أن حرمة البيت قد كفلت لجيرانه الأمن والسلامة ، وجعلت لقريش بصفة خاصة ميزة ظاهرة (١) .

ولقد كان هذا الحادث ونتائجه من أقوى الارهاصات للنبوة القادمة ، ونظرا للارتباط الوثيق بين حادث الفيل ، وما جاء بعده من أحداث ، خاصة مولد الرسول صلى الله عليه وسلم حيث ترجح أكثر الروايات أن مولده كان عام الفيل ، من هنا كان وثيق الصلة بهذه الحادثة لكون الحدثين في عام واحد .

ثم ما تبع ذلك من بعثته صلى الله عليه وسلم ، وظهور نبوته ، وما تدل عليه الحادثة من حكم وارهاصات ، وثيقة الصلة بالدعوة الاسلامية وعوامل نجاحها - التي نحن في سياق الحديث عنها - حيث أن العبر المستفادة من الحادث والحكم الالهية ، وما صاحب حادث الفيل من خوارق ومعجزات الهية ، مما كان له أعظم النتائج في الدعوة الاسلامية ، وعوامل نجاحها بعد البعثة النبوية ؛ بعد أن جمع الحادث قلوب العرب حول

(١) أنظر : تفسير ابن كثير الطبعه الثانيه جـ ٣٠ تفسير سورة الفيل .

البيت ، وعرفت العرب لقريش مكانتها مما كان تأسيسا لنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعاملا من عوامل نجاح الدعوة . وعرفت العرب أن الله تعالى لم يكل حماية بيته الى المشركين ، بل تولى حفظه ، وأهلك عدوه ، لأن هلاك أصحاب الفيل لم يكن من أجل قريش بل من أجل بيته ؛ ليبقى قبلة المسلمين ومأوى أفئدتهم ، كما لم يكن لقريش من الفضل ما يستحقون به دفع أصحاب الفيل ، الا لما أراده الله تعالى من ظهور الاسلام تأسيسا للنبوة من قريش ، وتعظيما للكعبة ، ولما عرف العرب ما حصل لأصحاب الفيل ، زادت حرمته في النفوس وعظموه ، ودانت لقريش بالطاعة ، فما كانت تسلم قريش حتى أسلم بقية العرب (١) .

ولما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه القرآن ذكّر العرب بحادث الفيل ، وما صار اليه أولئك من هلاك وتدمير ، بسبب كيدهم وضلالهم وقصدهم السيء قال تعالى :

" ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم في تضليل . وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول " (سورة الفيل) .

ولم يقف القرآن الكريم عند هذا الحد ، بل تبع السورة بسورة أخرى عن أثر هذا الحادث في مكة ، وما تبعه من فضل من الله تعالى عليهم ؛ حيث أغناهم بعد فقر ، وأمنهم بعد خوف ، بأسلوب تذكير يستجيش الحياء في النفوس ، ويثير الخجل في القلوب ، ويدفعهم الى الايمان لأن قريشا ما كانت لتجهل قيمة البيت ، وأثر حرمته عليها حيث ما كانت في ساعة الشدة والبلاء تلجأ الا الى رب البيت كما حصل من عبد المطلب قال تعالى :

" لايلاف قريش . ايلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت . الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف " (سورة قريش) .

وهكذا كان حبس الفيل عن مكة المكرمة ارهاصا وتأسيسا لنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم حيث أبان الله تعالى بسببه مكانة هذا البيت وحرمته ، كما كان تنويها بذكر آباء الرسول

---

(١) أنظر : تفسير ابن كثير الطبعه الثانيه جـ ٣٠ تفسير سورة الفيل .

اذ كانوا عمار البيت وسكان الوادى ، كما كان الحادث أيضا من الحجج على المشركين فى تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم ، مما كان من عوامل نجاح دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم (١) .

وحادث الفيل وما نزل فيه من قرآن كريم يوحى للمرء بعدة ايحاءات واستنتاجات قد لا تقل عما سبق ذكره فى المبحث من أثر فى نجاح الدعوة الاسلامية نذكر منها باختصار : ان الله لم يكل أمر بيته والدفاع عنه للمشركين حتى لا تكون لهم يد على بيته ، ولا سابقة فى حمايته بحميتهم الجاهلية (٢) .

ان الله هزم أولئك بالطير الأبابيل ، فى حين أنه قادر على هلاكهم بدونها ، ولكن لبيان دور الأسباب ، وربطها بمسبباتها ، كما أن فى حماية البيت وهزيمة قريش بيان لضلالتهم وأن الله قادر على نصرة رسوله والقلة المؤمنة لأنهم على حق ، وأن يهلك قريشا على قوتها لأنهم على ضلال . وفى ايراد القرآن للقصة بيان لصدق الرسول صلى الله عليه وسلم وأنه لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى .

ومن جانب آخر فموقف عبد المطلب ، وان كان يظهر أنه انهزام امام أبرهه فهو فيه شجاعة ومعرفة قيمة البيت ، وأثر حرمته فى حياتهم ، فهم لم يلجئوا عند الشدة والبلاء الا الى رب البيت وحده ! ولم يواجهوه بصنم أو وثن ، وانما قال له عبد المطلب : " أنا رب الابل وللبيت رب سيمنعه " وأبت عليه شهامته العربية ، وعزة نفسه الأبية ، أن يستذل أو يستجدى العطف والرحمة من ذلك النصرانى المعتز بقوته .

وموقف عبد المطلب - وان كان من مشرك - يوحى للمسلم بوجوب الاعتماد على الله وحده ، والتوكل عليه دون الاتكال على غيره من الخلق ، فما أحوج المسلمين اليوم ، وهم يتخبطون فى البحث عن أسباب النصر ان يتجهوا لله وحده ، ويعرفوا حقه حتى يمنحهم النصر قال تعالى :

" يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم " (سورة محمد : ٧) .

---

(١) أنظر : زاد المعاد لابن القيم الطبعه الثالثه ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٣ م جـ ١ ص ١٧ وبلوغ الارب للالوسي الطبعه الثانيه جـ ١ ص ٦ ، ٢ .

(٢) أنظر : فى ظلال القرآن الطبعه الرابعه جـ ٦ ص ٢٩٧٤ .

ليستطيعوا الوقوف فى وجه أعدائهم من صليبية عالمية ، وصهيونية خبيثة ، وشيوعية ملحدة بعد الأخذ بأسباب النصر التى جاءت بها الدعوة الاسلامية المباركة .

وكذا ندرك أهمية حادث الفيل وأثره فى حياة العرب ، ودوره فى انجاح الدعـــــوة الاسلامية بعد ذلك .

البـــــاب الثانـــــــى

****

العوامل الداخليـــة لنجـــاح الدعــــــوة

****

****

****

تمهيـــــــد :

سبق أن بينا أن العوامل قسمــان [١] :

خارجيه تحدثنا عنها فى الباب الأول ، وداخلية ونعنى بها العوامل اللصيقة بالدعوة مـــن حيث ذاتها (المبادئ والأحكام والأصول . . .)

ومن حيث حملتها الذين قاموا بها وكانوا مثلا حية تمشى بين الناس بهذه الدعوة . وعندما ننظر فى الدعوة الاسلامية ، وسرعة انتشارها ، واقبال الناس عليها فى كل زمان ، وبخاصة عندما كانت فى عهدها الأول على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يأخذنا العجب الشديد ، حتى ليجد الانسان نفسه أمام سؤال عريض هو :

ما أسباب انتشار الدعوة الاسلامية بهذه السرعة والسهولة ؟ ! خاصة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه الكرام ، الذين وهبوا أنفسهم ، وما يملكونه لنصرة هذه الدعوة والديـــن الاسلامى الحنيف . لا سيما اذا أخذنا فى الاعتبار تلك الظروف المحيطة بالدعوة - فى ذلـك الحين - من ظلمات حالكة ، وأطماع مستبدة ، وعصبيات متناحرة ، وحيث أن هناك أسبابا عدة لانتشار الدعوة ونجاحها . تقدم بعضها ، ونعنى به ما أسميناه فى الباب السابق بالعوامـــل الخارجية لنجاح الدعوة ، وهى سابقة على الأسباب والعوامل التى سنذكرها ، والتى يمكـــن القول بأنها أشد ارتباطا بالدعوة من العوامل السالف ذكرها لارتباطها بالاسلام الذى هو موضوع الدعوة وحقيقتها . اذ المقصود بالدعوة الى الله الدعوة لدينه وهو الاسلام قال تعالى :

" ان الدين عند الله الاسلام . . . . " (سورة آل عمران : ١٩)

وفى هذا الباب سنتناول بالبحث العوامل الذاتية فى الدعوه والدعاة التى كانت من أسباب نجاح دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم والتى صاحبت الدعوة فى سيرها ولا زالت غرة [٢] فى جبين الدعوة الاسلاميـــــة .

---

(١) أنظر : ص ٢٥ من هذه الرسالة .
(٢) الأصل فى الغرة الأثر الظاهر ومنه غرة الفرس .

الفصل الأول :

العوامل الذاتية لنجاح الدعوة

العامل الأول : ربانية الدعوة .

العامل الثانى : موافقتها للحق والفطرة .

العامل الثالث : تدرج الدعوة .

العامل الرابع : شمول الدعوة .

العامل الخامس : قيامها على الجهاد .

العامل الأول : ربانية الدعــوة :

للدعوة الاسلامية خصائصها . ولها ميزاتها التى تميزها عن غيرها من الدعوات الأخرى ، وتجعل لها شخصيتها المستقلة عن أى دعوة كانت ، فمن أهم خصائصها التى كانت فى مقدمـة عوامل نجاحها ، كونها دعوة ربانية من عند الله تعالى ، فالقرآن الكريم الذى هو دستـــور الدعوة ونظامها وموجهها منزل من عند الله تعالى ، قال الله تعالـى :

" انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون " (سورة الحجر : ٩)

فالدين الاسلامى ومبادئه ، التى هى موضوع الدعوة ومصدرها ، من الله تعالى وحده ، والدين الاسلامى هو الدين الذى ارتضاه الله لعباده ، قال تعالـى :

" ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين " (**سورة آل عمران : ٨٥**)

وترتب على كون هذه الدعوة من الله تعالى عدة صفات اكتسبتها الدعوة من صفة الربانية مـثل : كمالها وسموها وعدالتها .... الخ .

فكان من مظاهر كمالها بقاء الدين الاسلامى فى منهجه الربانى ، وتصوره الاعتقادى ، أنه الدين الوحيد الباقى على أصله الربانى ، بحقيقته الالهية ؛ فى حين أن العقائد والمناهج السماوية التى جاءت بها الأديان قبله ، قد دخلها التحريف فى صورة من الصور ، وقد أضيف الى أصول الكتب المنزلة ، شروح وتصورات وزيادات ، ومعلومات بشرية ، أدمجت فى صلبها ، فبدلـت طبيعتها الربانية ، وبقى الاسلام محفوظ الأصول ، لم يشب نبعه الصافى الأصيل ، ولم يلبس فيه الحق بالباطل ، وهكذا صدق وعد الله بحفظ كتابه وسلامة دينه الاسلامى (1) .

كما خالفت الدعوة الاسلامية ، ومنهجها الاسلامى غيرها من الدعـوات بخلوها من معانـــى النقص والجهل والهوى والظلم لسبب ظاهر لكل ذى عقل مستنير ، وفطرة سليمـة ، وهـــو

---

(١) أنظر : كتاب خصائص التصور الاسلامى الطبعه الرابعه ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م ص ٥١ .

أن صفات الصانع وقدرته تظهر فيما يصنعه ـ ولله المثل الأعلى ـ فلما كان لله الكمال المطلق ، في ذاته وأفعاله وصفاته ، ظهر أثر ذلك الكمال على الدين الاسلامي ، ودعوته التي جاءت من عند الله ، خالية من كل نقص أو تقصير ، متكاملة في منهجها ، كاملة في تشريعاتها ، ثابتة في أحكامها ، غير متناقضة ولا متضاربة ، قال تعالى :

" أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا " (سورة النساء : ٨٢)

بخلاف المذاهب والأنظمة التي يصنعها البشر لأنفسهم ـ في معزل عن هدى الله ـ فانها تحتاج دائما الى التطور في أصولها ، والتحور في قواعدها ، والانقلاب أحيانا عليها كلها ، حين تضيق عن البشرية في حجمها الممتد ، وفي حاجتها المتطورة ، واذا كانت تلك المذاهب والأنظمة التي هي من صنع البشر تتعرض لهذا أو تحتاج اليه ، فذلك لأنها من صنع البشر ! والبشر قصار النظر الذين لا يرون الا ما هو مكشوف لهم من الأحوال والأوضاع والحاجات ، في فترة من الزمن ، وفي قطاع خاص من الأرض ، رؤية ـ مع هذا ـ فيها تصور الانسان ، وجهل الانسان وشهواته .

أما الدين الاسلامي ، ومنهجه الالهي ، ودعوته الربانية ، فهو يخالف في أصل تكوينه وخصائصه تلك المذاهب والتصورات البشرية ، ومن ثم لا يحتاج الى التغيير والتطوير ، لكمال واضعه ، وسعة علمه ، وقدرته التي لا حدود لها ولا زمان يحصرها [(١)] .

وترتب على كمال الشريعة ، وخلوها من أي عيب ، وبعدها عن كل نقص ـ لأنها من الرب تعالى ـ ثبات هذا الدين من أساسه ، وكونه كلاً لا يتجزء ، وعدم حاجته الى أي تبديل أو تطوير في أصوله ، وعدم قبوله ذلك ، وأن لا يتأثر بالأحداث لأن مصدره الوحي السماوي ، كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، وقد صور القرآن الكريم طبيعة هذا الدين ، وقوة ثباته ، في قوله تعالى :

" ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل

---

(١) أنظر : خصائص التصور الاسلامي ص ٤٨ .

كلمة خبيثة كشجرة خبيثة أجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار " (سورة ابراهيم : ٢٤ - ٢٦)

وهذه نقطة الفصل بين الدعوة الاسلامية ، التى تتصف بالثبات والقرار ، لكونها من الله تعالى ، والدعوات الأخرى المتصفة بالزوال ، وعدم الاستقرار لأن هذه الدعوات والمذاهب الوضعية لا جذور لهـا .

وهذا الوصف من جانب آخر يدل على أن الدين الاسلامى ، ومهجه فى الدعوة ، يتطوران مع الزمن ، كما تتطور وتنمو تلك الشجرة المباركة ، الحية النامية ، مع المحافظة على أصلها وجذورها ، حيث أن الله تعالى لم يشبه هذا الدين ، بثباته بصخرة صماء ، لا نمو لها ، ولا مرونة ولا حركة بها ولا حياة ، لأن هذه الدعوة كما وصفها الله تعالى كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين باذن ربها [(١)] .

واذا كان الله تعالى يثبت هذه الدعوة ، كما يثبت تلك الشجرة ، فهو يثبت الذين آمنوا بها واستقاموا عليها بالقول الثابت فى الحياة الدنيا على الحق ، لثبات دعوتهم ، ويهزم الباطل وأهله لبطلان دعواهم ، وفشل أمرهم ، كما هى حال الشجرة الخبيثة التى لا قرار لها ، ولا جذور فيها ولا أصول تقوم عليها ، واذا كانت هذه حال الدنيا ، فالأمر كذلك يوم الفزع الأكبر عند الجزاء والحساب ، قال تعالى :

" يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء " (سورة ابراهيم : ٢٧)

ولما كانت الدعوة الاسلامية دعوة ربانية ، فقد اتسمت باليسر والسهولة ، فى مبادئها وفى منهجها وتشريعاتها وأحكامها ، وفى طريقه تبليغها ونشرها بحيث تتفق مع فطرة البشر (كما سيأتي ان شاء الله تعالى)

لأنها من عند الله تعالى ، جاءت من الله الكريم ، هبة لهم ، ورحمة بهم ، فكانت يسرة سهلة ، لا حرج فيها ولا عسر ولا ارهاق ؛ يقول الله تعالى :

---

(١) أنظر : كتاب الاسلام الممتحن للشيخ محمد الحسنى الندوى الطبعه الأولى ١٣٩٧هـ — ١٩٧٧م ص ٣١ وكتاب أصول الدعوة للدكتور عبد الكريم زيدان الطبعه الثالثه ص ٤٧ .

"لا يكلف الله نفسا الا وسعها" (سورة البقرة : ٢٨٦) ويقول الحق عز اسمه فى الآية الأخرى :

"يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر" (سورة البقرة : ١٨) فكان من ثمار ذلك أن كانت أحكام الشريعة وتكاليفها ، وفق مقدرة المرء الجسدية والعقلية والفكرية ، يقول العلامة ابن قيم الجوزية (١) رحمه الله : "ان قاعدة الشريعة أن العوارض النفسية لها تأثير فى القول اهدارا واعتبارا واعمالا والغاء" (٢)

والقرآن الكريم يحوى عددا كثيرا من الأدلة على ذلك نحو قوله تعالى :

"ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ..." سورة النور : (٦١)

وفيما يلى بعض الأمثلة ، وايضاحها فى هذا الجانب :

فمثلا نجد أن الحكم الذى يشق أداؤه على المكلف ، يسقط عنه الى بدل كالصيام للمريض والمسافر والمرأة فى زمن الحيض ، يفطرون رمضان ويصومون بدلا منه ، وكالتدرج فى أحكام الكفارات ، وقصر الصلاة للمسافر ، ورفع الحرج عن المريض حتى يبرأ ، والمجنون حتى يفيق ، والصغير حتى يبلغ ، والنائم حتى يستيقظ قال تعالى :

"ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج" (سورة المائدة : ٦) وقال تعالى :

"وما جعل عليكم فى الدين من حرج" (سورة الحج : ٧٨)

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : "رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن المبتلى حتى يبرأ ، وعن الصبى حتى يكبر" (٣) وقد يسقط الحكم بتاتا اذا وجد سبب شرعى لذلك ، كاسقاط صيام رمضان عن الشيخ الفانى اذا لم يجد كفارة ، واسقاط الصلاة عند الحيض والنفاس ، وعدم المؤاخذ بالخطأ والنسيان لحديث "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه" (٤)

---

(١) ابن قيم الجوزية : هو : شيخ الاسلام العلامة شمس الدين محمد بن أبى بكر بن أيوب امام الجوزية وابن قيمها ، فيها ولد سنة ٦٩١هـ كان عالما بارعا فى العلم لا سيما علم التفسير والحديث والأصليين توفى بدمشق سنة ٧٥١هـ . أنظر : البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢٣٤ .

(٢) اغاثة اللهفان فى طلاق الغضبان ص ٢٧ . (٣) رواه الحاكم فى المستدرك جـ ١ ص ٢٥٨ ورواه أحمد فى المسند جـ ١ ص ١٥٥ ومثله عند ابن خزيمة جـ ٢ ص ١٠٢ .

(٤) رواه الطبرانى فى الكبير الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م تحقيق حمدي السلفي جـ ١ ص ٤٤

وكان من ثمار ربانية الدعوة ، أن جاءت بالعدل والمساواة بعد ما افتقدتها الانسانية ، ردحا من الزمن ، أثقل خلالها البشر بالظلم والقهر والتسلط الطبقي والجور - كما سبق - فجاءت هذه الشريعة بالعدل الذى هو مطلب فطرى لكل البشر ، فى كل الأحوال ، لأن المولى - عز وجل - لم يقم هذا الكون بما فيه من قوة هائلة ، الا على أساس العدل ، كما أن تلك الدعوة جاءت لتنشئ أمة ، وتنظم مجتمعا ، ثم لتنشئ عالما ، فجاءت دعوة عالمية انسانية ، لا تعصب فيها لقبيلة أو أمة أو جنس ، وانما العقيدة هى الآصرة ، والرابطة والقومية ، فهي لهذا قد حوت المبادئ التى تكفل تماسك الجماعة ، واطمئنان الأفراد والأمم ، والصدق فى التعامل ، والثقة فى المعاملات ، والوفاء بالوعد ، والالتزام بالعهود ، بعد أن أرسى الاسلام مبادئه ، وأصوله الثابتة على قاعدة ثابتة للتعامل قوامها العدل ، لا تميل مع الهوى ، ولا تتأثر بنزعة النفس البشرية بالحب والبغض ، ولا تتبدل مجاراة للصهر والنسب ، ولا تستميلها مظاهر الجاه ، أو يؤثر فيها عوامل الغنى والفقر ، انما تمضى فى طريقها ، تكيل بمكيال واحد ، وتزن بميزان واحد ، مع كل الجميع القريب والبعيد ، الولى والعدو ، كل هؤلاء وأولئك ، يتفيئون ظلال عدلها الوارف ، الذى نطقت به النصوص القرآنية المباركة [(١)] . كقوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا " (سورة النساء : ١٣٥) ، وقوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون " (سورة المائدة : ٨)

وكان بسبب ذلك تحقيق الدعوة الاسلامية لمصالح البشر الكثيرة ، واتساعها لكل ما فيه خير الانسانية كلها ، وكان أن ساوت هذه الدعوة بين الناس بسبب عدلها فى الثواب

---

(١) (بتصرف) - فى ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢١٩٠ (سورة النحل)

تعالى لبيان تلك القاعدة : " لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم " (سورة البقرة : ٢٥٦) وفي هذا أقوى الضمانات ، لحسن تطبيق الاسلام وأحكامه ، وعدم الخروج عليها ، أو الامتعاض منها لأى سبب ، وهذا كان من عوامل نجاحها بخلاف الدعوات الوضعية ، وقوانينها التى شرعها الانسان الضعيف القاصر ، فانها لا تظفر بهذا القدر من الهيبة والاحترام ، لخلوها من الميزات التى اتصفت بها الدعوة الاسلامية والتى فى مقدمتها صفة الربانية ، وتلك الدعوات الوضعية مهما بذل من جهد فى سبيل تحسينها أمام الناس ، أو محاولات من أجل وقوفها أمام دعوة الحق فهى زبد يذهب جفاء ، وأما الذى ينفع الناس فيمكث فى الارض ، ولما كان الضعف والقصور والجريان وراء الهوى من صفات الانسان المخلوق ، بخلاف الخالق المتصف بصفات الكمال المطلق، فلم يكن من الممكن أو المعقول التسوية بين ما وضعه الخالق ، وما وضعه المخلوق ، اضافة الى أنه قد يكون المكلف بامتثال ، وتنفيذ تلك القوانين الوضعية أفضل وأذكى من واضع ذلك التشريع من البشر ، وأقدر منه ، كما أنه قد يتيقن أن واضعه انما وضعه لغرض ما ، ومقابل مصلحة ما ، أما الدعوة الربانية فواضعها غني عن خلقه ، محب لمصلحتهم ، طالب لسعادتهم ، فيتعين عليهم أخذ هذه الدعوة الربانية بالقبول الحسن ، والارتياح التام ، والمسارعة الى الاستجابة لأمر الله لما فى هذا من سعادة وخير للبشرية ، قال تعالى :

" يا أيها الذين آمنوا ستجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه اليه تحشرون " (سورة الأنفال : ٢٤)

وهذا كان من أسباب الاستجابة لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم حينما دخل الناس فى دين الله أفواجا ، بعد ما أن تبينوا حقيقتها .

العامل الثانــى : موافقتها للحق والفطرة :

لقد كان الحق ولا يزال مطلب الانسانية منذ فجر التاريخ ،لما فى الحق من مصالح كثيرة ، وخير عظيم ، فهى لذلك تنشده ، وتلهث فى طلبه ، وتبحث عنه حيثما كان ، فلا غرابة والحال هذه أن تكون الدعوة الاسلامية هى مطلب الناس ، لأنها دعوة الحق فى مبادئها ، وفى وسائلها وأساليب تبليغها ، فهى دعوة الحق التى لا تحيد عنه ، ولأنها الدعوة التى ارتضاها - تعالى - لتكون سببا لهداية البشرية ، ومخلصا لها مما أصابها من ويلات ومتاعب ، وأن تزيل تلك الدعوة - بهدى الحق - أدران الدعوات الضالة ، لأنها تستمد من الحق وجودها وقوتها وانطلاقتهـــا ، وحركتها فى كل اتجاه ، وبهذا لم تستطع أى دعوة أخرى ، مهما كان مصدرها ان تسامى الدعوة الاسلامية ، أو تدانيها ؛ لأنها دعوة الحق فى مضمونها ، ودعوة الحق فى جوهرها ، ودعـــوة الحق فى صفتها .

وتلك الصفات لم تصبها الدعوة الاسلامية اعتباطا ، أو من طريق المصادفة غير المقصودة ، أو الفلتة العابرة ، فالحق فى منهج الدعوة الاسلامية كامل بلا ريب ، وهو منهج الله الأصيل ، قديم فيها قدم وجودها منذ وجد الانسان من لدن آدم عليه السلام ، وهذا المنهج يستمد قوته من موجده ، وهو الله تعالى الحق ، الذى يقول عن نفسه - جل جلاله - "ذلك بأن الله هو الحـــق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير" (سورة الحج : ٦٢) وهذا الكـــون بل الوجود كله بما فيه من عظمة تنطق بعظمة موجده ، لم يوجد الا بالحق ، ولم يقم بنيانه الا على الحق ، مصداق ذلك قوله تعالــى :

"وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وان الساعة لآتية فأصفح الصفح الجميـــــــل"

(سورة الحجـر : ٨٥)

يقول الأستاذ سيد قطب [1] :

" فالحق هو قوام هذا الوجود فاذا حاد عنه فسد وهلك قال تعالى فى ذلك : " ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن " (سورة المؤمنون : ٧١) ومن ثم فلابد للحق أن يظهر ، ولابد للباطل - الذى هو خلاف الحق وعدوه اللدود - أن يزهق ، ومهما تكن الظواهر غير هذا ، فان مصيرها الى تكشف صريح ، قال تعالى : " بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق " (سورة الأنبياء : ١٨) والخير والصلاح والاحسان صفات أصيلة كالحق ، باقية بقاءة على الأرض قال تعالى : " أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل وأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال " (صورة الرعد : ١٧)

فأى طمأنينة تنشئها تلك الدعوة ومنهجها ؟ ! وأى سكنة تفيضها على القلوب التى تنفتح لها ؟ !

فان الانسان السليم الفطرة ، الفاحص النظر يصل الى يقين جازم وحاسم أنه لا صلاح لهذه الأرض ، ولا راحة لهذه البشرية ، ولا طمأنينة لهذا الانسان ، ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة ، ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة الا بالرجوع الى الله .

والرجوع الى الله له صورة واحدة ، وطريق واحد لا سواه ، انه العودة بالحياة كلها الى منهج الله الذى رسمه للبشرية فى كتابه الكريم " [2] أ ، هـ

ذلك المنهج الذى أسعد الانسانية ، وأعادها الى صراط الحق المستقيم ، طريق الخير والسعادة يوم أن قيض لها أن تتلقى ذلك المنهج السامق ، فى عهد الدعوة الاسلامية على يدى

---

(١) سيد قطب : هو سيد بن قطب بن ابراهيم ولد فى قرية " موشا " فى أسيوط بمصر سنة ١٣٢٤ هـ مفكر اسلامى ، انضم الى جماعة الاخوان المسلمين عام ١٩٥٣ م وترأس قسم الدعوة ، كما تولى تحرير الجريدة الناطقة باسمهم ، وسجن معهم ، له عدة مؤلفات مشهورة فى مقدمتها تفسير " فى ظلال القرآن " أعدم شهيدا فى سجنه سنة ١٣٨٧ هـ أنظر : الأعلام جـ ٢ ص ١٤٥ .

(٢) نص : الأستاذ سيد قطب فى الظلال جـ ١ ص ١٦ .

ولما كانت الدعوة الاسلامية دعوة الحق ، لأن مصدرها الحق ، ومنهجها الحق ، فقد جاءت متلائمة مع فطرة النفس البشرية لأن تلك الفطرة البشرية خالقها وموجدها هو الله الحق ، فكلاهما من صنع الله ، وكلاهما متناسق مع الآخر فى طبيعته ومنهجه ، والله تعالى الذى خلق القلب البشرى ، هو الذى أنزل اليه هذا الدين ليحكمه دون غيره ، ويشفى به من العلة ، ويقومه من الانحراف .

فكان من نعم الله - جل علاه - على الانسانية كلها أن جاء الدين الاسلامى الحنيف متوافقا مع فطرة البشرية السوية ، التى أوجدها المولى فى هذا المخلوق الفريد فى نوعه ، الفريد فى تفكيره ، الفريد فى تصرفاته ، مما كان من أسباب اقبال الناس على الدخول فى دين الله أفواجا ، بعد أن عرفوا حقيقة هذا الدين ، بواسطة تلك الفطرة بعد أن جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الدين الحق . فلم تلبث البشرية أن عرفت حقيقة هذا المنهج ، وارتفعت بسببه بعد قبوله من عبادة المخلوق الى عبادة الخالق ، ومن ضيق الأديان الى سعة الاسلام ، بعد أن حررته من الخضوع لسلطان الشهوة والمادة والحكام ، وأخضعته لصاحب السلطان الحق ، وهو الله تعالى ، بعد أن هدته تلك الدعوة بتوفيق الله لطريق الحق وسخرته لسلطانه ، ودلته على طريق الهدى ، ووفقته اليه بفضل من الله ومنه .

ولما كانت الفطرة لها ذلك الدور الهام فى معرفة الناس لمنهج هذا الدين الاسلامى ، ولكون الدين الاسلامى فى أحكامه وتشريعاته وسبيل دعوته موافقا للفطرة السليمة مما كان من عوامل قبول الناس للدخول فى الاسلام وانتشار دعوته ، فانه من المهم تعريف الفطرة وبيان دورها فى دعوة الحق ، ليتضح أثر ذلك فى نجاح دعوة الاسلام .

دور الفطرة فى دعوة الحق :

للفطرة البشرية دورها الهام فى توجيه المخلوق البشرى ، ولها التأثير القوى فى سلوكه ، وفى نفس الوقت لها حالتها الخاصة ، اذ أنها دقيقة الشعور ، سريعة التأثر بما حولها من مؤثرات توجه سلوكها ، لأن جميع مافي الكون من آيات وسنن وقوانين ونعم باهرة تخدم تلك الفطرة ، وتشبع رغباتها ، وتحقق مطالبها ، بل وتجيب على تساؤلاتها ، وهذا مما امتازت به فطرة الانسان عن غيره من فطرة الكائنات الحية ، بالبحث عن الحقيقة ، والتفكير فى الكون ، والبحث عن الحق وطلبه ، ومحاولة معرفة الباطل لاجتنابه ، ولكن هذا الاستدلال وتلك المعرفة لا تكون الا عندما يوجد فطرة سليمة ، سوية كما خلقها الله : "فطرة الله التى فطر الناس عليها" بعيدة عن المؤثرات الخارجية ، نقية من أباطيل الضلال والهوى ، عند ذلك تجد الفطرة ضالتها فى الدعوة الاسلامية ، ودينها الحق ، وتشريعاتها الالهية الباهره التى فيها الاجابة المطلوبة عن كل تساؤل ، لأن الله تعالى وهو الحق مصدرها ، وموجه تلك الفطرة ، وفاطر كل ما فى الكون من موجودات ، وهى كل لا يتجزأ .

فكان اهتمام الاسلام بالفطرة البشرية ، وعدم اغفالها ، والتجاوب مع متطلباتها ، لتتمكن من معرفة الحق من الباطل ، والصواب من الخطأ ، فجاءت تشريعات الدين الاسلامى ، واهتمامات وأحكامه موافقة للفطرة البشرية السوية . "فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون" (سورة الروم : ٣٠) وما دام للفطرة هذه المكانة ، وذلك الدور فى حياة المرء الدنيوية والأخروية ، فانه من الفائدة التعرض الى بيان الفطرة ، ومعانيها اللغوية والاصطلاحية ، نظرا لعمق الصلة بين الفطرة ، وأسباب نجاح الدعوة الاسلامية التى نحن نتحدث عنها فى هذه الرسالة .

الفطرة لغـة :

الفطرة : الاصل فيها الخلقة ، سواء خلقة انسان أو حيوان أو أى كائن آخر ،

وزاد مسلم بروايات أخرى للحديث بنفس المعنى ، وأكثر طرق الحديث مروية عن أبى هريره رضى الله عنه .

قال القرطبى [١] : " واختلف العلماء فى معنى الفطرة المذكورة فى الكتاب والسنة على أقوال متعددة ، منها الاسلام : قاله أبو هريرة وابن شهاب الزهرى وغيرهما ، قالوا : وهو المعروف عند عامة السلف من أهل التأويل ، واحتجوا بالآية وحديث أبى هريرة " المتقدمين وعضدوا ذلك بحديث عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للناس يوما : " ألا أحدثكم بما حدثنى الله فى كتابه ان الله خلق آدم وبنيه ، حنفاء مسلمين ، وأعطاهم المال حلالا لا حرام فيه ، فجعلوا مما أعطاهم الله حلالا وحراما " [٢]

وعلى هذا التأويل يكون معنى الحديث : ان الطفل خلق سليما من الكفر ، على الميثاق الذى أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه ، وأنهم اذا ماتو قبل أن يدركو [٣] فى الجنة ، أولاد مسلمين كانوا أو أولاد كفار ، وقال آخرون : الفطرة هى البداءة التى ابتدأهم الله عليها ، أى على ما فطر الله عليه خلقه ، من أنهم ابتدأهم للحياة والموت ، والسعادة والشقاء ، والى ما يصير اليه عند الادراك . قال المروزى : كان الامام أحمد بن حنبل يذهب الى هذا القول ثم تركه . ومما احتجوا به لهذا ما روى عن محمد بن كعب القرظي فى قوله تعالى : " فريقا هدى وفريقا حقت عليهم الضلالة " (سورة الأعراف : ٣٠) قال : من ابتدأ الله خلقه للضلاله صيره الى الضلالة ، ومن ابتدأ الله خلقه للهدى صيره الى الهدى ، وان عمل بأعمال الضلالة ، ابتدأ الله تعالى خلق ابليس على الضلالة ، وعمل بأعمال السعادة مع الملائكة ، ثم رده الله الى ما ابتدأ عليه خلقه ؛ قال : وكان من الكافرين [٤] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٦ تفسير سورة الروم .
(٢) رواه مسلم فى كتاب (الجنة وصفة نعيمها - باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة) جـ ٤ ص ٢١٩٧ .
(٣) الادراك اللحوق واللحاق ، يقال : مشى حتى أدركه ، وأدرك الغلام ؛ أى بلغ المراد به هنا البلوغ .
(٤) أنظر : تفسير القرطبى جـ ٦ تفسير سورة الروم .

قال الامام النووى : " وأما الفطرة فقد اختلف فى المراد بها هنا فقال أبو سليمان الخطابى : ذهب أكثر العلماء الى أنها السنة ، وكذا ذكره جماعة ، فقالوا : ومعناه أنها من سنن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وقيل هي الدين ، ثم ان معظم هذه الخصال ليست واجبه ، وفى بعضها خلاف فى وجه ، كالختان والمضمضة والاستنشاق " (١)

ولما كان للفطرة تلك المكانة الهامة فى توجيه المرء ، ولكونها دقيقة الشعور سريعة التأثر بما حولها ، من مؤثرات توجه سلوكها ، اهتم بها الاسلام ، وأرشد الى ضرورة المحافظة عليها ، وتوجيهها الوجهه السليمة ، التى تتفق مع ارادة الله من خلق الثقلين ـ الجن والانس ـ وهى عبادته وحده ، **قال تعالى** : " وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون " (سورة الذاريات : ٥٦) وتحقيق خلافة الله فى أرضه وفق مراده تعالى ، فالفطرة فى النفس البشرية كالمشكاه التى تضئ للمستنير بها الطريق المستقيم ، ما دامت صالحة فى جوهرها ، سالمة من المؤثرات الخارجية ، واذا تعطلت فى الانسان تعطلت نفسه ، وخربت جوانبه ، وأظلمت حياته ، وتخبط فى سلوكه . كالذى فقد الضوء الهادى ، فانه ينحرف عن طريق الحق والصواب .

من هنا جاء منهج الاسلام فى الدعوة ، منهج العليم بأسرار النفس البشرية ، الخبير بما يزكيها ويفسرها ، المطلع على بواطن القوة والضعف فيها ، لأنه منهج الله تعالى ، العالم بكل شئ ، الخالق لهذه الفطرة بهذه الصورة الفريدة .

قال تعالى : " وأسروا قولكم أو اجهروا به انه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير " (سورة الملك : ١٣ ، ١٤) .

فعملت تلك الدعوة عملها فى النفس البشرية ، بردها الى فطرتها السليمة ، وتخليصها مما علق بها من أوضار الشرك ، وخرافات العرف والتقاليد ، وهكذا كان استعمال دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم لهذه الفطرة فى قبول منهج الاسلام ، وكونها سببا مهما من أسباب نجاح الدعوة الاسلامية (٢) .

---

(١) نص النووى فى شرح مسلم الطبعه الثانيه ١٣٩٢هـ - ١٩٧٣م جـ ٣ ص ١٤٨ .
(٢) أنظر : كتاب منهج القرآن فى التربية مؤلفه / محمد شديد ص ٦٧ .

المؤثرات فى الفطرة :

وما دامت هذه ميزة الفطرة ومكانتها وموقف الاسلام منها ، وحفظها من المؤثرات والأسباب التى تعطلها ، فلسائل أن يسأل فيقول : ما هى المؤثرات فى الفطرة أو المعطلات لها ؟ سواء ما كان من المؤثرات الايجابية التى استفادت منها الدعوة أو المؤثرات السلبية والمعطلات التى حذر منها الاسلام ؟

والجواب : ان تلك المؤثرات كثيرة ، أرشد الى بعض منها - وهو أهمها - الصادق المصدوق فى الحديث الصحيح (ما من مولود الا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) وهذه مجرد نماذج من المؤثرات على الفطرة ، ومن أسباب انحرافها باتباع هوى الأبوين ، لأنهما أشد ما يتأثر به المولود خصوصا فى صغره ، فى وقت تكوينه وبنائه ، والا فالمرء يتأثر بكل من حوله ، وما فى بيئته من مجتمع وعلم وجهل ، وقوة وضعف ، وغنى وفقر ، وعقل وتفكير ، ومن الممكن تلخيص المؤثرات فى الفطرة فيما يلى :

الهوى المضل ، والنفس الأمارة بالسوء ، والشيطان المسول للبشر ، والشهوة الجامحة العنيدة ، والغريزة المتسلطة ، والمادة المهلكة ، والمركز الاجتماعى ، والرئاسة فى المجتمع والقبيلة .

ولما كانت الدعوة الاسلامية هى دين الحق الذى ارتضاه الله لعباده دينا " ان الدين عند الله الاسلام " (آل عمران : ١٩) وقال تعالى : " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا " (سورة المائدة : ٣) لذلك كان اهتمامها بالفطرة وعدم اغفالها فى أى لحظة أو حال ما .

كما كان أن أخذ الدين الاسلامى يحاول جادا بتحرير النفس الانسانية ، وحمايتها ، فكان فى مقدمة اهتمام الدعوة الاسلامية بالفطرة اهتمامها بالعقل لكونه جزءا مهما فى الفطرة ، ولكون كلاهما يؤثر فى الآخر ، وشديد الارتباط به . فالفطرة تخدم العقل فى حين نجد العقل يخدم الفطرة ، واذا كان الاسلام لم يهمل الفطرة ، بأن جاءت أحكامها وتشريعاته منسجمة مع الفطرة وكان هذا

من أسباب نجاح الدعوة الاسلامية ، وقبول الناس لدين الاسلام ، والدخول فى دين الله أفواجا ، فهو كذلك اهتم بالعقل ، ولم يهمله ، فلا غرو اذا أن نجد الاسلام يوجه خطابه للعقل فى كثير من آيات القرآن الكريم ، ونجد فى مقدمة اهتمامات القرآن الكريم الأمر بالتفكير والتأمل ، وتحكيم العقل ، وخاصة مع أولئك البشر الذين أضلهم الشيطان ، وسول لهم الباطل حقا ، والمنكر معروفا ، بعد أن سيطر على عقول أولئك القوم من المشركين والمنافقين ، فكان أن أرشد القرآن الكريم الى أنه لو كان لهم عقول يدركون بها ، لعرفوا الحق من الضلال ، ولما التبس عليهم الحق بالباطل ، والهدى بالضلالة ، ولكنهم من مرضى القلوب الذين أعمى الله عقولهم وبصيرتهم عن الحق الذين قال الله تعالى فيهم : " أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور " (سورة الحج : ٤٦)

وكان من مظاهر اهتمامات الدعوة الاسلامية أن ارشد الاسلام الى أن الايمان لا يكون بمجرد القلب بل لا بد من العمل ، ومجاهدة النفس فى أمر الايمان ، لأن المسلم بتلك المجاهدة للنفس يخضع كامل قواه ، بما فيها العقل والفطرة لمنهج الله القويم ، الذى لا يغفل العقل والفطرة ، فكان أن ربط الاسلام بين الاعتقاد والعمل فى آيات لا تحصى من القرآن الكريم فى مقدمتها فاتحة سورة البقرة حيث يقول تعالى :

" الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون " (سورة البقرة : ١ - ٥)

كما كان من مظاهر ربط الايمان بالقلب والادراك بالعقل والعمل المثمر الخالص لوجه الله تعالى ، أن جعل الله صلاح الفطرة يكون فى المجاهدة لاقرار منهج الله الحق عن طريق الجهد البشرى ، وفى حدود الطاقة البشرية (١) .

---

(١) أنظر : تفاصيل ذلك فى كتاب (هذا الدين للشهيد سيد قطب ص ٤ وما بعدها .

ومن منطلق حرص الاسلام على حماية الفطرة وحفظها ، حرص الدين الاسلامى على تحرير العقل وحفظه من المؤثرات المادية والمعنوية ، وفى مقدمة ذلك التحرر الأمر بافراد الله بالعبادة ، لان عبادة غير الله تعالى ، أو اشراك غيره معه من الطواغيت بأى صورة من الصور - التى يضيق المجال للتعرض لها - يعتبر سيطرة على العقل ، وسببا لضياعه وعدم حفظه ، واخضاعه لارادة الغير وسيطرة الخلق عليه ، وفى هذا اهدار للفطرة واهانة لكراماتها ، وفى افراد الله بالعبادة كمال النضج العقلى للفرد والأمة ، وحفظا للفطرة واكراما لها .

الاسلام وتحرير العقل وحفظه :

وما دامت هذه نظرة الاسلام للعقل ، وهذا دوره فى الفطرة ونظرا لكون اهتمام الاسلام بالعقل جزءا من اهتمامه بالفطرة ، ولما لذلك من أثر فى نجاح الدعوة الاسلامة فمن المفيد الاشارة باختصار الى بعض ما جعله الاسلام من أحكام شرعية ، وقواعد ثابته لحماية العقل وتحريره من المؤثرات .

لقد جعل الاسلام من الأحكام والقواعد الشرعية ما يكفى لحماية العقل ، وتحريره من المؤثرات ، وبين نتائج الانساق وراء تلك الاشياء ، وعاقبة ذلك قال تعالى : " ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدى القوم الظالمين " (سورة القصص : ٥٠)

ففى مجال المادة مثلا نجد الدين الاسلامى يجعل الأسباب والوسائل التى تحمى من شرها المستطير ، ويضع نظاما للكسب الصحيح ، والعمل المثمر ، والعيش الحلال ، ويوجب الزكوات ، ويشرع الصدقات ، ويرشد الى طرق الانفاق المتعددة - التى يضيق مجال التوسع فى بحثها - ليحصل التوازن بين المجتمع ، جاعلا ميزان كل ذلك التقوى والدين ، ليحرر بذلك الفطرة والعقل من سيطرة المادة وشرورها .

ومن جانب تلبية الحاجات العقلية المعنوية والفكرية حث الاسلام على ملء الفكر والروح بالعلم النافع فى الدنيا والآخرة ، فكان من أفضليات ما أمر به فى هذا المجال الأمر بقراءة القرآن وحفظه ، وجعل الثواب الجزيل عليه ، والأحاديث الصحيحة المتواترة على الحث على قراءة القرآن وحفظه والعمل به

وتعليمه . كثيرة منها ما رواه البخارى ـ بسنده ـ الى عثمان بن عفان رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " خيركم من تعلم القرآن وعلمه " (١)

ورغب الاسلام فى العلم النافع الذى يحمى الفطرة والعقل ، ولم يجعل العلم قاصرا على فئة معينة ـ كالقسيسين والرهبان ـ بل ان المسلمين يطلب منهم جميعا معرفة أحكام دينهم من مصادرها الأصلية ، وهذا بخلاف الأديان الأخرى ، وأمر بنشر العلم ، ورغب فيه ، وبين ان الناس تختلف مداركهم ومشاربهم فى العلم والتعلم لاختلاف فطرهم ، وأن خيرهم من علم وعلّم فأستفاد وأفاد ، جاء فى الحديث الصحيح عن أبى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب امسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى انما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به " (٢)

ولما كانت الدعوة الاسلامية دعوة الخير لكل البشر ، ودعوة العلم والمعرفة فكان اهتمام الدعوة بالعلم اهتماما بالغا عند ما بدأ الوحى بالأمر بالقراءة والاشادة بالعلم والمعرفة لأن فى ذلك ابانة حقيقة لوحدة الكون ، ووحدة الاله المعبود ، ووحدة النظم ، ووحدة المنشأ والمصير ، ومعرفة ذلك والايمان به أساس هذه الدعوة . (٣)

وبذلك أقام الاسلام منهجه التربوى النفسى والتعليمى على أساس راسخ من الحق والعلم استجابة لفطرة الانسان ومتطلباتها ، ولم يقم هذا المنهج على الخداع والمكر ، واستغلال الحاجات

---

(١) صحيح البخارى (كتاب فضائل القرآن ـ باب خيركم من تعلم القرآن) ج ٣ ص ٢٣٢ .
(٢) رواه البخارى فى (كتاب العلم ـ باب فضل من علم وعلّم) ج ١ ص ٢٦ .
(٣) أنظر : منهج القرآن فى التربية محمد شديد طبعه ١٣٩٩هـ : مؤسسة الرساله بيروت .

قابليتها للحركة والتطور والا كيف يمكن أن تكون صالحة لكل زمان ومكان ؟ لكن هذه الحركة وذلك التطور داخل اطار ثابت ، وهذا الاطار الثابت يسمح لها بالحركة ، بل يدفعها للحركة داخله من غير تجميد لحركة الفكر والحياة اللذان يتحركان وفق فطرة الله التى فطر الناس عليها .

وكان من نتائج ذلك اتصاف الدعوة الاسلامية بالايجابية . فالايجابية تكون مثلا فى تأثر المسلم بمنهج الاسلام فى معرفته عن علاقة الله تعالى بالكون والحياة ، وأنه خالق هذا الكون العظيم وموجده ، ومعرفة المسلم لعلاقة الانسان بالله خالقه ، وعلاقة الناس بعضهم ببعض ، فالاسلام وهو دين الفطرة لم يهمل تلك النظرات والتأملات الفطرية لدى الانسان لحظة واحدة ، والدعوة الاسلامية تنمى تلك المعانى والتساؤلات الفطرية ، وتحاول ايصالها الى الحقيقة ، ومن ثم الاستفادة منها فى مجال الدعوة الاسلامية ، وهداية الخلق الى الخير والفلاح .

والدعوة الاسلامية بذلك تخالف المذاهب الوضعية ، والمناهج السلبية التى جاءت عن أرسطو أو غيره من الدهريين الذين لا يؤمنون الا بالمادة ، ولا يعتقدون الا فيما هو محسوس مشاهد . كما تخالف تلك المعتقدات التى تحد من النظر والفكر ولا تسمح له الا فى نطاق ضيق ، وفى بعض الجوانب فقط ، كما تصور الفرس المجوس صفات " هرمز " اله النور والخير ، واله آخر هو " أهرمان " اله الظلام والشر (١) .

والدعوة الاسلامية فى مثاليتها تحرص على ابلاغ الانسان الكمال المقدور له بجعل تصرفاته وأفعاله وفق منهج الله تعالى ومراده ، وهذا المنهج هو الذى جاء به الاسلام عن الله تعالى ، وطبقه رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأمرنا بالعمل به من غير زيادة ولا نقصان ، وهو منهج الحق والفطرة . وكان من ثمار المثالية أمر الاسلام بالاعتدال فى كل شىء وعدم الافراط أو التفريط ، واعطاء

---

(١) أنظر : خصائص التصور الاسلامى للشهيد : سيد قطب ؛ الطبعه الرابعه ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م ص ١٧٢ .

كل ذى حق حقه ، فدعا الاسلام الى الاعتدال ، حتى فى أمور الدنيا والحياة ، بما فيها الأكل والشرب ، قال تعالى : "وكلوا واشربوا ولا تسرفوا" (سورة الأعراف : ٣١)

وهذا الاعتدال مطلوب فى العبادات كذلك حيث أن المرء منهي عن الغلو فى دينه ، أو ايذاء جسده بالعبادة ، يدل على هذا ما جاء فى الصحيحين . عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : جاء ثلاثة رهط الى بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبى صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تقالّوها فقالوا : وأين نحن من النبى صلى الله عليه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ! فقال أحدهم : أما أنا فانى أصلى الليل أبدا ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنتم الذى قلتم كذا وكذا أما والله انى لأخشاكم الله ، وأتقاكم لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس منى " (١)

واذا كانت الدعوة الاسلامية على تلك الصورة ، من المثالية والايجابية فهى كذلك دعوة واقعية ، لأنها جاءت عن الله تعالى ، وتتعامل مع الانسان من واقع فطرته وادراكه ، آخذه فى الاعتبار تكوين الانسان الفكرى ، وطاقته الجسمية ، واستعداداته الفكرية والذهنية والعقلية مع تكريم هذا المخلوق ، وتقدير مشاعره وأحاسيسه ، فهذه الدعوة لا تهدر قيمته أو تغفل عنه فى صورة من الصور ، أو لحظة من اللحظات ، فى حين لا ترفعه عن منزلته كبشر خلق لعبادة الله ، واستخلافه فى الأرض ، وقيامه بعمارتها . ومنهج الدعوة الاسلامية فى ذلك يخالف الدعوات الوضعية التى تسعى الى مصادمة الفطرة ، وصرفها عن الطريق المستقيم ، بكل ما أمكن من الوسائل ، وتنتهج مع الانسان وفطرته مناهج الخداع والمراوغة ، بتزيين الباطل ، وتشويه الحق ، واختراع

---

(١) رواه البخارى فى (كتاب النكاح) جـ ٣ ص ٢٣٧ ورواه مسلم جـ ٢ ص ١٠٢٠ كتاب النكاح .

الأسماء المقوتة ، والأوصاف القبيحة للتنفير من الحق وأهله ، مع استغلال حاجات الشعوب المادية الضرورية من كساء وطعام ودواء لجعل قضاء حاجاته تلك وسيلة لملء فكره وعقله قبل ملء بطنه بتلك المذاهب وفلسفاتها الهدامة ، الى حد يصل الأمر معه الى الارغام بالقوة على قبول مذاهبهم ، عند عجز الوسائل الأخرى كما هو شاهد الآن فى أكثر بلاد الدنيا ، وخاصة البلاد التى تسلطت عليها الشيوعية والالحادية .

وهذه الواقعية فى منهج الدعوة الاسلامية كان من ثمارها صفاؤها ووضوح منهجها ، واقبال الناس عليها اختيارا لا قسرا ، وقبولها عن رغبة صادقة وطلب للحق ، وادراك لمحاسنها مما هو أقوى الاسباب لنجاح الدعوة ، واقتناع الناس بها ، حتى ان المسلم الذى تتفتح فطرته لهذه الدعوة لا يخرج عن منهجها ولو قطع اربا ، ودليل ذلك ما لاقاه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم من الايذاء ممن كان من أقرب الناس اليهم ، ومع ذلك ما وهنوا وما استكانوا ، وحصل لهم الفوز بما وعدهم الله من النصر ، والتمكين فى الأرض .

وقد اعترف بهذه الخصوصية أعنى تحمل الأذى من قبل المسلمين فى مختلف العصور حتى أعداء المسلمين لأن ذلك نتيجة طبيعية من نتائج موافقة تلك الدعوة للفطرة ، كما شهد بذلك هرقل (امبراطور) الروم أمام أبى سفيان بن حرب فى ملأ من الكفار من وثنيين ونصارى عند ما سأله عن صفات الرسول صلى الله عليه وسلم ومكانته فيهم ، فكان مما سأل عنه هرقل سؤاله عن اتباع هذا النبى صلى الله عليه وسلم " أيزيدون أم ينقصون ؟ قال أبو سفيان : بل يزيدون ، قال هرقل : فهل يرتد أحد منهم سخطه لدينه بعد أن يدخل فيه قلت : لا ، قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال : قلت لا " وأخذ أبو سفيان يجيب على كل الأسئلة التى سألها هرقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم الى أن قال هرقل : سألتك عن أتباعه أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الايمان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد منهم سخطه لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا ، وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب ... "(١)

---

(١) رواه البخارى جـ ١ ص ٨ (باب بدء الوحى) .

وحيث لم يخرج أحد من الاسلام سخطه لدينه ، فذلك لقناعة كل من دخل فى هذا الدين ، وآمن بما أنزل على رسوله ، انه الحق من عند الله ، فهو لم يدخل فيه متأثرا باكراه ، لأن عدم الاكراه قاعدة هامه وأساسية فى هذا الدين ، يعرفها القاصى والدانى ، قال تعالى :

" لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى " (سورة البقرة : ٢٥٦) وذلك لأن العقيدة أمر داخلى ، تختلج فى نفس المرء لا يعرفه أحد سواه ، فكان مجرد التلفظ باللسان لا يكفى لايجاد العقيدة الصحيحه ، بل لابد من اليقين الداخلى الذى يكون التصرف الارادى تعبيرا عنه ، ودليلا عليه ، ولأن الدين الاسلامى جاء ليكرم الانسان ، ويهيىء له مجال الاستفادة من فطرته وعقله ، بطريقة سليمة ، وفق مراد الله ، ويميز بها بين الخير والشر ، ولما جاء الاسلام ليعيد الانسانية كلها الى وضعها الطبيعى فلم يكن بحاجة لاستعمال الاكراه فى دعوة الناس الى الله .

والاسلام لم يقف عند هذا الحد من عدم اكراه الناس على الدخول فيه ، بعد بيانه لهم ، بل لا يرتب على الاكراه حكما شرعيا ، حتى فى غير العبادات كالمعاملات والنكاح والطلاق ، لكون الأعمال مبناها وأساسها النية والقصد ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : " انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرء ما نوى " وقد صدر الامام البخارى - رحمه الله - كتابه الصحيح بهذا الحديث الشريف ، وجاراه فى هذا المنهج عدد من المصنفين من أهل الحديث ، وعقد بابا فى صحيحه أماه " كتاب الاكراه "(١) أورد فيه ما يربو على عشرة أحاديث صحيحه تبين أحكام الاكراه ، فى المعاملات والنكاح والعبادات وغيرها وتلك النصوص المختلفة تؤكد عدم ترتب شىء من الأحكام على الاكراه .

---

(١) صحيح البخارى جـ ٤ ص ٢٠٠ .

ولا يخفى الأثر الناتج عن مبدأ عدم الاكراه فى الدين فى نجاح الدعوة الاسلامية ، واقبال الناس عليها برغبة واختيار ، وهذا المبدأ العظيم ، وان كان فى الأصل تقريرا لحرية العقيدة ، فهو بعد ذلك تقريرا لحرية الدعوة ، ونشرها وتبليغها للناس صافية نقية كما جاءت من الله تعالى [١] .

واضافة الى ذلك فالدعوة الاسلاميه تقف بمبدأ عدم الاكراه فى الدين موقفا انسانيا كريما مع أهل البلاد المفتوحة ، حيث توجب تركهم أحرارا فى عقائدهم وشعائرهم ، مع دعوتهم بالحكمة والقدوة والموعظة الحسنة ، كما فعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع أهل "ايليا" بيت المقدس حيث كتب لهم "هذا ما أعطى عبد الله عمر بن الخطاب أهل ايليا من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم وكنائسهم وصلبانهم ، لا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم" [٢]

ولم يقف الأمر بالدعوة الاسلامية عند حد تركهم ودينهم بل تقرر أن لغير المسلمين الذين يسكنون من الحقوق العامة ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين من واجبات عامة ، والمسلمون مطالبون بحسن معاملتهم والاحسان اليهم ، وكل تلك المواقف الانسانية من الاسلام ينكرها أتباع الأديان الأخرى - خاصة فى هذا العصر - حين يتعاملون مع المسلمين الذين شاءت ارادة الله تعالى أن يعيشوا بينهم فى ذل وهوان وتعسف فى عصر العلم والرقى والتطور والحرية - كما يزعمون - ويقابلون سماحة الاسلام بالكيد للدعوة ومحاربتها بكل وسيلة ، وفتنة المسلمين عن دينهم ، وأوضح مثال لذلك الحروب الصليبية القديمة ، وثم ما تقوم به جيوش المبشرين والتبشير من جهود جبارة ضد الدعوة الاسلامية والمسلمين فى عصرنا هذا . وما تنفقه تلك الصليبية فى أوروبا وأمريكا مثلا من مبالغ طائلة لتحقيق تلك الجهود أغراضها ، مع استمرار الغزو العسكرى فى خطه المرسوم له فى فلسطين وقبرص والفلبين والحبشة وأريتريا وغيرها .. والشىء العجيب أنه مهما اختلف

(١) لزيادة الايضاح عن هذا المبدأ يراجع تفسير فى ظلال القرآن الطبعه الرابعه ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م ج ١ ص ٢٩٠ وما بعدها عند تفسير قوله تعالى : "لا اكراه فى الدين" .
(٢) تاريخ الطبرى الطبعه الثانيه ج ٣ ص ٦٠٩ .

أولئك الأعداء فى مذاهبهم المادية أو نظرياتهم فهم متفقون دائما على هدف واحد هو محاربة الاسلام والقضاء على المسلمين ، ولكنهم لن يصلوا الى هدفهم - ان شاء الله - وسيكون تدبيرهم تدميرا لهم ، لأن الله تعالى وعد المسلمين بالنصر ، اذا هم نصروا دينه ، قال تعالى :

" ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم " (سورة محمد : ٧)

والمسلم بعقيدته القوية ، وايمانه الراسخ ، يعلم أن الله قد وعده النصر والغلبة والتمكين ، مهما تكاثر الأعداء ، ومهما كانت قوتهم المادية لأن الحق يعلو ولا يعلى عليه ، والمؤمن يستيقن أنه بالرغم مما يصيبه من ضعف وقهر فستكون العاقبة له ، وأنه سينتصر باذن الله ، كما يستيقن أنه أنه مهما أصيب فى فترة من الزمن فهى فترة عارضة ثم تزول ، وانه اذا كان للباطل جوله فان للحق جولات [1] .

وهذا الشعور شىء فطرى وهبه له الله تعالى لأنه على حق بايمانه على حق فيما يدعو اليه ، وتلك الفطرة السليمة أعطته يقينا جازما بأن الله تعالى الذى منّ عليه بهذا الدين ، وتفضل عليه بهذه الدعوة المباركة ، لن يخذله لأنه يعلم أن الناس يموتون وهو يستشهد ، وهو عندما يقتل فى سبيل الله ودعوته يذهب الى الجنة وعدوه الى النار ، وهو يعلم ما أعده الله لعباده المؤمنين من نعيم فى الدنيا والآخرة ، وهو يستمد جميع تلك المعانى من الله تعالى الذى أعطاه هذا الدين الحق ، ووهبه تلك الفطرة السليمة .

وهكذا ندرك طرفا من حكم موافقة دعوة الاسلام للحق والفطرة ، وأثر ذلك فى نجاح الدعوة وقبولها من الناس ، سواء من تلك المعانى ماكان يتعلق بمبادىء الدعوة ، وهو الاسلام أو ما كان يتعلق بالأساليب والوسائل وهو التبليغ حسبما سبق فى تعريف الدعوة .

---

(١) أنظر : كتاب معالم فى الطريق للشهيد : سيد قطب ، منشورات دار الشروق ص ١٦٣ .

العامل الثالث : تدرج الدعـوة :

سبق أن أشرت عند التعريف اللغوى للدعوة أن ذلك المعنى يفيد المحاولات القوليـــة والفعلية ، والسعى الى تحقيق الهدف المطلوب ، مما قد يحتاج معه الأمر الى جهد والحاح .

ولقد كان هذا منهج الأنبياء عليهم السلام فى دعوتهم ، لأن أمر الدعوة الى الله وحده ، وافراده بالعبادة ليس عملا سهلا ، أو أمرا يسيرا ، فرسل الله ابتداء من نوح عليهم السلام كانــــوا يلاقون أصناف الأذى وأشد الابتلاء عندما يدعون قومهم الى توحيد الله وحده ، والقرآن الكريم — الذى أنزل هداية للبشر — قد حدد لنا كيف كان موقف الأمم السابقة من أنبيائهم ، وما لاقاه أولئك الأنبياء — عليهم السلام — من الاعراض والصدود عن دعوتهم ، ومعاداتهم وايذائهــم ومع ذلك صبروا واحتسبوا ، ولم تلن لهم قناه ، وساروا فى طريق دعوتهم لأنه طريق الحق والهداية ، حتى جاءهم نصر الله قال تعالى :

"ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات اللــــه ولقد جاءك من نبأ المرسلين " (سورة الأنعام : ٣٤) .

وورقة بن نوفل — الذى كان قد تنصّر وقرأ الكتب فى الجاهلية — يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم عندما جاءه يحكى له حادث نزول الوحي عليه بغار حراء : "ليتنى أكون حيا اذ يخرجك قومــك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مخرجي ؟ ! قال نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت بـه الا عودى وان يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا " (١)

والدعوة الاسلاميـة وهـي دعوة الحق لاقـت — وما زالـت تلاقي — ألوانـــا مــــن العـداء والصـدود ممـن كتب اللـه عليهـم الشقـاوة ، مـن أول يـوم ابتـدأ الرســـول

---

(١) رواه البخارى جـ ١ ص ٧ (باب كيف بدء الوحى) .

وبهذا التلخيص المقتضب للظروف المحيطة بالدعوة ، وموقف قومه منها يتبين لنا أهمية العامل الذى سنتحدث عنه فى هذا المبحث من عوامل نجاح الدعوة ، وهو التدرج سواء فى المبادىء كالتدرج فى التشريع - كما سيأتى فى موضع آخر - أو التدرج فى الأساليب ، وترتيب الرسول صلى الله عليه وسلم لدعوته بطريقة فريدة ، كانت من أسباب نجاحها وانتشارها واقبال الناس عليها .

والدارس لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم والمتتبع لمنهجه فى الدعوة يدرك كيف كان صلى الله عليه وسلم ، يدعوهم بكل وسيلة ممكنة ، برفق ولين تارة ، وبالترغيب والترهيب تارة أخرى ، ولم يزدهم ذلك الا نفورا وطيشا ، وحقدا على الرسالة ومن جاء بها ، وراحوا يتفننون فى ايذاء المسلمين واضعين فى طريق الدعوة كل عقبة سادين أمامها كل طريق ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ما يزال يزداد ثباتا على الحق ، واستمساكا بما جاءه من الهدى ، وهو الحق من ربه ، مستعملا معهم كل أسلوب ، يعتقد أنه ناجح فى دعوتهم ، مما يلهمه الله اياه ، سالكا معهم كل طريق يوصلهم الى الفوز والسعادة فى الدارين .

فجاءت أساليب الدعوة الاسلامية متنوعة ومراتبها متدرجة حسب الظروف ، والاحوال وحاجة البشر ، لأن فى ذلك التنويع والتدرج أنجح الأدوية لما أصاب الانسانية من أدواء ، وأقوى الأسباب لقبول الدعوة فى مثل هذه الأمة الجامحة ، فكان ذلك من ضرورات نجاح الدعوة ، بل ومن أهم عوامل نجاحها .

ولذلك فلابد من بيان بعض تلك الاساليب والمراتب التى سارت عليها الدعوة من أول يوم لأنه من نعم الله تعالى على دعاة الاسلام ، ومن التيسير لهم أن الدعوة الاسلامية آخذة بكل أسلوب ، حسب مقتضيات البشر وحال المدعويين ، بل ومن نعم الله تعالى على الانسانية كلها أن الدعوة الاسلامية ، تسير على تلك الأساليب التى حددها ورسمها القرآن الكريم ، وطبقها

صلى الله عليه وسلم ورتب دعوته على ضوئها ، ولا بد لأتباعه من دعاة الاسلام من تطبيق ذلك المنهج فى كل عصر وهى :

أ - أساليب الدعوة :

قال الله تعالى : " ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين " (سورة النحل : ١٢٥)

فالله تعالى فى هذه الآية الكريمة يرسم لرسوله صلى الله عليه وسلم ولدعاة الاسلام من بعده القواعد الأساسية لأساليب الدعوة الى الاسلام ، والخطاب وان كان موجها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فان كل فرد مستطيع من المسلمين داخل فيه ، لأن الخطاب الموجه له تدخل فيه أمته ما لم يرد على التخصيص [1] .

والمعنى : ادع الى سبيل ربك وهى شريعته التى شرعها لخلقه وهى الاسلام . بالحكمة : الأصل فى الحكمة جعل الشيء فى موضعه ، مما يقتضى تحرى أفضل السبل وأجداها فى استجابة المدعوين ، واختيار الأنسب من الوقت والمكان والكلام وطريقة الحوار ، وفى هذا كذلك اشارة الى استعمال الحجج القطعية المفيدة لليقين ، والدعوة بتلك الطريقة انما تكون مع البالغين فى الاستعداد للقبول درجة الكمال ، بحيث يكون من المستحسن فى مثل هذه الحال التركيز على الفطرة وطبيعتها الباحثة المتسائلة .

والموعظة الحسنة : النصح والتوجيه بأسلوب لطيف محبب ، وبطريقة مقبولة مع ملاحظة الفارق بين النفوس المقبلة والنفوس المعرضة ، والتزام الصدق والتواصى بالصبر .

---

(١) هذا هو القول الراجح فى هذه المسألة . أنظر : الاتقان فى علوم القرآن للسيوطي الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ جـ ٢ ص ٤٣ وكتاب مباحث فى علوم القرآن للشيخ مناع القطان الطبعة الرابعة سنة ١٣٩٦هـ مؤسسة الرسالة .

وفى هذه الجزئية من الآية دلالة الى استعمال الوسائل الاقناعية الموقعة للتصديق بمقومات مقبولة ، وأهل هذا الاسلوب أقوام نزلت درجتهم عن درجة الطائفة الأولى ، الا أنهم باقون على الفطرة الأصلية ظاهرون عن دنس الشغب ، وكدارات الجدال . وهم عامة الخلق .

وجادلهم بالتى هى أحسن : ان الداعى قد يضطره خصمه الألد الى استعمال الحجج الملزمة والمجادلة المفحمة ، فكأن طريق الجدال لم يكن مسلكا مقصودا بذاته ولكن يضطر له لكون الخصم مشاغبا ، ولذا لا يكون منه الا بقدر الحاجة (١) .

والدعوة الاسلامية وهى : دعوة الحق ، وسبيل الخير ، والطريق المستقيم عندما تجيز الجدال والمناظرة اضطرارا لما حطها عليه حال المدعو بسلوكه الملتوي ، المجافى لفطرة الله التى فطر الناس عليها ، تقيد تلك المجادلة بالحسنى ، والرفق فى الجدال ، واللين فى الجانب ، والخطاب الحسن ، قال تعالى : "ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم" (سورة العنكبوت : ٤٦) ، لأن هذا الأسلوب سبب لجذب المدعو وتذكيره ، واتاحة الفرصة له ليعمل فكره وعقله ، قال تعالى مخاطبا موسى وهارون عليهما السلام :

"فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى" (سورة طه : ٤٤) .

والدعوة الاسلامية بهذا الأسلوب تجافى الاكراه ، وتبتعد عن الالتواء ، ولا تركن الى زيف ، لان هذا طريق دعاة الضلال والزيغ والأضواء ، لأنه الطريق الأوحد لنجاح دعواتهم ، أما دعوة الاسلام فهى بخلاف ذلك .

---

(١) أنظر : تفسير غرائب القرآن الطبعه الثانيه جـ ١٤ ص ١٣٠ (بهامش تفسير الطبرى) .

ويلخص ابن جرير الطبرى معنى الآيه بقوله :

" يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (ادع) يا محمد من أرسلك اليه ربك بالدعاء الى طاعته (الى سبيل ربك) يقول الى شريعته التى شرعها لخلقه وهو الاسلام (بالحكمة) بوحى الله الذى يوحيه اليك وكتابه الذى ينزل عليك (والموعظة الحسنة) بالعبر الجميلة التى جعلها الله حجة عليهم فى كتابه ، وذكّرهم بها فى تنزيله كالتى عدد عليهم فى هذه السورة من حججه ، وذكرهم فيها ما ذكر من آلائه (وجادلهم بالتى هى أحسن) وخاصمهم بالخصومة التى هى أحسن من غيرها ، أن تصفح عما نالوا به عرضك من الأذى ، ولا تعصه فى القيام بالواجب من تبليغهم رسالة ربك " (١) أ . هـ

وهذه الطريقة فى الدعوة التى أرشد اليها المولى - عز وجل - هى طريقة سيد الأنبياء ابراهيم عليهما السلام السابق ذكره فى السورة فى قوله تعالى :

" ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين " (سورة النحل : ١٢٠) وقوله بعد ذلك :

" ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين " (سورة النحل : ١٢٣)

وهذه الآية وان كانت منطلقا للدعوة وقاعدتها ، فالرسول صلى الله عليه وسلم قد أخذ بكل الأساليب والوسائل المطلوبة للدعوة ، التى أرشد اليها القرآن الكريم ، من وسائل الدعوة وأساليبها ، كأسلوب الترغيب والترهيب ، وسياق القصص والاخبار عن الأمم السالفة ، وما حل بهم نتيجة عصيانهم أنبيائهم ،

---

(١) تفسير ابن جرير الطبرى الطبعه الثانيه جـ ١٤ ص ١٣١ .

وايراد الأمثال والحكم البليغة المفيدة للغرض ، وتحقيق الهدف ، وكان من أساليبها الأمر بالتفكر ، والنظر فى بدء الخلق والنشأة ، ودعوة الانسان الى التفكير فى خلقه وأصل نشأته ، وتكوينه الفريد الجسمي والعقلي ، والتفكير في عظمة السموات والأرض وغيرها ، من مخلوقات باهرة ، تدل على عظمة خالقها ، وسياق البراهين ، والأدلة المدركة بالحس والعقل ، التى تلزم المدعوين ، وتكون من أقوى الأسباب لاقناعهم ، ولقد كان كل ذلك من وسائل نجاح الدعوة ، واقبال الناس عليها ، وكشف حقيقتها .

ويطول بنا الحديث عن ايراد الوقائع العملية من الرسول صلى الله عليه وسلم فى تطبيق تلك الأساليب ، حسب ظروف وأحوال المدعوين ، واكتفى هنا بذكر حادث واحد من تلك النماذج الرائعة التى تكشف عما يتحلى به صلى الله عليه وسلم من تواضع جم ، وأسلوب مقنع ، مصداقا لقوله تعالى فى حق رسوله صلى الله عليه وسلم : " وانك لعلى خلق عظيم " (سورة القلم : ٥) .

ذلك ما كان بينه وبين عتبة بن ربيعة حيث روى أهل السير - بطرق متعددة - أن عتبة جاء النبى صلى الله عليه وسلم ، فكلمه فى أشياء يريد منه الرجوع عن دعوته ، واستعمل عتبة مع الرسول صلى الله عليه وسلم كل وسائل الاغراء ، وباسلوب ناعم ، شديد الفتنة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم الموحى اليه من الله ، الحريص على هدايتهم ، ينصت ويسمع لقوله ، لم يقاطع حديثه ، أوتتغير ملامح وجهه الشريف ، أو يعنف هذا السيد فى قومه ، حتى اذا ما فرغ عتبة لم يناقشه ، أو يناظره أو يجادله ، وانما قال : " أقد فرغت يا أبا الوليد " ؟ قال : نعم .

قال صلى الله عليه وسلم : " استمع منى " قال عتبة : أفعل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته

قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون " (سورة فصلت : ١ - ٥) ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها عليه ، فلما سمعها عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره ، معتمدا عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السجدة منها فسجد ، ثم قال : " سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذلك " فقام عتبة الى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ! فلما جلس اليهم قالوا : ما وراءك ؟ قال : ورائى أنى سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش : أطيعونى ، واجعلوها بى وخلوا بين هذا الرجل ، وبين ما هو عليه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ؛ فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وان يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم ، وأنتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم " (١)

وهكذا يكون أسلوب الدعوة ، وكذا يكون شأن الدعاة ، ونظرهم الى أحوال المدعوين ومفاهيمهم ، ومراعاة مستوياتهم العقلية والفكرية والاجتماعية وهى سبيل الحكمة والموعظة الحسنة التى تبلغ بها الدعوة درجات الرفعة والانتصار ، بعيدا عن أساليب الانفعال والحماس والمهاترات

---

(١) سيرة ابن هشام: جـ ١ ص : ٣١٣

والخروج بالدعوة عن منهج اللـه الذى حدده تعالى لدعاة الاسلام ، وطبقـه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن دعا بعده باحسان وهو ما يفقده كثير من دعاة الاسلام فى هذا العصر ، نسأل الله لنا ولهم الهداية والتوفيق .

ب - مراتب الدعـوة :

ان من أسباب نجاح دعوته صلى الله عليه وسلم ما كان سلكه عليه السلام ترتيب للدعـوة ، وتدرج فى مراتبها ، منذ أن بدأ مهام الدعـوة بعد أن نزل عليه الوحى فى قوله تعالى : " اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقـرأ وربك الأكرم . الذى علّم بالقلم . علّم الانسان ما لم يعلم " (سورة العلـق : ١ — ٥) وهى أول ما نزل من القرآن الكريم كما صح عن عائشة رضى الله عنهـا وغيرها ، وهو الصواب الذى عليه السلف والخلف (كما قال النووى [(١)])
وكان أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر النبوة الرؤيا الصالحة ، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ، ولما كان عمره الشريف أربعين سنة بعث بالنبوة ، وهذا السن هو رأس الكمال الانسانى ، وفيها تبعث الرسل [(٢)] .
نزل عليه جبريل بالوحى فى غار حراء ، وبعد ذلك نزلت سوة " يا أيها المدثر " آمرة له صراحة بالانذار ، ودعوة الناس الى الله تعالى ، وظل صلى الله عليه وسلم يدعو الناس الناس الى الاسلام ، دعوة فردية ثلاث سنين لعدم الأمر بالاظهار ، الى أن أمره الله تعالى

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى الطبعه الثانيه ١٣٩٢هـ — ١٩٧٣م (باب بدء الوحى) جـ ٢ ص ١٩٩ .

(٢) زاد المعاد لابن قيم الطبعه الثالثه ١٣٩٢هـ - ١٩٧٣م جـ ١ ص ١٩ .

باظهار الدين ، والجهر بالدعوة . فالرسول صلى الله عليه وسلم قد رتب مراحل دعوته ترتيبا حسنا ، وتدرج في تبليغها تدرجا محكما ، ينم عما كان يتحلى به صلى الله عليه وسلم من كمال النبوة ، وتوفيق الله تعالى ، وتضحية جليله في سبيل دعوته ، كما أن ذلك يدل على حرصه على سعادة أمته ، ورغبته في تحقيق ما ينفعهم ، وهكذا يكون الرسل والدعاة ، المخلصون لما يدعون اليه ، مما كفل لهذه الدعوة سرعة الانتشار ، وعظمة النجاح ، حتى دخل الناس في دين الله أفواجا بفضل الله ونعمته .

والعلامة ابن القيم (رحمه الله) قد حدد لترتيب دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم خمس مراتب هي :-

المرتبة الأولى : النبوة .

المرتبة الثانية : انذار عشيرته الأقربين .

المرتبة الثالثة : انذار قومه .

المرتبة الرابعة : انذار قوم ما أتاهم من نذير قبله ، وهم العرب قاطبة .

المرتبة الخامسة : انذار جميع من بلغته دعوته ، من الجن والانس الى آخر الدهر[1] .

وهذا التحديد لمراتب الدعوة ترتيب جيد ، حيث أن دعوته صلى الله عليه وسلم من أول ما ابتدأ الدعوة لا تخرج عن هذه المراتب ، وتدور في فلكها ، وداخل محيطها ، فما من شك أن النبوة كيان الدعوة وقاعدتها ، وهي تبدأ من تلقي الرسول صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : " اقرأ باسم ربك الذى خلق " .

---

(١) زاد المعاد لابن قيم الجوزيه ؛ الطبعه الثالثه ١٣٩٢هـ — ١٩٧٣م جـ ١ ص ٢٠ .

وأما المرتبة الثانية وهى " انذار عشيرته الأقربين " والمراد بهم صفوته وخواصه ، فقد كان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على هدايتهم ، لأن فى ذلك أقوى الأسباب على نجاح دعوته ، ولأنهم أقرب الناس له ، وأعرفهم بصدقه وأمانته ، فكان من الطبيعى أن يعرض الرسول صلى الله عليه وسلم دعوته - أولا - على الصق الناس به آل بيته وأصدقائه ، لأن هؤلاء لم تخالجهم ريبة قط فى عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجلال نفسه ، وصدق خبره ، فلا جرم أن يكون أول المؤمنين به زوجه " خديجه " ومولاه " زيد بن حارثه " وابن عمه "علي بن أبى طالب " عندما كان صبيا فى كفالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصديقه الحميم " أبو بكر الصديق " رضى الله عنهم وهكذا [1] .

ولا شك أنه كان لذلك مردوده الطيب على الدعوه ونجاحها وسرعة انتشارها . وكان من شدة حرصه على هدايتهم بعد ذلك لما رآه من اعراضهم أن أخذ يسوسهم برفق ، ملتمسا مواطن التأثير فيهم ، متدرجا معهم ، معالجا لما أصاب قلوبهم من الضلال والشرك ، بيد الطبيب الماهر الحريص على شفاء مريضه ، حتى أنه ليعمل لهم الطعام فى بيته ، ويدعوهم اليه ليطمئن قلوبهم ، ويجذبهم الى دعوته بلين ورفق ، وفى ذات مرة حاول أن يحدثهم داعيا اياهم الى الله ، بعد أن طعموا ، فقطع عمه أبو لهب حديثه ، واستنفر القوم ليقوموا ، ودعاهم صلى الله عليه وسلم فى الغداة مرة أخرى فلما طعموا نصحهم ، وكرر دعوته لهم ، فأعرضوا عنه ، وهموا بتركه ، لكن عليا نهض وقال : " أنا يارسول الله عونك ، أنا حرب على من حاربت " وكان علي يافعا دون الحلم ، وانصرف قومه مستهزئين [2] .

---

(١) أنظر : فقه السيرة الطبعه السابعه ١٣٩٦هـ — ١٩٧٦م ص ٩٩ .

(٢) أنظر : السيرة الحلبية تأليف / على برهان الدين الحلبى ؛ طبعة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م (دار المعرفه بيروت) جـ ١ ص ٤٦٠ .

وأما المرتبة الثالثة : انذار قومه ، والمراد بهم قريش ومن حولهم خاصة ، وهذه المرتبة تلى المرتبة السابقة مباشرة ، امتثالا لقوله تعالى : "فأصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . انا كفيناك المستهزئين " (سورة الحجر : ٩٤ ، ٩٥) وبعد ذلك امتثل الرسول صلى الله عليه وسلم أمر ربه ، فصعد الصفا فقال : يا معشر قريش ، فقالت قريش : محمد على الصفا يهتف ، فأقبلوا واجتمعوا فقالوا : مالك يا محمد ؟ قال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل ، أكنتم تصدقوننى ؟ قالوا : نعم ، أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذبا قط ، قال : "فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد " يا بنى عبد المطلب ، [illegible] يا بنى عبد مناف يا بنى زهره — حتى عدد الأفخاذ كلها — ان الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وانى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الآخرة نصيبا ، الا أن تقولوا : لا اله الا الله ، فقال أبو لهب : "تبا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ ! فأنزل الله تعالى " تبت يدا أبى لهب وتب " [1] السورة كلها .

والمرتبة الرابعة : انذار قوم ما آتاهم من نذير من قبله والمراد بهم العرب قاطبة ، قال تعالى : "لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون " (سورة يس : ٣٦) ولقد كان من عامة قريش أن آذوا الرسول صلى الله عليه وسلم عندما بادأهم بالدعوة ، فناله منهم من الايذاء ، ما تعجز عن حطه الجبال الرواسى ، حتى غرروا به سفاءهم ، وكثرة اساءتهم له ، وحصل منهم ما حصل ، من مؤيد للرسول من صفوته خاصة وهم قليل ، ومعارض له ومنكر لدعوته ، وهم الكثرة من قريش ، وحصل له وللمستضعفين من الايذاء الكثير

---

(١) رواه البخارى جـ ٣ ص ٢٢٢ (كتاب التفسير — تبت يدا أبى لهب وتب) ورواه مسلم جـ ١ ص ١٩٢ (كتاب الايمان — باب قوله تعالى : وأنذر عشيرتك الأقربين) ورواه أحمد جـ ٤ ص ١٨٦ فى المسند تحقيق : أحمد محمد شاكر عن ابن عباس .

- ما يطول ذكره هنا - حتى ضاق ذرعا ، وفكر في مخرج للدعوة ، يكون متنفسا يستطيع به صلى الله عليه وسلم اخراج الدعوة مما هي فيه ، من ضيق وامتحان فخرج الى الطائف وحيدا منفردا الا من صحبه مولاه "زيد بن حارثة" لا يعلم بأمره أحد ، يلتمس من ثقيف النصرة ، والمنعة بهم من قومه ، راجيا اسلامهم ، لكن رجع منهم بشر جواب ، بعد أن أغروا به سفهاءهم يسبونه ، ويصيحون به ، حتى أدموا عقبيه ففر منهم الى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة فاحتمى به ، وجلس الى ظل شجرة ، فلما اطمئن روعه وهدأت نفسه ، رفع رأسه الى السماء ضارعا في شكاية وألم ، وتعلق بالله تعالى ، قائلا : "اللهم اليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي الى من تكلني الى بعيد يتهجمني ، أو الى عدو ملكته أمري ، ان لم يكن بك على غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي " (١) الى آخر دعواته المؤثرة ، ثم رجع الى مكة ، ولما علمت قريش بخبره وسخط ثقيف عليه ازدادت له ايذاء ، ولم يصرفه كل ذلك عن الدعوة الى الله ، وجعل يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب يدعوهم الى الحق ، ويخبرهم أنه نبي مرسل ، ويسألهم أن يصدقوه ولم يكتف محمد صلى الله عليه وسلم بعرض نفسه على القبائل من العرب في مواسم الحج بمكة ، بل أتى كندة في منازلهم ، وأتى كلبا وبني حنيفة وغيرهم في منازلهم ، ولم يسمعوا منه ، بل أنكروا عليه كما فعل قومه من قريش ، وبقي على هذه الحال من الثبات على الحق ، يقابله نفور وعداوة من قومه ، وهو يعالج كل ذلك

---

(١) أنظر : سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٨ (قال الالباني في تعليقه على فقه السيرة هذا الحديث ضعيف) . أنظر فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي الطبعه السابعه ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م ص ١٣٢ .

بالحكمة والصبر ، حتى بدت له في الأفق تباشير الفوز آتية من يثرب التي يربطه بها أكثر من علاقة ، في مقدمتها علاقة القربى فلم يكن لذلك مستبعدا أن تكون يثرب مأوى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنطلقا لدعوته ، بعد أن التقى بنفر من أهل يثرب قدموا للحج ، فدعاهم الى الاسلام فآمنوا به ، وذهبوا الى يثرب ودعوا قومهم للاسلام ، وذكروا لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، حتى فشا فيهم الاسلام ، ولما كان العام المقبل وافى في الموسم من الانصار اثنا عشر رجلا لقوه بالعقبة وبايعوه ببيعة العقبة الأولى ، ثم تبعتها بيعة العقبة الكبرى التي كانت فتحا في التاريخ كله .

قال ابن اسحاق : " وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين الى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك ، حتى قدموا مكة ، فواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق ؛ حين أراد الله بهم ما أراد : من كرامته ، والنصر لنبيه، واعزاز الاسلام وأهله واذلال الشرك وأهله " (١)

ثم كانت الهجرة النبوية الشريفة للمدينة التي كانت فتحا عظيما للدعوة الاسلامية وكان لها عظيم الاثر في نجاح الدعوة الاسلامية .

المرتبة الخامسة : انذار جميع من بلغته الدعوة من الجن والانس الى آخر الدهر ، قال تعالى : " وما أرسلناك الا رحمة للعالمين " (سورة الأنبياء : ١٠٧) فرسول الله صلى الله عليه وسلم مبعوث للعالمين جميعا ، عربهم وعجمهم ، انسهم وجنهم ، بل ان دعوته لعموم البشر ، ولقد كان بقدر ما هو حريص على هداية العرب كان حريصا على

---

(١) سيرة ابن هشام تحقيق ومراجعة : محمد محي الدين عبد الحميد ، منشورات دار الفكر ج ٢ ص ٤٧ .

هداية غيرهم من البشر ، حيث كان يبعث الوفود ، ويرسل الرسل ، ويكاتب الزعماء ، ولقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم بعث ستة نفر في يوم واحد الى ملوك فارس والروم والحبشة وغيرهم من الرؤساء يدعوهم للاسلام ، لأن دعوته ناسخة لكل الشرائع قبلها ، وخاتمة لها (١) .

(١) أنظر زاد المعاد لابن قيم الجوزيه ؛ الطبعه الثالثه ١٣٩٢هـ - ١٩٧٣م ج ١ ص ٣٠ .

العامل الرابع : شمول الدعـوة :

لما كانت الدعوة الاسلامية تتصف بصفات الكمال ، لكونها دعوة ربانية ودعوة الحـق والفطرة ـ كما سبق ـ فان هدفها الاسمى أن تبلغ بالانسان أعلى قدر ممكن من الكمال المقدور له ، ونظرا لما خص الله تعالى به رسولنا صلى الله عليه وسلم من زيادة الفضل على من سواه من الرسل قبله ، وبكثير من الميزات والفضائل التى تجعل دعوته شاملة ، شمولا يستوعب المعانى الآتية :

١ ـ شمول فى المبادىء والقواعد .

٢ ـ شمول المدعوين وهم الناس جميعا .

٣ ـ شمول الزمن لأن الدعوة دائمة الى يوم القيامة .

لهذا فدعوته صلى الله عليه وسلم شاملة لشئون الحياة ، وعامة لجميع بنى البشـر ، وممتدة الى يوم القيامة على ما نبينه فى الأمور التالية :ـ

١ ـ دعوته جامعة لما سبقه به الرسل :

من رحمة الله تبارك وتعالى لعباده ، ومن عظم احسانه ، وكريم لطفه ، أن بعـث اليهم الأنبياء والمرسلين ، مبشرين ومنذرين ، ليضيئوا للعالم طريق الخير ، ويدلوهم على مسالك الهدى والرشاد ، لأن العقل البشرى مهما تطور ، وترقى عاجز عن ادراك ما فى الكون من أمور غيبية لا يمكن للبشر معرفتها الا عن طريق الوحى ، ولأن عقل البشر وحده قد يكون غير قادر على التفريق بين الخير الذى ينفعه ، والشر الذى يضره . لذلك بعث الله تعالى الأنبياء والرسل بدعوة واحدة ، هدفها واحد ، هو الأمر بافراد اللـه بالعبادة ، فكان أن اتفقت دعوتهم على الاصول العامة للدعوة كالعقائد والأخـلاق ، وتفاوتوا فى الأمور الجزئية كصور العبادات والمعاملات .

والقرآن الكريم يدلل فى عدة مواضع على أن الله بعث فى كل أمة رسولا آمرا قومه بعبادة الله وحده ، وترك عبادة ما سواه .

قال تعالى : " ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة " (سورة النحل : ٣٦) .

وكان كل رسول يبعث الى قومه خاصة ، ويأتيهم بما يناسبهم من الشرائع والمعجزات ، ولم تكن دعواتهم كاملة التفاصيل ، وانما حوت ما يستطيع العقل آنذاك هضمه وفهمه ، فكانت غير شاملة للبشر ، ولم نجد رسولا قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، قال عن نفسه : انه بعث لكل البشر ، فكانت رسالاتهم محددة لقوم معينين ، فلما جاءت دعوة الاسلام ، كان الجنس البشرى فى وضع يحتم عليه قبول رسالة كاملة شاملة ، وكانت دعوة الاسلام فيها كل العناصر التى تجعلها تناسب كل زمان ومكان ، لأنها جمعت كل الفضائل التى تفرقت على ألسنة الرسل من قبل ، فهى دعوة العدل والفضل ، ودعوة الرحمة والحرب معا ، لأنها من الله تعالى ، ولأنها دعوة الحق والفطرة ، ودعوة الخير الذى وهبه الله لعباده ، فدعوته صلى الله عليه وسلم شاملة لكل البشر ، قال تعالى : " وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون " (سورة سبأ : ٢٨)

قال القرطبى : " أى وما أرسلناك الا للناس كافة أي عامة " (١)

والقرآن الكريم ، وهو روح الدعوة ، وموجهها قد حوى جميع أصول دعوات الانبياء من قبل اضافة الى ما جاء به من الأمور التى لم يأت بها الرسل من قبل فيما يتعلق بالجزئيات كصور العبادات والمعاملات يقول الأستاذ سيد قطب - يرحمه الله - : هذا الكتاب الذى نزل بالحق يصدق ما بين يديه

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٦ تفسير سورة سبأ الآية ٢٨ .

من الديانات التي سبقته ، وامتدت الى زمانه ، يصدقها في أصولها ، فهي صورة من صور الحق التي جاء بها الرسل مناسبة لزمانهم ، محققة لأغراضها في ذلك الزمن ، وكلما تغيرت الحاجة جاء طور من الديانة جديد ، يتفق في أصله ويختلف في فروعه تدرجا مع الحاجات مع تصديق اللاحق للسابق في أصل الوحدانية الكبير " (١)

فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يأت بشيء في دعوته يخالف دعوة الأنبياء والمرسلين ، بل ان دعوته قد جاءت جامعة لما سبقه به الرسل .

قال تعالى : " شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه " (سورة الشورى : ١٣) والدين الاسلامى الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم هو دين الأنبياء من قبل فما كان الأنبياء جميعا الا على دين الاسلام ، غير أنه كان هناك فرقا يسير بين طرق الأنبياء في الارشاد ، وقوانينهم للحياة كل حسب حال قومه الذين بعث فيهم ، وعندما أصبح البشر في وضعهم المناسب لدعوة شاملة جاءت دعوة الاسلام ، تحمل كل معانى السعادة للبشر ، ووسائل الفوز في الدارين الدنيا والآخرة ، وكانت تلك السمات للدعوة الاسلامية في مقدمة أسباب وعوامل نجاح الدعوة الاسلامية (٢) .

٢ ـ دعوة ناسخة وخاتمة :

تحدثت في الفقرة السابقة عن علاقة الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته ، بالانبياء والرسل السابقين ، وأن دعوته جامعة لما سبقه به الرسل ، لأن دعوة الرسل تتفق في الاصول العامة ، والقواعد الكلية ، وتتفاوت في الأمور

(١) أنظر في ظلال القرآن جـ ٣ ص ٣٦٨ .
(٢) أنظر كتاب مبادىء الاسلام للمودودى ص ٥٣ ـ الطبعة السابعة .

الجزئية ، فدعوته صلى الله عليه وسلم وهى دعوة الاسلام ، دعوة الأنبياء قبله ، وزادت عليها ببعض الفضائل التى يحتاجها البشر فى أمور الدنيا والدين ، ويترتب على تلك المميزات والخصائص للدعوة الاسلامية ، من كونها دعوة جامعة الا يزاحمها شئ من الدعوات ، وأن تنسخ ما قبلها من الدعوات بحيث تحويها وتتمها ، مما يجعل الدعوة الاسلامية أكمل الدعوات ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل البشر ، وأمة الاسلام خير الأمم ، فالشريعه الاسلامية ناسخة لما قبلها من الدعوات من وجهة ، مكملة ومتممة لها من وجه آخر ، ونتج عن ذلك كمال الشريعة ، واحتوائها على حاجات البشر ، وبقى دورهم فيها العمل والاتباع قال تعالى : " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا "

(سورة المائدة : ٣)

قال الامام أبو محمد بن حزم (١) : " نسخ عز وجل بملته صلى الله عليه وسلم كل ملة ، وألزم أهل الأرض جنهم وإنسهم اتباع شريعته التى بعث بها ، ولا يقبل من أحد سواها ، وأنه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين لا نبى بعده ، برهان ذلك قوله تعالى : " ما كان محمدا أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين " (سورة الأحزاب : ٤٠) (ثم ساق حديثا بسنده الى أنس بن مالك قال) : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ان النبوة والرسالة قد انقطعت فجزع الناس ، فقال : قد بقيت مبشرات وهى جزء من النبوة " (٢)

وقد عقد الامام مسلم فى الصحيح بابا أسماه (باب وجوب الايمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الى جميع الناس ونسخ الملل بملته) أورد فيه قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

---

(١) ابن حزم : هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم (الظاهرى) ينتهى نسبه الى سفيان بن يزيد مولى يزيد بن أبى سفيان بن حرب ولد بقرطبة سنة ٣٨٤هـ كان مجتهدا بارعا فى العلوم الشرعية ، صنف عددا من الكتب المشهورة . توفى ٤٥٦هـ أنظر : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٩١ .

(٢) كتاب المحلى جـ ١ ص ١١ (وحديث لم يبق من المبشرات) صحيح رواه البخارى فى باب المبشرات جـ ٤ ص ٩ وفى مسند أحمد جـ ٣ ص ٢٧٥ وفى سنن الترمذى - كتاب الرؤيا - باب المبشرات) .

" ما من الأنبياء نبي الا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وانما كان الذى أوتيت وحيا أوحى الله الى فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة "(١)

ورسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء ، أعطاه الله تعالى من الفضائل التى لم تعط لبشر مثله ، وقد ورد من الأخبار ، والآثار فى فضله ما يجل حصره ، والقرآن الكريم قد صرح بما لا يدع مجالا للشك بأن رسول الله خاتم النبيين ، قال تعالى : " ما كان محمد ا أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين " (سورة الأحزاب : ٤٠) ورسول الله أول الأنبياء فى الخلق وآخرهم فى البعث ، وهو أفضل الأنبياء فى المنزلة والمكانة ، عند الله تعالى وملائكته ورسله ، وعند أهل الثقلين انسهم وجنهم ، ونظرا لما له من مكانة عالية ، ومنزلة رفيعة ، وفضل عظيم عند الله تعالى ، ختم به النبوة والرسالة ، فكان عليه السلام ختام المسك ، روى الشيخان - بسند يهما - عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " مثلى ومثل الأنبياء ، كمثل رجل بنى دارا فأتمها وأكملها الا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون : لولا موضع اللبنة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء "(٢)

(فالله تعالى جعل رسوله صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء ، وجعل كتابه مهيمنا على ما بين يديه من كتب السماء ، وجعل دعوته عامة للثقلين الجن والانس ، باقية الى يوم القيامة ، وانقطعت به حجة العباد وبين الله به كل شئ ، وأكمل له ولأمته الدين ، وعلق طاعته تعالى بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومعصيته بمعصيته ، وأقسم تعالى بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى

---

(١) صحيح مسلم جـ ١ ص ١٣٤ (كتاب الايمان) ومثله عند البخارى فى (كتاب فضائل القرآن - باب نزول الوحى) جـ ٣ ص ٢٢٤ .
(٢) رواه البخارى (كتاب بدء الخلق - باب خاتم النبيين) جـ ٢ ص ٢٧٠ ورواه مسلم (كتاب الفضائل - باب ذكر كونه خاتم النبيين) جـ ٤ ص ١٧٩٢ .

يحكموه فيما شجر بينهم ، وأخبر أنه لا يتحاكم الى غير رسوله ومنهجه الا منافق ، فكل من طلب تحكيم أمر غير ما جاء به وظنه حسن فهو باطل ، وأعظم من ذلك زورا وكذبا من ادعى النبوة بعده ، وهذا المدعى تظهر امارات كذبه وان ادعى المعجزات الخارقة ، والبراهين الكاذبة ، لأن هذا محال ، فالله تعالى لما أخبر عن رسوله صلى الله عليه وسلم أنه خاتم النبيين ، فمن المحال أن يأتي مدع يدعى النبوة ، ولا يظهر الله أمارة كذبه في دعواه لأنها دعوى غي وهوى)(١)

فكان في مقدمة أسباب نجاح دعوته صلى الله عليه وسلم نسخها لما قبلها من الدعوات ، وكونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين فرسالته عامة للثقلين ، لما فيها من الخير والسعادة ، ولما حوته من الكمال في جميع النواحي ، فكانت خير دعوة . ووجب على البشر القبول لها ، والامتثال لمنهجها الى قيام الساعة .

٣ ـ استيعابها لكل تصرفات البشر وحاجاتهم :

ان الدين الاسلامي ، ودعوته المباركة يحتويان على النظام الشامل لجميع شئون الحياة ، وسلوك المرء ، وأحكام الاسلام الثابتة شرعا وهي : الأمر أو النهي أو التخيير لا تخرج عن متعلق أفعال البشر ، حيث تدور معها ولا تنفك عنها على مدى عمر المرء المسلم ، ليله ونهاره ، نومه ويقظته ، أكله وشربه ، عبادته ومعاملته ، فأحكام الاسلام لا تخرج عنها واقعة من وقائع الحياة الانسانية .

وبهذا الشمول تخالف الدعوة الاسلامية كل دعوة غيرها وبخاصة الوضعية التي لا تتدخل

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية الطبعة الثالثة ص ٨ ، ١١٤ (ببعض التصرف) .

فى تصرفات البشر الا فى أضيق صوره لانها عاجزة أن تقدم له التفسير الكامل للحياة ، وقاصرة عن أن تهيء له المنهج الكامل الذى يسير عليه ، أما دعوة الاسلام فهى دعوة شاملة ، منحها الله لعباده لأنه العالم بكل شيء ، المالك لكل شيء ، فهو تعالى وله المثل الأعلى — يشرع للبشر ، ويعطى لهم حسب مقدرتهم ، وفطرهم ، وعلم بنفسياتهم ، فالدعوة الاسلامية تنظم علاقة المرء بربه وخالقه وعلاقته بنفسه ، بل علاقته بما فى الكون من كائنات من حيوان وجماد وغيره ، وعلاقته بأخيه الانسان لأن تلك العلاقة التى يرعاها الله ، يترتب بموجبها للمرء حقوق ، ويلزمه بسببها واجبات ، فكان أن شملت الدعوة الاسلامية تلك العلاقة ، فأحكمتها بأسلوب بديع شامل لا يأتيه العيب ، ولا يتسلل اليه العطب ، وكان من نتاج هذا الشمول اتصاف الدعوة الاسلامية بميزات فريدة كالتوازن والواقعية والايجابية — مما يضيق المجال عن ذكره — فى دعوة الاسلام[1] .

فكان أن نجحت الدعوة الاسلامية نجاحا منقطع النظير ، وانتشرت انتشارا منعدم المثيل ، لأن منهج الدعوة الاسلامية هو المنهج الوحيد الذى يعرف طريقه الى النفس البشرية منذ اللمسة الأولى يعرف دروبها ومنحنياتها ، فيتدسس اليها بلطف ويعرف مداخلها ومخارجها فيسلك اليها على استقامة ، ويعرف قواها ومقدراتها فلا يتجاوزها أبدا ، ويعرف حاجاتها فيلبيها تماما ، ويعرف طاقاتها الأصلية البانية فيطلقها للعمل والبناء[2] . بخلاف ما يعتقده البعض ممن انحرفوا على طريق الحق والهداية من أن هذا الشمول للحياة فى منهج الاسلام لا يعدوا أن يكون قيودا ، فيأخذون ينادون بالحرية الشخصية

---

(١) أنظر : خصائص التصور الاسلامى ص ١٠٩ وما بعدها .
(٢) أنظر : كتاب هذا الدين سيد قطب ص ٢٧ .

— كما يسمونها — ويسعون الى قصر الدين على العبادات فقط ، ويريدون حصر الدين في المساجد بعيدا عن التعامل والأخلاق ، وهؤلاء مخطئون وواهمون ، ومنشأ تصورهم هذا عدم ادراك حقيقة هذا الدين وطبيعته (١) .

والدعوة الاسلامية بشمولها الكامل للحياة والوجود والكون تخالف في عمومها أيضا الدعوات السماوية قبلها ، التى نسخت بهذه الدعوة الخاتمة ، لأن كل دعوة منها ، وان كانت سماوية من الله تعالى في أصلها ، فقد كانت خاصة لأن كل دعوة منها جاءت لتعالج ناحية من نواحى حياة الانسان ، فدعوة موسى - عليه السلام - جاءت لعلاج الوثنية ، وتحويل الناس الى توحيد الله ، ثم جاءت بعدها دعوة عيسى - عليه السلام - وقد أصبح الناس ماديين لا يقدسون سوى المادة ، فاهتمت المسيحية بالناحية الروحية والأخلاق ، وغرست في نفوس أتباعها مزيدا من التسامح والوداعة والرحمة ، ثم جاءت الدعوة الاسلامية وقد استوت البشرية على حال تحتم عليها أن تسير في طريق يؤدى الى دين متكامل الجوانب ، يعالج مشكلات الحياة كلها ، ويرسم لها الحل السماوى الذى لا حل سواه ، فكانت الدعوة الاسلامية خاتمة لتلك الدعوات وشاملة لها (٢) .

فالدعوة الاسلامية باستيعابها لكل تصرفات البشر وحاجاتهم تصبح هى الدعوة الشاملة الصالحة لكل زمان ومكان ، وهذا مما امتازت به عن غيرها ، وكان من أقوى الضمانات لنجاحها الى أن تقوم الساعة .

---

(١) أنظر : كتاب هذا الدين ص ٢٩ .
(٢) أنظر : عالمية الدعوة الاسلامية للدكتور على عبد الحليم محمود الطبعه الثانية ١٣٩٩هـ جـ ١ ص ٤٤٣ .

٤ - دعوة عامة لبني البشر :

سبق أن أشرت في مقدمة هذا المبحث أن مما يستوعبه شمول الدعوة شمول الزمن بامتداد الدعوة لعموم البشر الى يوم القيامة ، لذلك خصصت هذه الجزئية للحديث عن عموم الدعوة لبني البشر في كل زمان ومكان ، وهذا العموم وان كان يدل على شمول الدعوة ، فان ما سبق بيانه من ميزات للدعوة في هذا المبحث في مقدمة الأدلة على عموم الدعوة الاسلامية ، حيث أنه مما اختص الله به رسوله صلى الله عليه وسلم دون سواه من الأنبياء والمرسلين ، بعثه الى الناس عامة في كل زمان ومكان ، كما جاء في الحديث الصحيح عن جابر بن عبد الله — رضي الله عنه — أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة " (١)

وفي رواية عند مسلم : " كان كل نبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى كل أحمر وأسود " (٢)

وفي رواية أخرى عند مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " فضلت على الأنبياء بست " ذكر منها قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " وأرسلت الى الخلق كافة ، وختم بي النبيون " (٣)

فحكم عموم دعوته ، وكونه مبعوثا الى الناس كافة ، ودعوته عامة للثقلين الجن والانس معلوم من دين الاسلام بالضرورة (٤) .

---

(١) رواه البخاري (كتاب التيمم) جـ ١ ص ٧٠ .
(٢) رواه مسلم (كتاب المساجد) جـ ١ ص ٣٧١ .
(٣) صحيح مسلم جـ ١ ص ٣٧١ .
(٤) أنظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ١١٦ وتفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٥٤ .

وأدلة ذلك من الكتاب والسنة مستفيضة ومتواترة بخلاف من يدعى أنه عليه السلام رسول للعرب خاصة — كبعض النصارى — لبطلان هذه الدعوى بدليل أنهم لما صدقوا بالرسالة لزمهم تصديقه فى كل ما يخبر به ، وقد قال عليه السلام : " وبعثت الى الناس عامة " والرسول لا يكذب ، فلزمهم تصديقه حتما ، كما قد ثبت أنه أرسل رسله ، وبعث كتبه فى أقطار الأرض الى كسرى وقيصر والنجاشى وسائر ملوك الأطراف يدعو الى الاسلام ، بل ان بعضهم صدقه كالنجاشى ، ومن خالفه لم يكن لعدم تصديقه ، بل كان من الخوف على سلطانه وملكه ، كما حصل من هرقل (١) .

ولقد كانت تلك البلاد تجمع كل الديانات من يهودية ونصرانية ومجوسية وغيرها ، كما أن فى ارساله عليه السلام تلك الرسل ، وبعثه الكتب رد على (السير وليم ميور) وغيره من القائلين ان فكرة عالمية الدعوة الاسلامية قد جاءت فيما بعد ، ولم يفكر فيها الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه طوال العهد المكى (٢) .

وليس هناك دليل لما يزعمونه بل الأدلة متواترة على أنه عليه السلام قد علمه الله من بادئ الأمر أن الدين الاسلامى دين عالمى ، وأن الدعوة الاسلامية دعوة عالمية ، لجميع البشر ، والأدلة على ذلك نقلية وعقلية كثيرة منها :-

أولا : القرآن الكريم

قال تعالى : " وما أرسلناك الا كافّة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون " (سورة سبأ : ٢٨) .

قال ابن جرير : " يقول الله تعالى — جل ذكره — وما أرسلناك يامحمد الى

---

(١) أنظر : صحيح البخارى جـ ١ ص ٩ .
(٢) أنظر : كتاب الدعوة الى الاسلام للسير توماس أورنولد) ترجمة حسن ابراهيم ورفقاه ص ٤٨ .

هؤلاء المشركين بالله من قومك خاصة ، ولكنا أرسلناك كافّة للناس أجمعين العرب منهم والعجم والأحمر والأسود بشيرا لمن أطاعك ونذيرا لمن كذبك ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الله أرسلك كذلك الى جميع البشر " (١)

وقال القرطبي : " وما أرسلناك الا للناس كافّة أى عامة ، ففى الكلام تقديم وتأخير ، وقال الزجاج (٢) : وما أرسلناك الا جامعا للناس بالابلاغ والانذار " (٣)

وقال تعالى : " وأوحى الىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ .. " (سورة الأنعام : ١٩)

قال مقاتل : " من بلغه القرآن من الجن والانس فهو نذير له "

وقال القرطبى : " من بلغه القرآن فكأنما قد رأى محمدا صلى الله عليه وسلم وسمع منه " (٤)

وقال تعالى : " قل يأيها الناس انى رسول الله اليكم الذى له ملك السموات والأرض لا اله الا هو يحى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون " (سورة الأعراف : ١٥٨)

قال ابن كثير : " يقول الله تعالى لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم قل للناس ، وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربى والعجمى (انى رسول الله اليكم جميعا) أى جميعكم وهذا من شرفه وعظمته صلى الله عليه وسلم أنه خاتم النبيين ، وأنه مبعوث الى الناس كافّة ، والآيات فى هذا كثيرة ، كما أن الأحاديث فى هذا أكثر من أن تحصر وهو معلوم من دين

---

(١) تفسير ابن جرير الطبرى جـ ٢ ص ٦٦ .
(٢) الزجاج : هو ابراهيم بن السيرى بن سهل الزجاج عالم بالنحو واللغة له عدة مؤلفات عن القرآن الكريم خاصة . ولد ببغداد ومات فيها سنة ٣١١هـ أنظر : البداية والنهاية جـ ١١ ص ١٤٨ .
(٣) تفسير القرطبى جـ ٦ سورة سبأ .
(٤) تفسير القرطبى جـ ٣ سورة الأنعام .

الاسلام ضرورة أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول الى الناس كلهم " (١) .

وقال تعالى : " تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا " (سورة الفرقان : ١) والآيات فى هذا الموضع كثيرة .

ثانيا : السنة النبوية

فى سنة امام الدعاة صلى الله عليه وسلم من الادلة القولية والعملية الدالة على عموم دعوته الشىء الكثير ، لأن دعوته — كما سبق — لم تكن للعرب فقط ، أو لطائفة أو جنس أو لون من البشر ، بل ان دعوته للعالمين فى كل زمان ومكان ، وقد جاء فى سنته — وهو الذى لا ينطق عن الهوى — الشىء الكثير فى هذا المعنى ، مما لا يسع معه البشرية جميعا الا اتباع هذا النبى الأمي ، حيث لا عاصم لهم من عذاب الله الا الايمان بالقرآن الذى أنزل عليه ، واتباع سنته الشريفة التى هى العمل التطبيقى منه صلى الله عليه وسلم لهذا القرآن ، وسأكتفى بايراد بعض الاحاديث الدالة على عموم دعوته صلى الله عليه وسلم ، مكتفيا بالصحيح منها لأن فيه الغنى ، وبيان الحقيقة للباحث عنها .

أ — روى الشيخان فى صحيحهما عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فيصل وأحلت لى المغانم ولم تحل لأحد قبلى وأعطيت الشفاعة وكان النبى يبعث الى قومه خاصة ، وبعثت الى الناس عامة " (٢)

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٥٤ .
(٢) رواه البخارى فى كتاب التيمم جـ ١ ص ٧٠ ورواه مسلم فى كتاب المساجد جـ ١ ص ٣٧١ .

ب - روى مسلم فى الصحيح : عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به الا كان من أصحاب النار " (١)

فالحديث هنا خص أهل الكتاب بالذكر مع أن لهم أنبياء سابقين ، وكتب سابقة ، ويدخل غيرهم - ممن ليس لهم ذلك - بالطريق الأولى

وفى رواية أخرى عند مسلم " كان كل نبى يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى كل أحمر وأسود " (٢) وهذا واضح فى العموم لأهل الكتاب وغيرهم .

ثالثا : أدلة أخرى

ما سبق كاف فى الدلالة القاطعة على عموم دعوة الاسلام للناس جميعا ولكننا نزيد الأمر ايضاحا بذكر أدلة أخرى منها :

١ - دعوة الحق التى بشر بها النبيون

لقد أراد الله تعالى لهذا الدين أن يكون آخر الأديان وأكملها ، وأن يكون رسوله خير الرسل وأفضلهم ومسك الختام فى حلقات الرسل والنبيين ، وأن تكون أمته خير الأمم ، فأوجب على أمة الاسلام عموما ابتداء من امام الدعاة صلى الله عليه وسلم أن يدعوا الناس كافّة لهذا الدين ، وأخبر المولى سبحانه أنه أكمل للبشرية دينهم ، وأتم عليهم النعمة ، ورضى الاسلام لخلقه دينا ، ولن يقبل من أحد سواه " ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين " (سورة آل عمران : ٨٥) .

---

(١) صحيح مسلم جـ ١ ص ١٣٤ (كتاب الايمان - باب وجوب الايمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم) .
(٢) صحيح مسلم جـ ١ ص ٣٧١ (كتاب المساجد) .

ومقتضى عدله تعالى ورحمته بعباده أن لا يطالبهم الا بالحق والعدل المتمشيين مع الفطرة التى فطر الناس عليها ، ومن هذا المنطلق - ولورود الأدلة الكثيرة - فان الله تعالى أوجب على أنبيائه السابقين بوحيه تعالى اليهم أن يبلغوا قومهم اتباع هذا الرسول ، ولكن لسبب ما كالضلالة أو الحسد ، ومخالفة لرسلهم يعرض هؤلاء الأتباع عن اتباع ما جاءهم من الحق حسدا من عند أنفسهم ، وكتمانا للحق ، وانكارا للحقيقة ، قال تعالى فى شأنهم : " الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون " (سورة البقرة : ١٤٦) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح - عند مسلم - " والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولا يؤمن بالذى أرسلت به الا كان من أصحاب النار "(١) .

قال ابن كثير : " فالذى يقطع به من كتاب الله وسنة رسوله ، ومن حيث المعنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بشرت به الأنبياء قبله وأتباع الأنبياء يعلمون ذلك ، ولكن أكثرهم يكتمون ذلك ويخفونه . قال تعالى : " الذين يتبعون الرسول النبى الأمي الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون " (سورة الاعراف : ١٥٧) وقال تعالى : " والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق " (سورة الأنعام : ١١٤) . وفى صحيح مسلم " بعثت الى كل أحمر وأسود "(٢) قيل الى العرب

---

(١) رواه مسلم جـ ١ ص ١٣٤ .
(٢) رواه مسلم جـ ١ ص ١٣٤ (كتاب الايمان - باب وجوب الايمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم) .

والعجم ، وقيل : الى الانس والجن ، والمقصود أن البشارات به صلى الله عليه وسلم موجودة من الكتب الموروثة عن الأنبياء عليهم السلام قبل ، حتى تناهت النبوة الى آخر أنبياء بنى اسرائيل ، وهو عيسى بن مريم وقد قام بهذه البشارة فى بنى اسرائيل ، وقص الله خبره فى ذلك فقال تعالى : "واذ قال عيسى بن مريم يا بنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين" (سورة الصف : ٦) فاخبار محمد صلى الله عليه وسلم بأن ذكره موجود فى الكتب المتقدمة ، فيما جاء به من القرآن ، وفيما ورد عنه من الأحاديث الصحيحة ، وهو مع ذلك من أعقل الخلق باتفاق الموافق والمفارق يدل على صدقه فى ذلك قطعا ، لأنه لو لم يكن واثقا بما أخبر به من ذلك ، لكان ذلك من أشد المنفرات منه ، ولا يقدم على ذلك عاقل ، ثم انه قد انتشرت دعوته فى المشارق والمغارب ، وعمت دولة أمته فى أقطار الآفاق عموما لم يحصل لأمة من الأمم قبلها ، فلو لم يكن صلى الله عليه وسلم نبيا لكل البشر لكان ضرره أعظم من كل أحد ، ولو كان كذلك لحذر عنه الأنبياء أشد التحذير ، ولنفروا أممهم منه أشد التنفير ، فانهم جميعهم قد حذروا من دعاة الضلالة فى كتبهم ، ونهوا أممهم عن اتباعهم والاقتداء بهم ، ونصوا على المسيح الدجال ، الأعور الكذاب ، حتى قد أنذر نوح — وهو أول الرسل — قومه ، ومعلوم أنه لم ينص نبى على التحذير من محمد ، ولا التنفير منه ، ولا الاخبار عنه خلاف مدحه والثناء عليه ، والبشارة بوجوده ، والأمر باتباعه ، والنهى عن مخالفته ، والخروج عن طاعته "[1].

وفيما تقدم وغيره من الأدلة والبراهين سواء كان من آيات القرآن ، والأحاديث

---

(١) البداية والنهاية جـ ٦ ص ١٧٧ (وقد أوردت هذا النص بطوله لما فيه من البراهين والأدله الواضحة لما نحن بصدده) .

النبوية ، وأقوال علماء السلف على عموم الدعوة الاسلامية ما لا يدع مجالا للشك فى ذلك ، ونتجاوز عن كل هذا الى أقوال بعض الكتاب المعاصرين ، عندما قالوا الحقيقة ، وعبروا عن الواقع ، ونكتفى برأى مستشرق واحد مشهور ، انه المستشرق الانجليزى (سير توماس . و . أورلند) حيث عقد فصلا فى كتابه المشهور (الدعوة الى الاسلام) تحت عنوان " الاسلام دين عالمى " قال فيه : " وفى القرآن الكريم آيات كثيرة توجه الأنظار الى منشأ هذا الشور القومى ، وتحث أهل بلاد العرب على ادراك ما منحوه من فضل بنزول الوحى الالهى بلغتهم ، وعلى لسان واحد منهم كقوله تعالى : " انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون " (سورة الزخرف : ٣) ولم تكن رسالة الاسلام مقصورة على بلاد العرب بل للعالم أجمع نصيبا منها ، ولما لم يكن هناك غير اله واحد ، كذلك لم يكن هناك غير دين واحد ، يدعى اليه الناس كافّة ، ولكى تكون هذه الدعوة عامة ، وتحدث أثرها المنشود فى جميع الشعوب فى كل زمان ومكان ، نراها تتخذ صورة عملية فى الكتب التى ثبت أن النبى - صلى الله عليه وسلم - بعثها فى السنة السادسة من الهجرة الى عظماء ملوك ذلك العصر امتثالا لأمر الله فى قول الحق - عز اسمه - : " ان هو الا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين " (سورة ص : ٨٧ ، ٨٨) وقوله تعالى : " وما أرسلناك الا كافّة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون " (سورة سبأ : ٢٨) وغير ذلك من الآيات المنزلة من عند الله - تعالى - التى تنطق بمطالبة البشرية كلها أن ترتضى الاسلام دينا ، وتتبع ما دعا اليه الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون من بعده ، وتثبت به الحجة على من يخالف هذه الدعوة فى قول النبى صلى الله وسلم مبشرا ان بلالا " أول ثمار الحبشة " وان صهيبا " أول ثمار الروم " أما سلمان وهو أول من أسلم من الفرس فقد كان

عبدا نصرانيا بالمدينة اعتنق الاسلام فى السنة الأولى من الهجرة النبوية للمدينة ، وهكذا صرح الرسول - عليه السلام - بكل وضوح وجلاء ، أن الاسلام ليس مقصورا على النوع العربى قبل أن يدور بخلد العرب أى شئ يتعلق بحياة الفتح الاسلامى والجهاد ، ومما يؤكد عموم الدعوة الاسلامية لجميع البشر ، والحق فى المطالبة بأن يستجيب لها جميع الناس ، بعد أن بشر بها النبيون السابقون أن الدين الاسلامى كان الدين السماوى الذى اختاره الله للبشر كافّة ، ثم أوحى به اليهم من جديد على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، خاتم النبيين ، كما أوحى به من قبل على لسان غيره من الرسل [1].

٢ - الرسول عام وغيره خاص :

ان من أدلة عموم الدعوة الاسلامية كون الرسول صلى الله عليه وسلم عام بخلاف غيره من الأنبياء والمرسلين فهم خواص لقوم معينين من الناس فقط ، كما تقرر ذلك حتى الشرائع السابقة ، بعد أن بشّر أنبياؤهم به رسولا للبشرية جمعاء ، فى حين لم نجد رسولا قبله قال عن نفسه أنه رسول للناس كافّة ، وطالب غير قومه باتباعه ، حيث أن القرآن الكريم يورد لنا تصريح كل منهم لاخوانه من أبناء قومه انه انما بعث لأبناء قومه ، قال تعالى عن نوح عليه السلام : "انا أرسلنا نوحا الى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم (سورة نوح : ١) وكذلك هود عليه السلام ، قال تعالى عنه : "والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون" (سورة الأعراف : ٦٥) وكذلك قوم

---

(١) الدعوة الى الاسلام - بتصرف - ص ٤٨ وما بعدها (وحديث "انا سابق العرب وصهيب سابق الروم وسلمان سابق الفرس وبلال سابق الحبش" رواه الحاكم فى المستدرك جـ ٣ ص ٤٠٢ وقال السيوطى : حديث حسن) .

صالح وشعيب أرسل الله الى كل منهم نبى الى قومه خاصة ، قال تعالى : " والى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم أعبدوا الله ما لكم من اله غيره " (سورة الأعراف : ٧٣) وفى حق شعيب عليه السلام قال تعالى : " والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالك من اله غيره " (سورة الأعراف : ٨٥) وعيسى عليه السلام مرسل لبنى اسرائيل ، قال تعالى : " ورسولا الى بنى اسرائيل انى قد جئتكم بآية من ربكم " (سورة آل عمران : ٤٩) أما محمد صلى الله عليه وسلم فليس فى القرآن الكريم ما يدل على أنه رسول للعرب أو غيرهم فقط ، بل الدليل قائم على أنه رسول لقومه وغيرهم ، كما أنه أكثر ما يرد نعته فى القرآن الكريم بصيغة العموم كرسول الله ، وعبده ، والبشير النذير الى آخر الأسماء والنعوت الدالة على عظيم مكانته ، وعلو منزلته ، وكبير فضله على البشرية جميعا ، قال تعالى : " وما أرسلناك الا كافّة للناس بشيرا ونذيرا ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون " (سورة سبأ : ٢٨) .

٣ - اختصاص الاسلام بالتسمية :

عندما ننظر فى مختلف الديانات السابقة ، ونستقرىء تسميتها ، ونسبتها نجدها لا تخرج فى تسميتها ونعتها عن : اما نسبتها الى اسم رجل خاص ، واما الى أمة معينة ، فالمسيحية مثلا أخذت اسمها من السيد المسيح عليه السلام ، وقبلها اليهودية كانت ظهرت بين ظهرانى قبيلة تعرف بيهوذا ، فسميت اليهودية ، وتسمت البوذية على اسم بانيها بوذا ، واشتهرت الزردشتية بمؤسسها وحامل لوائها (زرادشت) وهلم جرا .. الا الاسلام ، ودعوته فانهما لا ينتسبان الى رجل خاص ، ولا الى أمة بعينها ، وانما يدل اسمه على صفة خاصة يتضمنها معنى كلمة الاسلام .

وعند ما نرجع الى معاجم اللغة ، وأقوال المحققين نجد أن كلمة الاسلام هي "الانقياد والامتثال لأمر الآمر ونهيه بلا اعتراض" وهو الله تعالى ، المستحق أن يفرد بالطاعة دون سواه ، ويظهر لنا من هذه التسمية ، وهذه الميزة التى انفرد بها الاسلام ، أنه ما عني بايجاد هذا الدين ، وتأسيسه رجل من البشر ، وليس خاصا بأمة دون سائر الأمم ، وانما غايته أن يتحلى جميع أهل الارض بصفة الاسلام ، فكل متصف بها فهو مسلم فى أى زمان ومكان وهذا فى مقدمة الدلالات على عموم الدعوة الاسلامية ، وفى مقدمة أسباب نجاحها [١] .

٤ - كمال الدعوة :

ان المرء أينما نظر فى الدين الاسلامى ودعوته ، وحيثما أدار فكره على أحكام الاسلام ومبادئه ، ومميزات الدعوة الاسلامية وشمولها ، يجد صفات الكمال فى هذه الدعوة ، وذلك باتمام نعمة المولى عز وجل على عباده بهذا الدين الذى ارتضاه للبشرية ، بعد أن جاء به على لسان خاتم رسله ، وأفضلهم ، ونسخ به الشرائع والملل - كما سبق - ليستدل بذلك على عموم الدعوة الاسلامية من تلك المعانى الكثيرة ، لأن الدعوة بتلك الميزات والسمات تحقق ما تسعى اليه البشرية دائما من طلبها حياة سعيدة ، تحصل بواسطتها مصالح البشر ، بعد أن تفى بحاجاتهم المادية والمعنوية ، ولا تضيق بها ، وتجذب لها العدالة والمساواة ، وبحيث تقضى على أى جور أو ظلم ، وتعطى صاحب الحق حقه ، ليقطف الخلق ثمار هذه النعم يوم القيامة بالجنة ونعيمها ، التى يجب أن يقصدها كل من له أدنى عقل

---

(١) أنظر كتاب : مبادىء الاسلام للمودودى ؛ الطبعه السابعه ص ٣ .

وفكر ، لما فيها من نعيم مقيم ، والحذر من النار وعذابها السرمدى ، بعد أن أرسل الله تعالى رسوله صلى الله عليه رحمة للبشرية كلها ، مصداقا لقوله تعالى : "وما أرسلناك الا رحمة للعالمين" (سورة الأنبياء : ١٠٧)

٥ - العموم من الضرورات للبشر :

من المعلوم أن الله تعالى قد تكفل بمصالح البشر ، وأن الأنبياء هم الواسطة بين الله وخلقه فى التبليغ عنه ، وقد ختموا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولا نبى بعده ، فمن الضرورى أن تكون هذه الدعوة الوافية بمصالح البشر الشاملة لجميع حاجاتهم ، المحققه لمطالبهم ، أن تكون مؤهلة للعموم، صالحة للبقاء ، وهذا هو الثابت بكل حال ، فيصبح عموم الدعوة لكل البشر ضرورة من ضروريات الحياة البشرية ، ولازم من لوازمها .

٦ - بقاء الدعوة ببقاء المعجزة :

عند ما ننظر فى معجزات الرسل - عليهم السلام - نجد أن الله تعالى قد أعطى كل رسول معجزة ، تكون دليلا على صدق رسالته ، وتلك المعجزات تكون حسية أو عقلية ، وأكثر معجزات بنى اسرائيل كانت حسية ، لشدة تمردهم وعتوهم ، والرسول صلى الله عليه وسلم أعطاه تعالى معجزات حسية وعقلية ، ولكن عماد معجزاته هو القرآن الكريم ، وهو معجزة تخاطب الفكر والعقل لطاعة أمته .

ولقد كان كل رسول قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، تذهب معجزته الحسية بذهابه ، الا أن الدعوة الاسلامية لما كانت باقية على صفحات الدهر الى يوم القيامة خصت بزيادة المعجزة العقلية الباقية ، ليراها ذوو البصائر بخلاف معجزات الأنبياء الآخرين التى انقرضت بانقراض أعصارهم ، فلم يشاهدها الا من حضرها ، وأبصرها ببصره، بخلاف معجزة القرآن التى تشاهد بالبصيرة ، وتدرك بعين العقل ، قال تعالى : "وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه

قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون " (سورة العنكبوت : ٥٠ ، ٥١) حيث أخبر تعالى أن القرآن الكريم آية من آياته كاف في الدلالة على صدق دعوته ، وقائم مقام المعجزات الأخرى عند الأنبياء الآخرين ، وتبقى حجة تلك المعجزة على البشر عموما ما بقي هذا القرآن الكريم الى أبد الدهر ، مما لا يسع البشرية الا القبول والطاعة (١) .

ومجال الرسالة يضيق بايراد المزيد من الأدلة على عموم الدعوة الاسلامية ، وبيان احتوائها على جميع مصالح البشر وحاجاتهم ، مما تكون بموجبه دعوة شاملة صالحة في كل زمان ومكان ، ويكون واجب البشر عموما التسلم لهذا المنهج ، وقبوله واتباعه والعمل به في جميع نواحي الحياة ، لتحصل للانسانية السعادة بعد أن وضح الطريق ، وبان السبيل بهذا القرآن الكريم الذي خاطب الله تعالى به البشرية جميعا الى آخر الدهر (٢) .

وتصبح الانسانية في كل عصر ملزمة بقبول هذا المنهج ، والانصياع لهذه الدعوة ، والاعراض عما سواها من الدعوات ، مع اليقين الجازم بأن قبول هذا المنهج جميعه وتطبيقه في جميع شئون الحياة ليس نافلة ، ولا تطوعا ولا موضع اختيار وانما هو الايمان ، كل الايمان ، وأنه لا ايمان بدون ذلك .

وكذلك يكون اتباع محمد صلى الله عليه وسلم أكثر من اتباع الأنبياء الآخرين عليهم السلام ، لامتداد معجزته آمادا متطاولة بعده صلى الله عليه وسلم ، ولأنها تخاطب الفكر والعقل الانساني في كل العصور منذ البعثة والى يوم القيامة ، كما قال صلى الله عليه وسلم :

---

(١) أنظر : الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ، الطبعه الرابعه ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م جـ ٢ ص ١٤٨ .

(٢) أنظر : اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيميه ص ٢٦ .

" ما من الأنبياء نبى الا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وانما الذى أوتيت وحيا أوحى الله الىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة " (١)

---

(١) رواه البخارى جـ ٣ ص ٢٢٤ ورواه مسلم جـ ١ ص ١٣ ٠

العامل الخامس : دعوة تقوم على الجهاد :

لا بد عند الحديث عن أسباب نجاح الدعوة الاسلامية من ذكر الجهاد في سبيل الله ، وأثره في الدعوة ، لأنه في مقدمة الأسباب والعوامل التي ساعدت في نشر الدعوة الاسلامية ، ونجاحها حتى بلغت آفاقا ، ووصلت الى شعوب وأمم لم تستطع أن تصلها أي دعوة أخرى .

ولذلك سيكون حديثنا عن تعريف الجهاد وذكر مراتبه ، وبيان أثر ذلك في نجاح دعوة الاسلام ، مع ابراز الأهداف السامية ، والأغراض النبيلة التي يقوم عليها الجهاد في الاسلام ، وكيف كانت تلك الأغراض عاملا مهما في انتصار المسلمين ، ومن ثم كانت عاملا لنجاح الدعوة .

وسنتحدث عن هذه الأمور بالترتيب ان شاء الله .

١ - تعريف الجهاد ومراتبه :

أ - تعريفه :

الجهاد لغة : من الجهد ، والجهد الطاقة والمشقة ، وقيل : بالفتح المشقة ، وبالضم الوسع ، والاجتهاد أخذ النفس ببذل الطاقة وتحمل المشقة[(١)] .

أما اصطلاحا : فقد اختلفت عبارات السلف في تعريفه[(٢)] :

فقال ابن عباس رضي الله عنه : هو استفراغ الطاقة فيه وأن لا يخاف في الله لومة لائم .

---

(١) أنظر : مفردات الراغب منشورات دار المعرفه بيروت ص ١٠١ .
(٢) أنظر : زاد المعاد لابن قيم الجوزيه ؛ الطبعه الثالثه ١٣٩٢هـ - ١٩٧٣م جـ ٢ ص ٣٩ .

وقال مقاتل[1] : اعطوا لله حق عطه واعبدوه حق عبادته.

وقال عبدالله المبارك[2] : هو مجاهدة النفس والهوى.

ب - مراتبــــه :

سبق الحديث عن صراع الحق والباطل، وحاجة الدعوة الى رجال يذودون عنها، وينشرونها بين الناس ورسول الله منذ بدأ دعوته وهو يجاهد فـــي سبيلها بكل مايستطيع من أنواع الجهاد، والتي تختلف باختلاف الأحـــوال والظروف من : جهاد النفس وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار والفساق.

ولقد حدد ابن قيم الجوزيه - رحمه الله - للجهاد أربع مراتب هـــي : جهاد النفس، جهاد الشيطان، جهاد الكفار، وجهاد المنافقين.[3]

وزاد ابن حجر - رحمه الله - : وجهاد الظالمين والفاسقين.[4]

٣ - تقرير مبدأ الجهاد :

لبيان أثر الجهاد في الدعوة، ونجاحها فمن المفيد التعرض - ولو بايجاز - الى تقرير مبدأ الجهاد.

فالجهاد وشرعيته من حيث الابتداء في الدعوة الاسلامية، لم يكن مـــن باب الصدفة، ولا من باب المعجزة الخارقة للعادة، لقد كان تقرير مبدأ الجهاد وضعا طبيعيا تحتمه ظروف الحياة بين البشر، وسنة الله في استمرار الصراع بين دعوة الحق، ودعوات الباطل، وبين دعاة الخير، ودعاة الضلال، لاسعاد البشر، ونشر الدعوة وانجاحها بين الناس.

---

(١) : مقاتل : هو أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء مـــن أعلام المفسرين، توفى بالبصرة سنة ١٥٠هـ. أنظر الأعلام - ج ٧ ص ٨١.

(٢) : هو أبو عبدالرحمن عبدالله بن المبارك بن واضح الحنظلي، الحافظ المجاهـــد التاجر صاحب التصانيف والرحلات. توفى سنة ١٨١هـ.
انظر : البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٧٨.

(٣) : زاد المعاد جـ ٢ ص ٣٩.

(٤) : فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر جـ٦ ص ٢. الناشر : شركة الحلبي القاهر

كما أنه لا بد فى بيان كيفية تقرير مبدأ الجهاد من تلخيص الجو العام ، والوضع الذى كان فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، لنستبين كيف كان تشريع الجهاد ، استجابة حتمية لوضع كان فيه المسلمون يواجهون عداوة شرسة ، من المشركين ، تهدد عقيدتهم ، وأنفسهم وأموالهم لا بد لهم بسببها من الدفاع عن العقيدة والنفس والمال ، وهذا ما تقرره جميع الأديان ، وحتى القوانين الوضعية المليئة بالجور والظلم لم تهمل هذا الجانب من مشروعية الدفاع عن هذه الضرورات .

فعند ما بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم يظهر دعوته قابلته قريش بالعداوة والخصومة له ولمن تبعه من المؤمنين بدعوته ، واعتبروهم عصاة ثائرين ، واستباحوا دماءهم وأموالهم فى الحرم الآمن - رغم ما كان للحرم لديهم من حرمة - واذاقوهم ألوانا لا تطاق من الابتلاء والامتحان ، خاصة المستضعفين من المسلمين الذين لم يكن لهم شوكة تحميهم ، واستعملوا كل وسيلة للقضاء على هذا الدين ، ابتداء بالسخرية والاستهزاء ، ومرورا بالتعذيب بالنار ، والكى بالرمضاء المحرقة ، حتى الجأوهم الى مغادرة الوطن فرارا بعقيدتهم ، الى بلاد بعيدة ليعيشوا فيها غرباء ، وكل ذلك لم يثنهم عن عقيدتهم ، ولم تقف تلك الاجراءات الرهيبة فى وجه الدعوة ، أو تقضى عليها كما يخططون ، فانتقلوا الى أسلوب أشد ايلاما وقسوة ، وقد يكون هذا الأسلوب هو الأول من نوعه فى زمانهم ، وهو محارصتهم فى الشعب ، ومنعهم الغذاء والكساء ، أو التعامل معهم أو حتى تزويجهم أو الزواج منهم ، وبالرغم من ذلك لم يؤمروا بالجهاد المطلق وهو القتال ، حيث لم يكن للمسلمين شوكة تحميهم ، كما كانوا يقيمون مع المشركين ، وبين أظهرهم ، فكان من الحكمة عدم فرض القتال ، ولو فرض لقاتل الرجل أخاه وأباه ، وقامت فى كل بيت معركة

ولسفك دم كل أسرة ، وليس ذلك من مصلحة الدعوة .

يقول ابن قيم رحمه الله : "لذلك أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ، ويؤمر بالكف والصبر والصفح ، ثم أذن له في القتال ، ثم أمر أن يقاتل من قاتله ، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله ، ثم أمر بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله "[1]

فكان القرآن الكريم ، في فترة نزوله بمكة ، يتنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرشدا له الى الصفح عن أذاهم ، قال تعالى : " فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون " (سورة الزخرف : ٨٩) آمرا له بالعفو والاعراض عن الجاهلين ، قال تعالى : " خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين " (سورة الأعراف : ١٩٩)

فكان القتال محظورا في تلك المرحلة من مراحل سير الدعوة على المسلمين ، قال تعالى : " فان تولوا فانما عليك البلاغ المبين " (سورة النحل : ٨٢)

ولم يكن الأمر بالجهاد الا الجهاد الأكبر ، وهو جهاد النفس ، قال تعالى : " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين " (سورة العنكبوت : ٦٩) . قال القرطبي في تفسير هذه الآية :

" ليس الجهاد في الآية قتال الكفار بل هو نصر الدين ، والرد على المبطلين ، وقمع الظالمين ، ومنه مجاهدة النفس في طاعة الله ، وهو الجهاد الأكبر "[2]

---

(١) زاد المعاد جـ ٢ ص ٨١ .
(٢) تفسير القرطبي جـ ٦ تفسير آخر العنكبوت .

كما كان الأمر بالجهاد بالحجة ، والدعوة بالحكمة ، والمجاهدة بالقرآن ، قال تعالى :
" ولا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا " (سورة الفرقان : ٥٢) . فلم يكن الأمر
المراد فى الآيتين بالجهاد القتال لأن هاتين الآيتين الكريمتين مكيتان ، والقتال شرع بالمدينة[١] .
وبعد أن استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وأيده الله بنصره وبالمؤمنين ، وألف
بين قلوبهم ، نعمة منه وفضلا ، بعد العداوة والاحن[٢] التى كانت بينهم ، فمنعته أنصار
الله ، وكتيبة الاسلام من الأحمر والأسود ، وبذلوا نفوسهم دونه ، عند ذلك رمتهم العرب
واليهود عن قوس واحدة ، وشمروا لهم ساق العداوة والمحاربة ، وصاحوا بهم من كل جانب ،
والله يأمر بالصبر والصفح ، حتى قويت شوكة المسلمين ، واشتد جناحهم ، فأذن لهم حينئذ
فى القتال ، ولم يفرض عليهم ، قال تعالى : " أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على
نصرهم لقدير " (سورة الحج : ٣٩)

ثم فرض عليهم القتال لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم ، فقال تعالى : " وقاتلوا فى سبيل الله
الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين " (سورة البقرة : ١٩٠) .

ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة ، وكان محرما ثم مأذونا به ، ثم مأمورا به لم بدأهم بالقتال ،
ثم مأمورا به لجميع المشركين ، اما فرض عين أو كفاية وهو المشهور ، وهذا بالنسبة للقتال ، أما
جنس الجهاد ففرض عين كل بحسبه[٣] .

---

(١) أنظر : زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٨ .
(٢) مفردها (احنه) وهى الحقد .
(٣) أنظر : تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٢٥ وزاد المعاد جـ ٢ ص ٥٨ .

وهكذا ندرك كيف كان الجهاد في سبيل الله مرافقا للدعوة ، وضرورة لازمة لها ، وأنه وجد معهما منذ أن وجدت ، وأن هذه الدعوة لا تقوم الا بالجهاد والتضحية والبذل ، حيث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام ، جاهدوا في سبيل هذه الدعوة ، وبذلوا أرواحهم وأموالهم وكل ما يملكون ، بعد أن علمتهم تلك العقيدة الراسخة والايمان القوى ، أن هذه الدعوة ، وهى دعوة الحق ، وهذا الدين الحنيف الذى ارتضاه تعالى لعباده ، لابد لهما من البذل والعطاء ، لأن الحق لابد أن ينطلق فى طريقه ، ولابد أن يقف له الباطل فى الطريق ، بل لابد أن يأخذ عليه الطريق ، ولابد لهذه الدعوة من الجهاد المتواصل ، بكل أنواع الجهاد ومراتبه ، لتستطيع نشر دين الله فى الأرض ، ولتحقيق العبودية لله وحده دون سواه ، وحتى تقف فى وجه الطواغيت ، لانه لابد للحق أن يمضى فى طريقه ، بعزيمة قوية ، وشجاعة وبطولة ، حتى لا يزاحمه الباطل ، ودعاة الضلال .

ولذلك ندرك كيف كان تشريع الجهاد فى سبيل الله نعمة تقربها أعين المؤمنين ، وتساءلها نفوس أعدائهم من المشركين واليهود والمنافقين ، بل وجميع أعداء الدعوة ، وأعداء الخير من الطواغيت والمتجبرين فى كل عصر ومصر .

فكان الجهاد فى سبيل الله من أهم أسباب نجاح الدعوة الاسلامية ان لم يكن أهمها ، وكان تقريره ابتدأ فى الدعوة ، ضرورة لها ، لتسير فى الخط المرسوم لها من الله تعالى .

---

٣ - حكمة تشريع الجهاد :

منذ أقدم العصور ، والرسالات الالهية ، والدعوات الاصلاحية ، والعقلاء من البشر ، وحتى دعاة الضلال يتفقون على أن هناك ضرورات بشرية يجب حفظها ، ويسلمون بحريتها ، وفى مقدمة تلك الضرورات حرية الاعتقاد .

ولما كانت الدعوة الاسلامية ، دعوة الحق والفطرة ، ودعوة الخير والسعادة . فلم يكن مستغربا أن فى مقدمة اهتماماتها حرية الاعتقاد ، ومن حرية الاعتقاد حرية الدعوة للعقيدة ، لذلك فالله تبارك وتعالى يوضح طريق المؤمنين ، ويرشد دعاة الاسلام ، وهم يحملون هذا التصور ، ويقومون بمهمة الدعوة ، وينهضون بواجب القيادة للبشرية ، الضالة الضائعة بقوله : "لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى " سورة البقرة : ٢٥٦) .

ولما كان الدين الاسلامى ، هو الدين الحق الذى ارتضاه الله تعالى لعباده ، لأنه دين الفطرة التى فطر الله عباده عليها ، لذلك أخذ على عاتقه ، دعوة الناس الى حرية العقيدة ، وتحرير المعتقد ، بالتحرر من طاعة الطواغيت ، وعدم الجري وراء الشياطين ، ليحصل للبشر الأمن والاستقرار ، والرجوع الى المعتقد الأصلى ، والطريق السليم ، والمسلك الصحيح ، ليعيشوا عيشة حرة ، تتسم بالطمأنينة والأمن .

فكان أن ندب الله تعالى هذه الأمة ، التى هى خير الأمم ، لهذا الأمر العظيم ، والمسئولية الجسيمة ، وهى : اعلاء دين الله ، وتبليغ وحيه ، وايصال هداه ونوره الى أمم الأرض جميعا .

فاذا وقف أحد في طريق هذه الدعوة ، أو حاول صدها عن المضي في طريقها وجب رد حره ، وتطهير الأرض من شره ، جزاءاً وفاقا ، لتصل هداية الله الى النفوس وتعلو كلمة الحق ، ويأمن الناس على حريتهم التي في مقدمتها حرية الايمان والاعتقاد ، فشرع الجهاد في سبيل الله لدفع عدوان الظالمين ، ولتحطيم كل قوة تعترض طريق الدعوة ، وتمنع ايصالها للناس في حرية واطمئنان ، تحققا لقوله تعالى : " وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين " (سورة البقرة : ١٩٣) .

وتأكيدا لتلك الحكمة الجليلة من تشريع الجهاد ، نجد كلمة جهاد أو قتال تقترن بلفظ (سبيل الله) في القرآن الكريم غالبا ، للدلالة على أن تشريع الجهاد لغاية نبيلة ، ومقصد سام ، اعلاء لكلمة الله ، ونشر دينه ، وأن الجهاد والقتال لم يشرع للسيطرة أو طلبا للمغنم ، أو اظهارا للشجاعة أو الاستعلاء في الأرض ، أو استغلال الشعوب وسلب خيراتها .(١)

اضافة الى ذلك فرسول الله صلى الله عليه وسلم ، يجلي الهدف من تشريع الجهاد في الاسلام ، ويبين أن غايته نشر دين الاسلام ، واعلاء كلمة الله ، ولا يكون ذلك الا بنجاح الدعوة ، ونشرها لأن هدف الدعوة الاسلامية اعلاء كلمة الله ، روى البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال :

" جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله : ما القتال في سبيل الله ؟ فان أحدنا يقاتل غضبا ، ويقاتل حمية ، فرفع رأسه فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل " .(٢)

---

(١) أنظر : تفسير آيات الاحكام للصابوني الطبعه الثانيه ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م جـ ١ ص ٢٢٦ .
(٢) صحيح البخاري جـ ١ ص ٣٦ (كتاب العلم - باب من سأل وهو قائم عالما جالسا) .

كذلك فان الهجرة ، وترك الأوطان ، لا تكون هجرة بالمعنى الصحيح ، الا اذا كانت في سبيل الله ، لاعلاء كلمة الله ، فرارا بالعقيدة ، وطلبا للحق والثبات ، وهروبا من الباطل وخذلانا له ، وكذلك نشرا لدعوة الاسلام ونصرا لها قال تعالى : "والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم" (سورة الانفال : ٧٤)

والمراد بسبيل الله ، طريقه المستقيم ، وهو طريق الدعوة الاسلامية ، الذى هدفه اعلاء كلمة الله ، ونشر الدعوة وظفرها لأن في ذلك الخير والسعادة لبني البشر .

فكان من الحكمة أن يتمتع جميع الخلق بثمار هذا الخير ، وأن لا يحرموا من فضل الله الجزيل عليهم ، الذى امتن به تعالى عليهم ، وليتفيؤا ظلاله الوارف . الا أن بعض العباد قد ضلوا عن الحق ، وزاغوا بشقاوتهم عن طريق الهدى والخير ، وزين لهم الشيطان المنكر معروفا ، والمعروف منكرا ، قال تعالى : "واذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس واني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال اني برىء منكم انى أرى ما لا ترون انى أخاف الله والله شديد العقاب" (سورة الانفال : ٤٨) ومن هذا عطه ، وهذا دليله وطريقه ؟ كيف يسمح له بالوقوف في طريق الخير ، ومنعه من الوصول الى الخلق كافّة ، فكان هذا النوع من الناس بعملهم هذا ، وتصرفاتهم تلك ، بغاة ظالمين ، يجب ردعهم ، وايقافهم عند حدهم ، وحتى لا تنتقل عدواهم الى غيرهم ، فكان من

الخير بل من الواجب منع مثل هذا الباغ المعاند ، وابعاده عن طريق الدعـــوة ، حتى لا يقف فى وجهها ويمنعها من النجاح والانتشار لتحقق تلك الأهداف لجميع البشر .

واذا كان الدين الاسلامى ، هو دين الله الذى ارتضاه لعباده ، بعد أن أتمه لهـــم ، وأكمل لهم به النعمة ، ولن يقبل منهم سواه . واذا كان هذا الدين هو الفطرة " فطرة الله التى فطر الناس عليها " (سورة الروم : ٣٠)

فكيف يحال بينهم وبين الدين الذى اختاره لهم خالقهم ، وموجدهم العالم بأحوالهـــم ومصالحهم ؟ ولماذا يحال بينهم وبين فطرتهم ظلما وعدوانا ؟ من أجل ذلك شـــرع الجهاد ، لاقامة العدل ، واحقاق الحق ، وازهاق الباطل ، واعادة البشر الى فطرتهـــم التى خلقهم الله تعالى عليها ، واجتالتهم عنها الشيطان ، واذا تحققت تلك الحكمـــة من مشروعيـــة الجهاد نجحت الدعـــوة .

فالجهاد فى سبيل الله هو طريق الدعوة الى الله ، فهو ضرورة مصاحبة لركب الدعـــوة ، لذلك استغرق أمر الجهاد فصولا واسعة من صلب كتاب الله ، كما استغرق فصولا طويلة من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى كان هو وأصحابه رضوان الله عليهم كل حياتهـــم كفاح وجهاد ، من أجل هذه الدعوة ، ومن أجل نجاحها ، ونشرها بين الناس ، بعـــد أن ندبهم المولـــى الى الجهـــاد والاستشهـــاد فـى كتابـــه الكريـــم ، وعلى لسان رسولـــه صلى الله عليـــه وسلـــم ، وورد فى فضل الجهاد فى سبيل اللـــه ، وثـــواب المجاهـــدين مـــن الآيـــات والأحاديـــث ما يجـــل عـــن الحصـــر ، وما لا يســع مجال الرســـالة ايـــراده ، ممـــا هـــو معلـــوم البيـــــان لدى الجميع .

ولقد تسابق أصحاب رسول الله الى تطبيق تلك الحكم ، تطبيقا عمليا لا يمكن وصفـــه ، وقد أفردت جزءا فى ختام هذه الرسالة عن تضحيات الصحابة وجهادهم مع رسولهم ، وما كان لذلك من آثار عملية على الدعـوة ، ونجاحها حتى أصبح الجهاد فى سبيل الله أهم عامل من عوامل نجاح الدعوة ، وهو ما تفتقده الدعوة اليوم ، ولا بد لنا مــن السير على ذلك النهج فى التضحية والجهاد اذا ما أردنا للدعوة الاسلامية النجـــاج ، وللمسلمين العزه والغلبه والانتصار .

٤ - أهداف الجهاد وأغراضـه :

تحدثنا فيما سبق عن تقرير مبدأ الجهاد ، وحكمة مشروعيته ، وأن تقرير مبدأه ومشروعيته كانت ضرورة حتمية لظروف الحياة البشرية ، وسنة الله فى استمرار الصراع بين الحـــق والباطل ، وأن الجهاد لا يكون جهادا صحيحا الا اذا كان فى سبيل الله ، ولاعـــلاء كلمة الله ، ولانجاح دعوة الاسلام ونشرها .

ومن تلك المنطلقات ممكن أن ندرك كيف كانت مبادئ الجهاد فى الاسلام مبادئ ثابته ، وأسسا قوية ، وضرورة ملحه ، عملت على نجاح الدعوة ، وتثبيتها ، لأن الجهاد فى سبيل الله هو وسيلة نشر هذا الدين ، والدفاع عنه ، ونشر دعوته وانتصارها .

ونزيد الموضوع ايضاحا بتلخيص أهداف الجهاد وأغراضه ، وأثر تلك الأهداف فى انجاح الدعوة الاسلاميـــة .

وقبل الخوض فى ذكر أهداف الجهاد فى الاسلام وأغراضه ، أتعرض - ولا بايجـاز - الـى بعـض آداب الجهـــاد ، الدالـــة علـى شـــرف المقصـــد ،

ونبل الغرض للجهاد فى الاسلام ، حيث أننا عند ما نعرف تلك الآداب نستدل على شرف الهدف ، وسلامة القصد ، وسمو الهدف فى أهداف الجهاد فى الاسلام ، ونستبين طرفا من أثر ذلك فى نجاح دعوة الاسلام .

فالاسلام عند ما شرع الجهاد فى سبيل الله لم يكن هدفه البغى أو العدوان أو الرغبة فى السيطرة والتسلط ، انما كان يهدف لحفظ الدين ، ونشر الدعوة ، وحماية المسلمين ، فكانت آدابه غاية النبل ، وغاية فى حسن القصد ، ولما كان الدين الاسلامى دين الرحمة ، والدعوة الاسلامية دعوة الخير والفلاح لذلك لم يحيدا عن هذه المبادئ ، ولو فى ميدان القتال ، والدفاع عن النفس ، وآداب الاسلام وأخلاقياته فى هذا المجال موضوع واسع ، لا يمكن شرحها وبيانها فى هذه الجزئية المختصرة من الرسالة وانما الذى لا يدرك جله لا يترك بعضه خاصة اذا علما أن تلك الآداب والأخلاق تفقدها جميع الأنظمة البشرية ، والدعوات الضالة الوضيعة التى لا تهدف من حروبها سواء السيطرة والدمار والافساد فى الأرض ، والسيطرة على مقدرات الشعوب ، وبالذات ما كان من تلك الحروب والعدوان موجه ضد المسلمين ، من أعدائهم الذين لا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يجمل أخلاقيات الاسلام ، وآدابه وأهدافه العالية ، وأغراضه النبيلة فى وصاياه للقواد ، وأمراء الجند ، كما جاء فى صحيح مسلم عن سليمان ابن بريدة عن أبيه قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أمر أميرا على جيش أو سرية ، أوصاه فى خاصته بتقوى الله ، ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال : اغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اعزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ،

ولا تقتلوا وليدا ، واذا لقيت عدوك من المشركين فأدعهم الى ثلاث خصال (أو خلال) فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار الهجرة " (١)

ومن آداب الجهاد فى الاسلام ، واخلاقياته التى لها أعظم الآثار فى تحقيق الجهاد فى سبيل الله لأهدافه ، بانجاح الدعوة الاسلامية ونشرها ، تحريم قتل الصبيان والنساء ، وكذلك الرهبان والشيوخ ورسول الله صلى الله عليه وسلم يربى أصحابه على تلك الأخلاق من الناحية العملية ، زيادة على الناحية النظرية .

فقد روى الشيخان عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه :

" أن امرأة وجدت فى بعض مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقتولة ، فأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل النساء والصبيان " (٢)

ومن آداب الاسلام وأخلاقياته الجهادية فى ذلك النهى عن ايذاء الأسير والتمثيل به ، فعن قتادة (٣) قال : " بلغنا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحث على الصدقة ، وينهى عن المثلة " (٤)

ولقد استطاعت الدعوة الاسلامية بسبب تلك الآداب والأخلاق فى جهاد المسلمين ، فى سبيل الله تحقيق أعظم الانتصارات ، وأن تنجح نجاحا باهرا لم تحققه أية دعوة أخرى ، وهذا النجاح الذى حققته الدعوة ليس

---

(١) رواه مسلم جـ ٣ ص ١٣٥٧ (كتاب الجهاد - باب تأمير الأمراء على البعوث) .

(٢) رواه مسلم جـ ٣ ص ١٣٦٤ (كتاب الجهاد - باب تحريم قتل النساء والصبيان)
ورواه البخارى جـ ٢ ص ١٧٢ (كتاب الجهاد - باب قتل النساء فى الحرب)
وأخرجه بهذا اللفظ أبو داود والترمذى .

(٣) قتادة : هو أبو الخطاب قتادة بن دعامه السدوسى البصرى ، أحد علماء التابعين ، وحفاظهم العالمين ، توفى بواسط سنة ١١٨هـ بمرض الطاعون وعمره ٥٦ سنة .
أنظر : البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣١٣ . والأعلام جـ ٥ ص ١٨٩ .

(٤) رواه البخارى جـ ٣ ص ٤٧ (كتاب المغازى - قصة عكل وعرينة)
والمثلة : تشويه الميت بعد موته بتقطيعه أو احراقه أو تشويهه بأى صورة .

نجاحا جزئيا ، وليس نجاحا وانتصارا فى معركة بدر أو أحد أو فتح مكة انه النجاح والانتصار بمعناهما الواسع عند ما استطاعت هذه الدعوة تغيير مجرى الحياة ، والقضاء على طواغيت الأرض ، ليعبد الله وحده ، النجاح الذى فتحت بسببه القلوب للاسلام قبل البلاد ، النجاح الذى هدم معاقل المجوسية فى فارس ، وزعزع أوكار النصرانية المحرفة فى القسطنطينية ، بعد أن قضى على الوثنية فى كل بلاد العرب .

ولذلك فمن الممكن تلخيص أهداف الجهاد وأغراضه فى الاسلام فى الآتى :

١ - أن يكون الجهاد فى سبيل الله :

لأن الغاية من الجهاد فى الاسلام ، نشر الدعوة الاسلامية ، وانجاحها اعلاء لكلمة الله ، دون أى هدف آخر ، فكان كل جهاد فى غير سبيل الله لا يسمى جهادا بالمعنى الصحيح ، وعند ما ننظر لكلمة (جهاد) نجدها مقترنة بلفظ فى (سبيل الله) فندرك أهمية هدف الاسلام من الجهاد فى سبيل الله ، حيث أن هذه الجملة المركبة (جهاد فى سبيل الله) تجلي وتبين هدف الجهاد فى الاسلام ، وأثره فى نجاح الدعوة ، لما فيه من بذل الجهد المستطاع للوصول الى هذه الغاية العظيمة ، اعلاء كلمة الله .

وأدلة اشتراط كون الجهاد فى سبيل الله من القرآن الكريم والسنة النبوية كثيرة متواترة .

٢ - أن يكون الجهاد للدفاع عن الدين والنفس والأهل والعرض والمال :

وهي الضرورات التى أجمعت عليها الرسالات الالهية ، والعقلاء من

الناس في كل أمة ، ولذلك بين الاسلام أن من قتل دون هذه الضرورات أو أحدها فهو شهيد ، روى الامام أحمد عن سعيد بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد " (١) . وفي هذا نجاح للدعوة حيث أن الانسان اذا علم أن الدعوة تحمي ضروراته ، في حياته ومماته لذلك أقبل على الدعوة ، ودخل في دين الله ، وترك المذاهب التي تهين كرامته ، وتسلبه حريته ، وتدوس حرمته ، ولا تحفظ نفسه ولا ماله ولا أهله وعرضه .

٣ - من أهداف الجهاد حماية الدعوة الاسلامية :

حتى لا يقف في طريقها معترض ، يمنع وصولها للناس أو يعتدي عليها ظالم ، وكذلك لحماية الأمة المسلمة ، ودفع الأذى والفتنة عن المؤمنين ، لأن الفتنة في العقيدة والايذاء فيها من أشد أنواع الاعتداء والعدوان الذي يجب الجهاد والقتال في سبيل رفعه عن كاهل المؤمنين عندما يفتنون في دينهم (٢) .

والقرآن الكريم يرشد الى تلك الأهداف النبيلة ،الغايات السامية ، والاغراض الجليلة للجهاد في سبيل الله وضرورته لنجاح الدعوة ، ونشرها في هذه مواضع كثيرة ، وبعده صور تدل على لفت نظر المسلمين لهذا الجانب الهام من أهداف الجهاد واغراضه ، مثل قوله تعالى : " وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما

---

(١) رواه الامام أحمد في المسند جـ ١ ص ٦٠ (وقال السيوطي حديث حسن — الجامع الصغير ٢ : ١٧٨) .
(٢) أنظر : في ظلال القرآن جـ ١ ص ٢٩٤ .

يعملون بصير " (سورة الأنفال : ٣٩) . وقال تعالى : " يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنه أكبر من القتل ... " (سورة البقرة : ٢١٧) ولا شك أن الفتنه أشد من القتل وأكبر ، والفتنة التى عبر عنها القرآن الكريم ممكن ان نعتبره الغزو الفكرى الآن ، فهو أكبر مصيبة من القتل ، لأن القتل شهادة ، وانتصار وعزة أما الفتنة والغزو الفكرى والتقليد الاعمى فخزي وعار وذل وهوان ، وشر مستطير .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم ، قد أدركوا أهمية تلك الاهداف للجهاد فى انجاح الدعوة ، فطبقوا تلك المبادئ تطبيقا عمليا رائعا ، بعد أن عرفوا وأدركوا مراميها نظريا ، عند ما كان القرآن الكريم يتنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم مبينا لهم كل ذلك .

وسوف يجد القارئ الكريم فى الموضع المخصص من هذه الرسالة نماذج فريدة وصورا حية لجهادهم الفريد ، عند ما حملوا لواء هذه الدعوة ، يمينا وشمالا وشرقا وغربا ، يحملون أرواحهم على رؤوس رماحهم ، فنجحت بهم الدعوة ، وانتصرت بهم ، وانتصروا بها كذلك .

٤ - من أهداف الجهاد وأغراضه أيضا حماية المستضعفين من المؤمنين وحفظ أرضهم واموالهم قال تعالى : " مالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا " (سورة النساء : ٧٥)

ولهذا كان الجهاد ضرورة لنصرة هذا الصنف من المسلمين ، ورفع الظلم عنهم ، ولان هذا من ضرورات الدعوة ،ومن وسائل نجاحها فى كل عصر لاستمرار الصراع بين الحق والباطل ،كما أن أعداء الدعوة مهما حل بهم من هزيمة من جانب الدعوة والدعاة ، ومهما حققت من انتصارات لن تخمد نار فتنتهم للمؤمنين ، ولن يكفوا عن أذاهم ، ما لم يفتنوا المسلمين مصداقا لقوله تعالى : " ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى " (سورة البقرة : ١٢٠) .

واذا كان المسلمون اليوم يواجهون حربا ضروسا ، وعدوانا شرسا ليفتنوا فى دينهم فى أكثر من موقع فى الارض ، خاصة من شاءت الاقدار لهم أن يعيشوا تحت سيطرة مشركى هذا الزمن من : شيوعيين ويهود ونصارى ممن يقفون تجاه الاسلام والمسلمين ، والدعوة الاسلامية فى خندق واحد منذ قامت هذه الدعوة مصداقا لقوله تعالى : " لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى .... " (سورة المائدة : ٨٢) فيكون واجب المسلمين الجهاد والسعي لرفع الظلم والعدوان عن اخوانهم المسلمين ، ممن فتنوا فى دينهم وأوذوا فى عقيدتهم من اخوانهم المسلمين من أهل لا اله الا الله .

٥- تأديب الخارجين على المؤمنين ، المتمردين عن الحق ، الناكثين لايمانهم :

قال تعالى : " وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون " (سورة التوبة : ١٢) وهذا المعنى يتقرر حتى لو كان الباغى مسلما ، قال تعالى : " وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا

بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ الى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين " (سورة الحجرات : ٩)

وبعد هذا هو الجهاد فى سبيل الله ، وهذه حكمه وأهدافه واغراضه وآثاره الكبيرة فى نجاح دعوة الاسلام ،عرفها أصحاب رسول الله رضى الله عنهم ، ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين فكانت كالشرر فى نفوسهم توقدها للجهاد والاستشهاد ، وكان اهتمام القرآن الكريم ، والسنة النبوية بالجهاد وأحكامه وآثاره ، وبيان ما أعده الله تعالى لعباده المجاهدين من مكانة عالية ، وأجر كبير عند الله تعالى ،لكون الجهاد فى سبيل الله أهم عامل لنجاح دعوة الاسلام فى كل زمان ومكان .

الفصل الثاني

****

القرآن الكريم المعجزة الكبرى للدعوة

العامل الأول : القرآن معجزة التحدى .

العامل الثاني : التدرج فى الخطاب والتربية .

العامل الثالث : المبادىء والأصول القرآنية .

تمهيــد :

لقد كان من رحمة الله بعباده ، ومن مجريات سنته تعالى ، أن يبعث لهم رسلا مبشرين ومنذرين ،ليدلوهم الى الحق ، ويرشدهم الى الطريق المستقيم وتقوم بهم الحجة على الناس ، قال تعالى : " رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما " (سورة النساء : ١٦٥) الا أن الناس لكثرة أهوائهم وشهواتهم ، لوجود مصالح مادية ومعنوية لهم ، ولاستكبارهم عن الخضوع لبشر مثلهم ، لم يكن بالامر اليسير ، أو المطلب السهل تصديقهم لأولئك الرسل ، وهم بشر مثلهم ، قال تعالى عن المشركين :" وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا ان قالوا أبعث الله بشرا رسولا " (سورة الاسراء : ٩٤)

" وقالوا لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ...." (سورة الزخرف: ٣١)

فكان نزول الوحى من الله تعالى الى رسله ليكون حجة على العباد ،وفضلا على المرسلين وأتباعهم من بنى جنسهم من البشر ، ليستنيروا بنور الوحى الوهاج ، وليستضيئوا بمصابيح النبوة الساطعة ، وليتبعوا ما جاءهم من الهدى والحق من ربهم ، والله تعالى العالم بخفايا النفس البشرية ، علم أنه قد يكون فى عبادة أناس معاندون ،يصعب قيادهم ويتعذر اقناعهم الا بما يبهر عقولهم ، ويخالف عاداتهم ، حيث أن هذا الوحى الذى ينزله تعالى على ما اصطفاهم من عباده ، قد يكون فى نفوسهم تعثر عند عرضه عليها ، فاقتضت حكمته أن يؤيد أولئك الرسل ، بخوارق العادات التى لا يسع البشر الا اعلان عجزه أمامها ، لتقوم بها عليهم الحجة ، وتثبت عليهم البينة ، بما يشاهدونه ويحسونه من أدلة ظاهرة يدركها البشر بمجرد المشاهدة ، فكان من عموم فضله ، وجزيل نعمه ، أن أعطى أولئك الأنبياء

- عليهم السلام - من الأمور الخارقة لعادات البشر ، المخالف لما عهده ادراكهم البشرى - القاصر على كل حال - ما كان من أدلة صدقهم ، وقيام الحجة بهم على العباد .

ولما كان أولئك الرسل مرسلين لقومهم خاصة - كما سبق - جاءت خوارق العادات ، ومعجزاتهم الدالة على صدقهم ، متناسبة مع أوضاع قومهم متفقة مع أطوار حياتهم ، حيث جاءت تلك الخوارق والمعجزات حسية ، مشاهدة فى آيات كونية **تبهر الأبصار وتأخذ الألباب** ، لا سبيل الى معارضتها ، كمعجزة اليد والعصا لموسى ، وابراء الأكمة واحياء الموتى بأذن الله لعيسى عليهم السلام .

وبعثة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت فى زمان اكتمل فيه العقل البشرى وترقى الادراك لديهم ، وأصبح فى عصر مشرف على العلم بعد ذلك ، لهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل ، وأفضلهم ، وأعطاه من اصطفاه من المعجزات الحسية الكثير ، كحال غيره من الرسل ،وزاد عنهم بمعجزة عقلية تتحدى العقل البشرى الى الأبد، وتقيم على الانسانية الحجة الى آخر الدهر ،روى البخارى فى صحيحه بسنده -عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " ما من الأنبياء نبى الا أعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله الي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة " (١)

فكان القرآن ولا زال هو المعجزة الكبرى للدعوة الاسلامية والسبب المهم فى نجاحها ، من لدن الرسول صلى الله عليه وسلم الى اليوم ،والى أن يرث الله الارض ومن عليها . لما حواه هذا الكتاب الكريم " الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه " من الاعجاز كما سيأتى فى الفقرات التالية ان شاء الله .

---

(١) رواه البخارى جـ ٣ ص ٢٢٤ (باب فضائل القرآن) .

العامل الأول : القرآن معجزة التحدى

قبل الحديث عن القرآن الكريم من حيث هو معجزة لهذه الدعوة أرى التعرض بأيجاز الى تعريف القرآن وتحديد معناه ،وعلاقة تلك التسمية بتعريفات القرآن وأهمية تلك التسمية وعلاقتها بالمعجزة التى نحن بصدد الحديث عنها فى هذه المبحث وبيان أثر ذلك فى نجاح الدعوة .

تحديد معنى القرآن :

المعنى اللغوى والاصطلاحي ؛ قرأ : يعنى ضم وجمع ، فالقراءة ضم الحروف والكلمات بعضها الى بعض فى الترتيل ،ولا يقال ذلك لكل جمع حيث لا يقال قرأت القوم أى جمعتهم ، بدليل أنه لا يقال للحرف الواحد اذا تفوه به قراءة ، وبهذا التعريف اللغوى نحس بالعلاقة بين المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى للقرآن الكريم .

القرآن فى الأصل كالقراءة مصدر شكران ورجحان ، قال الله تعالى :"ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه " (سورة القيامة : ١٧ - ١٨) وقد خص بالكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، فصار له كالعلم ، كما أن التوراة تقال لما أنزل على موسى ، والانجيل لما أنزل على عيسى - عليهما السلام - وهذه التسمية اللفظية للقرآن الكريم تطلق على مجموع القرآن الكريم وعلى كل آية من آياته ، فاذا سمعت من يتلو آية منه صح القول انه يقرأ القرآن قال تعالى : " واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا " (سورة الاعراف : ٢٠١)ومن العلماء من علل تسمية هذا الكتاب قرآنا من بين كتب الله لكونه جامعا لثمرة كتبه ،بل لجمعه ثمرة جميع العلوم [1] ، وليس هناك ما يمنع من ان المعنيين مجتمعه للقرآن الكريم .

(١) انظر : مفردات الراغب ص ٤٠٢ .

وعند ما نمعن النظر ، ونتد بر حكمه تغليب هذ ين الاسمين على كتاب الله تعالـــى المنزل على رسوله عليه السلام ، وعند ما ننظر فيما جعله العلماء تعريفا منضبطا للقـــرآن كما سيأتي - نلحظ أهمية تلك التسمية ، وند رك طرفا من حكمتها ، ونحس بما للقرآن الكريم من د ور في حياة المسلم بحيث يد اوم على تلاوته وحفظه ،وتد بر معانيه ، والالتزام بمنهجـه في جميع شئون الحياة بعد كتابه في السطور ، وحفظه في الصد ور بحيث ينال من المسلمين كل تقد ير واهتمام ،وعاملا مهما في تكوين الدعوة الاسلامية ونجاحها ، وسببا رئيسيـــا من أسباب انتشار الاسلام وانتصار المسلمين فـي كل زمان .

يقول الدكتور محمد عبد الله د راز (١) - رحمه الله : " روعي في تسميته قرآنا كونه متلـوا في الألسن ،كما روعي في تسميته كتابا كونه مد ونا بالاقلام ، فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع ، وفي تسميته بهذ ين الاسمين اشارة الى أن من حقه العناية بحفظه فـــي موضعين لا فـي موضع واحد ، أعني أنه يجب حفظه في الصد ور والسطور جميعا بأن تضـــل احد اهما فتذ كر احد اهما الأخرى فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع علـــيه من الأصحاب ، المنقول الينـا جيلا بعـد جيـل علـــى هيئتـه التي وضـع عليهــا اول مرة ولا ثقة لنا بكتاب كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ والصحيح والمتواتر .

---

(١) الدكتور الد راز : هو محمد بن عبد الله د راز أحد أعلام الفكر الاسلامي المعاصـــر جمع حظا وافرا من علوم الاسلام ،كما نهل من علوم أوروبا مما مكنه من الرد على أباطيـــل الملحد ين ،له عد ة كتب وبحوث ، كان ميلاد ه في احد ى قرى محافظة كفر الشيخ بمصـــر عام ١٣١٢هـ ١٨٩٤م ، كان له مشاركات عد ة في التعليم والتوجيه في العالم الاسلامي وخارجه . توفي رحمه الله سنة ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م في مد ينة (لاهور) بباكستان فـي أثناء حضور ه مؤتمرا اسلاميا .

انظر : النبأ العظيم (المقد مة (الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م ص ٦ .

وبهذه العناية المزدوجة التى بعثها الله فى نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها بقى القرآن محفوظا فى حرز حريز ، انجازا لوعد الله الذى تكفل بحفظه حيث يقول: "انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون" (سورة الحجر : ٩) ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند ، حيث لم يتكفل الله بحفظها ، بل وكلها الى حفظ الناس فقال تعالى : "الربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله" (سورة المائدة ٤٤) أى بما طلب اليهم حفظه ، والسر فى هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جىء بها على التوقيت لا التأبيد ، وأن هذا القرآن جىء به مصدقا لما بين يديه من الكتب ومهيمنا عليها ، فكان جامعا لما فيها من الحقائق الثابتة ، زائدا عليها بما شاء الله زيادته ، وكان سدها ولم يكن شىء منها ليسد مسده فقضى الله أن يبقى حجة الى قيام الساعة واذا قضى الله أمرا يسر له أسبابه ، وهو الحكيم العليم [1]" أ . هـ.

وقد وضع العلماء للقرآن الكريم تعريفا يميز به عن غيره فقالوا : القرآن هو كلام الله تعالى ، المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم المتعبد بتلاوته [2]" وهناك تعريفات اخرى للقرآن الكريم [3]. وقد أصبح هذا التعريف هو المشتهر الغالب على غيره من التعريفات.

الدعوة ومعجزتها القرآن :

من حين ابتدأ تنزيل القرآن الكريم على رسولنا صلى الله عليه وسلم الى أن يرث الله الارض ومن عليها والقرآن الكريم المعجزة الكبرى للدعوة الاسلامية والسبب الرئيسى فى نجاحها لما حواه هذا القرآن العظيم من خير وبركة ، ولما تضمنه منهجه الفريد من مقومات السعادة ، وما اختص به من أسباب الفوز .

---

(١) نص : كتاب النبأ العظيم ص (١٢) (٢) مباحث فى علوم القرآن للشيخ مناع القطان الطبعة الرابعة ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م ص ٢١

(٣) انظر : مناهل العرفان للزرقانى جـ ١ ص ٨ .

والهداية للبشرية كلها ، وعندما تدرك الانسانية تلك المعانى وتقبل ذلك المنهج الكريم .

لذلك كانت معجزة القرآن مما بنيت عليه دعوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وان كان قد أيد بمعجزات كثيرة ، الا أن تلك المعجزات كانت حسية قامت فى أوقات وأحوال خاصة ، وكانت لأقوام خاصة ، كغيرها من معجزات الرسل السابقين ، حيث كانت معجزاتهم وقتية - كما سلف - انتهت بانتهاء وقتها ، وزالت مع زوال أهلها ، بخلاف المعجزة القائمة على مخاطبة العقل ، والتى خص بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، والباقية الى الأبد على صحائف الدهر ما تعاقب الليل والنهار ، وهى معجزة القرآن الكريم ، ويكفى للدلالة على صحة تلك المعجزة وأثرها فى نجاح الدعوة - علاوة على نقلها الينا نقلا متواترا - ما أحدثته فى العرب منذ اللحظة الاولى ، وهم من عرفوا بفصاحة اللغة ، وقوة البيان ، عندما عجزوا عن الوقوف أمام معجزة القرآن ، وهو بلغتهم التى يعرفونها ، وتأثير القرآن فى نفوسهم سواء منهم من شرح الله صدره للاسلام ، أو من جعل الله على بصره غشاوة .

واذا تجاوزنا عن النفر الذين كانت شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وحدها هى داعيتهم الى الايمان فى أول الامر بحكم علاقتهم بالرسول ، كزوجه " خديجة " وصديقه الحميم " أبى بكر " وابن عمه " على " الذى كان يقيم فى بيت الرسول عليه السلام ومولاه وخادمه " زيد " وأمثالهم ممن لمسوا الصدق والوفاء وحسن الخلق فى الرسول صلى الله عليه وسلم فآمنوا به ، فاننا نجد القرآن الكريم بمعجزته الباهرة ، وتأثيره القوى كان العامل الحاسم فى ايمان من آمنوا فى اوائل الدعوة ، يوم لم يكن لمحمد عليه السلام ودعوته حول ولا طول ، وهو العامل الحاسم فى انجاح الدعوة يوم لم يكن للاسلام قوة ولا منعة .(1)

(1) انظر كتاب : التصوير الفنى فى القرآن للاستاذ / سيد قطب منشورات دار الشروق ص ٩ .

وهذا من أقوى ادلة الرد على من يدعون انتشار الاسلام بالسيف مما هو معلوم البطلان دينا وتاريخيا .

ونكتفي بذكر نموذجين فقط من قصص كثيرة للايمان والطاعة ، والتولي والاعراض وهاتان الحادثتان تكشفان عن تأثير القرآن منذ اللحظة الأولى للدعوة ، وتبينان مدى تأثير تلك المعجزة في الناس ، وهاتان الحادثتان هما قصة ايمان عمر بن الخطاب ، وقصة تولي الوليد بن المغيرة كما روتهما كتب السيرة .

قصة اسلام عمر رضي الله عنه وردت بعدة روايات منها :

قال ابن اسحاق : " كان اسلام عمر فيما بلغني أن أخته فاطمة بنت الخطاب ، وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وكانت قد أسلمت واسلم بعلها سعيد بن زيد وهما مستخفيان باسلامهما عن عمر ، وكان نعيم بن عبد الله الفحام قد أسلم ويخفي اسلامه فرقا من قومه ، وكان خباب بن الارت يختلف الى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن ، فخرج عمر يوما متوشحا بسيفه ، يريد رسول الله ورهطا من أصحابه .

فلقيه نعيم بن عبد الله فقال : أين تريد يا عمر ؟ فقال اريد محمدا هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله ، فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بني عبد المناف تاركيك تمشي على الارض ، وقد قتلت محمدا ، أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ فقال : وأي أهل بيتي ؟ قال ختنك[(1)] وابن عمك سعيد بن زيد ، واختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما ، وتابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما ، قال : فرجع عمر عامدا الى اخته وختنه ، وعند هما خباب بن الارت

---

(1) ختنه هو : كل من كان من قبل المرأة مثل الأب والأخ .

معه صحيفة فيها (طه) يقرئهما اياها . فلما دخل قال : ماهذه الهينمة التى سمعت؟ قالا له : ما سمعت شيئا ،قال : بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه . وبطش فيهما ، فلما فعل ذلك قالت اخته وختنه : نعم أسلمنا وآمنا بالله ، فاصنع ما بدا لك وقال لأخته أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرؤن آنفا ،أنظر ما الذى جاء به محمد ، وكان عمر كاتبا ، فأعطته الصحيفة وفيها طه فقرأها ، فلما قرأ منها سطرا قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ،فلما سمع ذلك خباب خرج اليه ، فقال له : يا عمر والله انى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ،فانى سمعت رسول الله أمس وهو يقول : "اللهم أيد الاسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب"(1)

وكل الروايات تجمع على أن عمر بن الخطاب سمع ،أو قرأ شيئا من القرآن ،الذى كان داعية الى الاسلام ،ومهما كان من عوامل اسلام أمثال عمر رضى الله عنه ، فانه كان للقرآن الكريم ، وتأثيره الحاسم فى سرعة اسلامهم .

أما حادثة تولى الوليد بن المغيرة ، فهى مشهورة ، وفيها روايات كثيرة ملخصها :

ان الوليد بن المغيرة سمع شيئا من القرآن الكريم فكأنما رق له فقالت قريش : صبأ والله الوليد ،ولتصبئون قريش كلهم ، فأوفدوا اليه أبا جهل يثير كبرياءه واعتزازه بنسبه وماله ، ويطلب اليه أن يقول فى القرآن قولا يعلم به قومه أنه كاره ،وليجعلوا لهم رأيا واحد ضد محمد ، خاصة أن موسم الحج قادم ولابد أن يجمعوا فيه رأيا ، ولا يختلفوا فيكذب بعضهم بعضا فقالت قريش : فأنت يا أبا عبد شمس أقم لنا رأيا نقل به ، قال بل أنتم

---

(1) سيرة بن هشام جـ ١ ص ٣٦٥ .

قولوا أسمع ، قالوا : نقول : كاهن ، قال لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ، ولا سجعه ، قالوا : فنقول مجنون قال : ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته ، قالوا : فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطة ، فما هو بالشعر قالوا : فنقول ساحر ، قال : ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم . قالوا فما نقول : يا أبا عبد شمس ؟؟ قال : والله ان لقوله لحلاوة وان أصله لعذق وان فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا الا عرف أنه باطل ، وان أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر ، جاء بقول هو سحر ، يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته [1] .

فجاء القرآن الكريم يرد عليه مقولته ، وبين عاقبة أمره ، يقول الله تعالى :

" ذرني ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا انه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا . انه فكر وقدّر . فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال ان هذا الا سحر يؤثر . ان هذا الا قول البشر . سأصليه سقر " (سورة المدثر : ١١ – ٢٦) .

وهكذا اعترف هذا المشرك بأثر هذا القرآن على النفوس ، وهو وان وصف القرآن الكريم بالسحر الذى يؤثر ، فيفرق بين المرء ومن حوله ، فقد كان غروره واعتزازه بنفسه وماله وولده الذى اعمى بصيرته سببا لشقاوته ، ومن هنا تلتقى قصة الكفر بقصة الايمان فى الاقرار بمعجزة القرآن الكريم .

---

(١) أنظر : سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٨٣ .

والقرآن الكريم ملئ بالآيات الدالة على قوة تأثير القرآن واعجازه ، لأنه يلمس الوجدان ، ويحرك المشاعر ، ويرقق القلوب ، فتهدأ به النفوس ، وتفيض منه الدموع ، قال تعالى : " الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد " (سورة الزمر : ٢٣) . وهو فى الجانب الآخر نرى المستكبرين يجهدون أنفسهم فى القدح فى هذا القرآن ، وتنفير الناس منه ، بحيث يصفونه بالسحر تارة ، وبالكهانة تارة أخرى ، الى آخر النعوت التى تمليها عليهم شياطينهم ، وهى نعوت تحمل معنى الاقرار بأنه شئ خطير ، خارج عن مألوفهم ، خارق لعاداتهم وبذلك يقرون باعجازه القاهر ، وسلطانه القوى ، وهم لا يشعرون قال تعالى عنهم : " وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين " (سورة سبأ : ٤٣) (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ان أتبع الا ما يوحى الىّ انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم) (سورة يونس : ١٥) .

اعجاز القرآن :

الاعجاز الأصل فيه : اثبات العجز ، وهو القصور عن فعل الشئ ، وعدم المقدرة عليه . بحيث اذا اثبت الاعجاز ظهرت المعجزة . والمراد بالاعجاز هنا : اظهار صدق النبى صلى الله عليه وسلم فى دعوى الرسالة باظهار عجز العرب ، ومن بعدهم عن معارضته فى معجزته الخالدة وهى (القرآن الكريم)[1] وقبل الشروع فى بيان سر الاعجاز ومصدره يجدر بنا تعريف المعجزة .

---

(١) أنظر : مباحث فى علوم القرآن (للشيخ القطان) ص ٢٥٨ .

المعجزة : عرفها العلماء بتعريفات منها :ـ

أ ـ المعجزة : "أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى سالم عن المعارضة " وهذا تعريف السيوطى[(١)] وأكثر العلماء .

ب ـ قال القرطبى المعجزة : " سميت معجزة لأن البشر يعجزون عن الاتيان بمثلها[(٢)]". وتعريف السيوطى[(٣)] هو الراجح لشموله وسلامته من المعارض وكونه تعريفا جامعا مانعا ، لذا نجده هو الغالب والمشهور عند العلماء .

والمعجزات الدالة على صدق الأنبياء نوعان :ـ

١ ـ معجزة حسية : وهى معجزات أكثر الأنبياء السابقين بحيث تأتى لكل نبى ، موافقة للأغلب من أحوال قومه ، والشائع المنتشر فى ناس دهره ، فمثلا موسى عند ما بعث فى عصر السحرة ، خص بفلق البحر يبسا ، وقلب العصا حية ، مما بهر كل ساحر ، وأذل كل كافر ، وبعث عيسى ـ عليه السلام ـ فى عصر الطب فخص بابراء الزمني ، واحياء الموتى بما أدهش كل طبيب ، وعارف من قومه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو من خصه الله بالفضائل العظيمة ، وجعله خاتم أنبيائه قد أعطاه من المعجزات الحسية الشئ الكثير تكريما له[(٤)] وتعظيما .

---

(١) كتاب الاتقان جـ ٢ ص ١٤٨ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١ ص ١٤ .
(٣) السيوطى : هو عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين السيوطى ، امام حافظ ، نشأ فى القاهرة يتيما ، لما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس وخلا بنفسه للتأليف حتى بلغت مؤلفاته ٦٠٠ مصنف . توفى سنة ٩٠٠هـ .
أنظر : الاعلام جـ ٣ ص ٣٠١ .
(٤) أنظر : أعلام النبوة للماوردى الطبعه الثانيه ١٤٠١هـ - ١٩٨١م ص ٥٧ وكتاب الشفا للقاضى عياض جـ ١ ص ٢٥٣ .

٢- معجزة عقلية : وهى ما خص الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم ، بأن أعطاه تلك المعجزة الخالدة ، التى لا تتعرض كبقية المعجزات ، حيث أن رسول الله -عليه السلام- مبعوثا لكل البشر فى كل الأزمنة ، لذلك خصه الله بمعجزته العقلية الكبرى وهى -القرآن- الذى كان أول معجزة دعا بها علية الصلاة والسلام ، الى نبوته فصدع فيه برسالته ،وخص باعجازه من جميع رسله ، وهذا القرآن هو كلام الله تعالى الذى جاء بلغة العرب ،وفق ما عرفوه من أساليب البيان ،وفصاحة العبارة ،ولما بعث محمد صلى الله عليه وسلم فى عصر الفصاحة والبلاغة والبيان خص بالقرآن فى ايجازه واعجازه حتى عجز عن مثله الفصحاء ،واذعن له البلغاء ، وتقاصر عن رتبته الشعراء ؛ ليكون العجز عنه أقهر والتقصير فيه أظهر ، فحصلت المعجزة ، ووقع الاعجاز بالوجه المطلوب ، مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم : "ما من الأنبياء نبى الا أعطى ما مثله آمن عليه البشر ،وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله الى فأرجوا أن أكون اكثرهم تابعا يوم القيامة"(١)

مراحل التحدى : عند ما واجه محمد صلى الله عليه وسلم قومه بهذه المعجزة الكبرى وحصل منهم ما حصل بين مسلم وكافر ،وأصاب من عارضه الذعر ، والاضطراب النفسى ، سول لهم الشيطان معارضة القرآن ، وهم عاجزون قالوا : فى لجاجة واستكبار " قد سمعنا ، لو نشأ لقلنا مثل هذا . ان هذا الا أساطير الأولين " (سورة الأنفال : ٣١) وقالوا عنه وهم فى قمة الغرور والتخبط والارتباك ما حكى القرآن عنهم " بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر

---

(١) رواه البخارى ج ٣ ص ٢٢٤ .

" (سورة الأنبياء : ٥) فجاء التحدى من القرآن الكريم ، ليرد على هذه العقول الزائغة ،والأنفس التى عشش عليها الجهل ،واستولى عليها الشيطان جاء التحدى متدرجا على سبيل التنزل ،من الكل الى الجزء ومن الاصعب الى الاسهل ليكون أنكى فى الحجة ، وأبلغ فى الاعجاز ، فجاء التحدى متدرجا معهم ، وأنه لمن عجيب القرآن ، وأمر هؤلاء العرب ، أنه طاولهم فى المعارضة ،وتنزل معهم من التحدى بالقرآن كله ، الى التحدى ولو بسورة واحدة ، وهم على رغم هذه المطاولة يتنقلون من عجز الى عجز ، ومن هزيمة الى هزيمة ، والقرآن الكريم فى المقابل ينتقل من فوز الى فوز ،والدعوة الاسلامية التى دستورها هذا القرآن تخرج من نصر الى نصر ومن فوز الى فوز بفضل الله .

وتتلخص مراحل تحدى القرآن كالاتى :-

أ ـ تحداهم فى بادئ الأمر أن يأتوا بمثله قال تعالى : " أم يقولون تقولة بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين " (سورة الطور : ٣٣ ، ٣٤) .

ب ـ فلما عجزوا وانقطعت بهم الحيلة ، مدّ لهم فى الحبل ، ولكنهم برغم ذلك عجزوا هذة المرة كما عجزوا فى المرة السابقة حيث تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله ، والله تعالى قضى أن تقوم عليهم الحجة ، وتثبت عليهم البينة ، هم وغيرهم ممن عاصرهم ، أو من يأتى بعدهم من البشر ، قال تعالى " أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما أنزل بعلم الله وأن لا اله الا هو فهل أنتم مسلمون " (سورة هود : ١٣ ، ١٤) .

جـ ـ ولما عجزوا أن يأتوا بهذا القدر ،وهو عشر سور مثله ،على كثرة البلغاء

والخطباء فيهم تحداهم أخيرا أن يأتوا ولو بسورة منه ،قال تعالى : "وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النارالتي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين " (سورة البقرة : ٢٣ ، ٢٤) فكان عجزهم بعد ذلك أشنع وأبشع ، وسجل الله عليهم الهزيمة أبد الدهر فلم يفعلوا ولن يفعلوا ،فدحضت حجتهم ، وافتضح أمرهم ، وظهر أمر الله ، وهم كارهون .

وما من شك أن التحدي بالسورة الذي نطق به القرآن ينطبق على أي سورة ،وان كانت أقصر سور القرآن كسورة الكوثر ثلاث آيات ،وان مقدارها من آية أو آيات من سورة طويلة له حكم السورة ونجد القرآن بعد عجزهم هذا ينادي عليهم باظهار عجزهم القاطع ، بعد قيام الحجة ،وثبوت العجز بصورة لا تقبل الشك ،أو تثير الجدل (١).قال تعالى مسجلا عجزهم الأبدي هم والجن جميعا : " قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا " (سورة الاسراء : ٨٨)

وجوه الاعجاز القرآني

بعد الحديث عن تحديد معنى القرآن وأثره في الدعوة ،وعن تعريف المعجزة ومراحل التحدي التي تحدى القرآن بها المشركين فانه من المفيد تلخيص وجوه الاعجاز في القرآن .

لقد اهتم علماء المسلمين قديما وحديثا باعجاز القرآن الكريم ، وخاضوا في بيان وجوه الاعجاز ، منشأ ذلك اهتمامهم بالقرآن الكريم وعلومه ، لما لهذا

---

(١) انظر : مناهل العرفان في علوم القرآن جـ ٢ ص ٢٢٩

القرآن من مكانة فى نفس كل مسلم : لكونه كلام الله المتعبد بتلاوته ، ولكونه المعجزة الكبرى على صدق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولأنه - ولا يزال - الآية الكبرى لنجاح الدعوة الاسلامية ، فالقرآن الكريم لهذا الدين الحنيف ولهذه الدعوة المباركة ، بمثابة القلب فى جسم الانسان ، فكما أن القلب يمد الجسم بالحركة والحياة فكذلك القرآن يعطى للدين الاسلامى ودعوته ، الحركة والحياة والنجاح ، لهذا لم يكن من المستغرب أن تلقى علوم القرآن ، وفى مقدماتها الاعجاز القرآنى تلك العناية من العلماء حيث أفرد التصنيف فى اعجاز القرآن خلائق : كالخطابى والرمانى والزملكانى والامام الرازى (١) ، وابن سراقة والقاضى الباقلانى (٢) وغيرهم ، وبذلوا جهدا عظيما فى ذلك يشكرون عليه ، حيث جلوا وأبانوا ما تضمنه هذا القرآن من عظيم اعجاز ، وجليل بيان وما تضمنه هذا الكتاب العزيز من حكم كثيرة ، وخير عميم للبشرية كلها ، وفضل عظيم على الدعوة الاسلامية لأنه محورها الرئيسي ، الذى تدور عليه فى كل زمان ومكان فأغنوا بهذا الجهد العظيم المكتبة الاسلامية بذلك القدر الهائل من البحوث والمعارف المتعلقة بهذا الموضوع من علوم القرآن

---

(١) الرازى : هو محمد بن عمر بن الحسين القرشى - التيمى الامام المفسر أصله من (طبرستان) ومولده بالرى سنة ٥٤٣هـ وتوفى فى هداه سنة ٦٠٦هـ .
أنظر : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٥٥ وانظر الأعلام جـ ٦ ص ٣١٦ .

(٢) الباقلانى : هو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد الباقلانى رأس المتكلمين ، وأكثرهم تصنيفا فى الكلام ، ولد فى البصرة كان قاضيا جيد الاستنباط سريع الجواب . توفى فى بغداد سنة ٤٠٣هـ .
أنظر : البداية والنهاية : جـ ١١ ص ٣٥٠ .

(٣) أنظر : الاتقان جـ ٢ ص ١٤٨ .

وهو الاعجاز ، حتى لقد عد بعضهم للقرآن عشرين وجها فى الاعجاز (١) كالعلامة الماوردى (٢) ،

وقد أرجع القرطبى وجوه الاعجاز الى أكثر من عشرة أوجه نلخصها فى الآتى :-

١ - النظم البديع المخالف لكل نظم معهودة فى لسان العرب وفى غيرها . لأن نظمه ليس نظم الشعر قال تعالى : "وما علمناه الشعر وما ينبغى له ان هو الا ذكر وقرآن مبين" (يورة يس : ٦٩) .

٢ - الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب .

٣ - الجزالة التى لا تصلح من مخلوق بحال ، وتأمل ذلك مثلا فى سورة "ق ، والقرآن المجيد" (سورة ق : ١ - ٢) الى آخر السورة ، قال ابن الحصار (٣) : وهذه الثلاث من النظم والأسلوب ، والجزالة لازمة لكل سورة ، بل لازمة لكل آية" .

٤ - التصرف فى لسان العرب على وجه لا يستقل به عربى ، حتى يقع منهم الاتفاق جميعهم على اصابته فى وضع كل كلمة وحرف موضعه .

٥ - الاخبار عن الأمور التى تقدمت فى أول الدنيا الى نزوله على أمى ما كان يتلوا من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه .

---

(١) أنظر : أعلام النبوة ص ٥٨ .

(٢) الماوردى : هو أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى ، نسبته بيع ماء الورد ، ولد بالبصرة ، أحد العلماء الباحثين ، صاحب تصانيف كثيرة ، كان أقضى قضاة زمانه . توفى ببغداد سنة ٤٥٠هـ .
أنظر : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٨٠ - والأعلام جـ ٤ ص ٣٢٧ .

(٣) ابن الحصار : هو أبو الحسن على بن محمد بن محمد بن ابراهيم الخزرجى الحصار ، فقيه من أشبيليا نشأ بغاس ثم انتقل الى مصر وتوفى بالمدينة المنورة سنة ٦١١هـ .
أنظر : الأعلام جـ ٤ ص ٢٣٠ .

٦ - الوفاء بالوعد ، المدرك بالحس فى العيان فى كل ما وعد الله سبحانه .

٧ - الاخبار عن المغيبات فى المستقبل التى لا يطلع عليه الا بالوحى .

٨ - ما تضمنه القرآن من العلم الذى هو قوام جميع الأنام .

٩ - الحكم البالغة التى لم تجر العادة بأن تصدر فى كثرتها وشرفها من آدمى .

١٠ - التناسب فى جميع ما تضمنه ظاهرا وباطنا من غير اختلاف(١) قال تعالى :

" ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا " (سورة النساء : ٨٢) .

واذا كانت هذه حال القرآن الكريم ، وهذه بعض وجوه اعجازه على كثرتها فلابد أن ذلك قد لفت الأنظار لهذا القرآن ، ومن ثم ساعد على قبول منهاجه وقبول الدعوة ونجاحها فيهم . وقال القاضى عياض : ان كتاب الله العزيز منطو على وجوه من الاعجاز كثيرة وتحصيلها من جهة ضبطها أنواع لخصها فى أربعة وجوه لا تخرج عما ذكره القرطبى(٢) .

ونحن فى هذه الفقرة من البحث - كما هو معلوم - ليس مطلبنا البحث فى القرآن الكريم أو فى اعجازه لأن ذلك يحتاج الى أسفار ، وانما مطلبنا الاشارة الى دور القرآن وأثر اعجازه فى الدعوة الاسلامية ، ودوره فى نجاحها وسرعة انتشار الاسلام بالصورة المعروفة ، وأود أن أشير هنا الى أن تعداد أوجه الاعجاز لا يمكن حصرها فى أوجه معينة من تعدادنا نحن البشر القاصرين . حيث أن القرآن الكريم معجز بكل ما تحمله هذه اللفظة من معنى ، فهو معجز فى لفظه وأسلوبه ، ومعجز فى نظمه وبيانه ومعجز فى علومه ومعارفه ، ومعجز فى تشريعاته الباهرة التى تتفق مع نواميس الكون ، ومعجزة الله فى الحياة ، ومعجز كذلك بتلك التشريعات والأنظمة التى تتفق مع فطرة هذا المخلوق ،

---

(١) أنظر : تفسير القرطبى (المقدمة) جـ ١ ص ٦٣ وما بعدها .
(٢) أنظر : كتاب الشفا جـ ١ ص ٢٥٨ .

الفريد فى تكوينه ، الفريد فى تكليفه ومهمته ، والقرآن الكريم كذلك احتوى على الاعجاز اللغوى والاعجاز العلمى ، والاعجاز التشريعى ، والقرآن الكريم يكفيه اعجاز أنه كلام الله المحكم الذى "لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد" (سورة فصلت : ٤٢) من أية ناحية أتيته تجد فيه أنوارا متبلجة ، وأدلة ساطعة ، وحقائق ثابتة ، كلها تثبت أنه كلام الله المعجز بحيث لا تجد فيه نكتة من كذب ، ولا وصمة من زور ، ولا لطمة من جهل ، لجميع هذه المعانى المتقدمة جاء القرآن الكريم مستوفيا لجميع حاجات البشرية ، فصنع فيها ذلك التحول العجيب ، لكونه كتاب هداية وارشاد وتبليغ ، لذلك فالقرآن معجز لكل هذه الأسباب وغيرها ، مما كان له عظيم الأثر على الدعوة الاسلامية (١) .

قال الخطابى : "فخرج من هذا أن القرآن انما كان معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ ، فى أحسن نظوم التأليف ، مضمنا أصح المعانى ، من توحيد الله وتنزيهه فى صفاته ، ودعاء الى طاعته ، وبيان لمنهاج عبادته فى تحليل وتحريم ، وحظر واباحة ، ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، وارشاد الى محاسن الأخلاق ، وزجر عن مساويها ، واضعا كل شىء منها موضعه الذى لا يرى شىء أولى منه ، ولا يتوهم فى صورة العقل أمر أليق به منه ، مودعا أخبار القرون الماضية ، وما نزل من مثلات الله بمن عصى ،

---

(١) أنظر : فى وجوه الاعجاز (بتوسع) كتاب الاتقان فى علوم القرآن جـ ٢ ص ١٤٨ واعجاز القرآن (للباقلانى) جـ ١ ص ٥٨ بهامش الاتقان ، وكتاب الانسان فى القرآن للعقاد ص ٢٢ .

(٢) هو أبو سليمان حمد بن محمد بن ابراهيم الخطابى البستى ، ولد سنة ٣١٩هـ وكان أحد المشاهير الأعيان ، والفقهاء المجتهدين ، له عدة مؤلفات . توفى بمدينة "بست" سنة ٣٨٨هـ .
أنظر : البداية والنهاية جـ ١١ ص ٣٢٤ .

وعانـد منهم ، منبئا عن الكوائن المستقبلـة فى الأعصار الماضيـة من الزمـان جامعـا فى ذلك بـين الحجـة والمحتـج له ، والدليل والمدلـول عليـه ، وليكون ذلـك أوكد للـزوم ما دعا اليـه وانباء عـن وجوب ما أمر به ونهى عنه .

ومعلوم أن الاتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين أشتاتهـا حتى تنتظـم وتتسـق ، أمـر تعجـز عنه قوى البشـر ، ولا تبلغـه قدرتهم ، فانقطع الخلق دونه ، وعجـزوا عن معارضته بمثله " أ . هـ (١)

(١) هذا النص فى كتابه (بيان اعجاز القرآن) طبع ضمن ثلاث رسائل بتحقيق محمـد خلف الله ومحمد زغلول سلام ص ٢٧ الطبعة الثانية .

العامل الثاني : التدرج في الخطاب والتربية :

لقد كان انزال القرآن بصورته المعروفة حدثا جللا ، وخيرا عميما للانسانية كلها ، دلل على مكانته لدى ملائكة السماء ، كما كان تشريفا لمن أنزل عليهم ، مما كان له عظيم الأثر فيما أحدثه في الحياة من تغيير للواقع البشرى السيء الذى كان سائدا عندما نزل القرآن الكريم على خير البشر ، وقد نتج عن كل هذا تحول عجيب في حياتهم ، ورفع الله به هذه الأمة الى أعلى الدرجات ، وخصها بسببه بعظيم الكرامات ، بأن جعلها خير أمة أخرجت للناس ، وبعد أن قرن الله تعالى بنزوله ، من الأسباب والعوامل ما يكون كفيلا بقبوله لدى الناس ، والاستجابة لمنهجه ، بصورة فريدة لم يشهد لها البشر مثيلا في تاريخه الطويل .

فالقرآن الكريم عندما قدم منهجه الفريد للانسانية ، وهبه لها على هيئة جرعات ، ورشفات مناسبة ، في أوقات ملائمة ، بصورة متدرجة ، منسجمة مع فطرة البشر " فطرة الله التي فطر الناس عليها " (سورة الروم : ٣٠) ومتفقة مع سنن الكون ، ونواميس الحياة ، مما يضمن به لهذا المنهج أفضل النتائج لعموم البشر ، حسب منهاج الله الذى رسمه للحياة كلها ، ذلك المنهج المتفق مع واقع البشرية الفطرى الأصلي ـ قبل أن يعترى ذلك الواقع الزيغ والضلال بسبب ماجنته يد البشرية من ظلم وانحراف ـ هادفا القرآن من منهجه هذا اغناء البشرية ، بمنهجه المتكامل عن أى منهج آخر .

لذلك كان من الأسباب والوسائل التي اقترن بها نزول القرآن لتحقيق الهدف السامي ، بقبول الناس له ، تدرج القرآن في مخاطبة البشر ، والسير مع قدرة البشر الجسمية ، والعقلية ، والفكرية ، وفقا لمجريات الأمور ، وواقع الأحداث ، واستجابة لمتطلبات الحياة ومستلزماتها ، حسبما تتحمله القدرات

البشرية ، ومجاراة لتطورات العقل البشرى في رحلة انتقاله ، وحالة صعوده من ظلمات الجاهلية الى نور الاسلام ، ومن مسالك الضلال الى طريق الهدى والرشاد ، قال الله تعالى : " وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا " (سورة الفرقان : ٣٢) .
وأخبرنا تعالى بطرف من حكم تدرج القرآن في الخطاب، في كونه نزل مفرقا، في قوله تعالى : " وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث " (سورة الاسراء : ١٠٦) والقراءة لم تكن المقصودة بذاتها ، وانما المراد ما يتبعها من تعلم وعمل وانقياد ، فاذا كانت القراءة وهي الوسيلة تكون على مكث وتؤدة فان نتائجها تكون مضمونة ومحققة، مما ينتج عنه القبول والامتثال .

ولقد كان من ثمار أسلوب القرآن الفريد في الخطاب والتربية، أن كانت الفطرة البشرية ، أشد ماتكون تفاعلا وانسجاما مع القرآن الكريم عندما أخذ يلمسها بيد الطبيب الماهر، العالم بعلة مريضه ، يتحسس موضع الداء ليقدم الدواء ، آخذا في الحسبان سرعة النائج ، واستمرار الثقة بما قدمه من علاج .

ولعلي بهذه الصورة أكون قد قربت واقع البشرية عند نزول القرآن وحاجتها الى منهجه ، فهي كمريض مدنف ، وجد الطبيب الحاذق ، الخبير بعلته، القادر على منحه بلسم الشفاء باذن الله ، مما أحدث تلك الاستجابة الهائلة لدى الخلق ، لمنهاج القرآن وقبوله ، واحداث ذلك النجاح المنقطع النظير لدعوة الاسلام .

ولما كان هذا القرآن الكريم ، من عند الله تعالى، العالم بخفايا النفس البشرية ، فلم يكن مستغربا أن يتميز منهج القرآن في الدعوة بميزات وأساليب فريدة، لم يسبقها اليه منهج آخر لأنه من الله تعالى ، الذى يقول : " ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا " (سورة النساء : ٨٢) ، والأساليب

والوسائل التي جاء بها القرآن في هذا الموضع كثيرة يصعب الالمام بها ،ومن أهمها التدرج في الخطاب والتربية ، وسأتناول ذلك بشيء من التفصيل كما سبقت الاشارة اليه :

أولا : التدرج في الخطاب :

لا يختلف اثنان في أن المتحدث كلما أخذ في حسبانه حالة من يخاطبه ، وراعى مقدرته الفكرية والعقلية كان ذلك أقوى في التأثير على المخاطب ، وأدعى لسرعة استجابته ، وامتثاله لما يلقى اليه ، وتأثره به ، وهذا الواقع ينطبق على القرآن الكريم وأسلوبه في مخاطبة البشر، لذلك كان من وسائل القرآن في مراعاة تلك الحال نزوله مفرقا ليسهل عليهم حفظه ، وفهم معانيه وتطبيق أحكامه ، وفق مراد الله ، بطريقة مناسبة ، تكون بعد الاقتناع والامتثال ، بخلاف ما لو جاءهم دفعة ، فصعب عليهم حفظه ، وشقت عليهم أحكامه ، ونلحظ ذلك بالصورة العملية من الصحابة ، رضوان الله عليهم ، فقد روى البخارى في الصحيح — بسنده — عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قوله : " والله الذى لااله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله الا أنا أعلم أين نزلت ، ولا أنزلت آية من كتاب الله الا أنا أعلم فيم أنزلت ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الابل لركبت اليه"[1]

وكان من ثمار ذلك اشتهار عدد من الصحابة بمعرفة أحكام الاسلام، كابن عباس وابن مسعود وأبي بن كعب وغيرهم كثير كانوا عبارة عن مدارس كاملة لتعليم الاسلام وأحكامه للناس ، بعد أن كان صلى الله عليه وسلم يحثهم على ذلك ، ويرشدهم الى العلم والتعليم ، لما لذلك من الآثار في نجاح الدعوة وانتشارها

---

(١) : رواه البخارى جـ ٣ ص ٢٢٨ (كتاب فضائل القرآن) .

وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهم قوله : " أن رسول الله عليه السلام وضع يده على كتفي ، أو على منكبي ثم قال : " اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل "(١)

ونستطيع أن نستدل على تدرج القرآن الكريم في الخطاب والأحكام ودور التدرج في نجاح الدعوة في الآتي :

أ ـ انزال القرآن منجما :

لقد ثبت أن للقرآن تنزيلين ، الأول : نزوله جملة واحدة الى بيت العزة في السماء الدنيا ، تعظيما لشأنه عند ملائكة الله ، وهو المراد في قوله تعالى : " شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس، وبينات من الهدى والفرقان " (سورة البقرة : ١٨٤) وقوله تعالى : "انا أنزلناه في ليلة مباركة " (سورة الدخان : ٣) وهو قول ابن عباس والجمهور.(٢)

الثاني : نزوله منجما حسب الأحوال والوقائع، ودواعي التشريع على رسولنا صلى الله عليه وسلم من حين بعث الى أن انتقل الى الرفيق الأعلى لمدة ثلاث وعشرين سنة الا قليلا ، منها ثلاث عشرة سنة بمكة وعشر بالمدينة تقريبا بعد الهجرة.

جاء في الحديث الصحيح الذى رواه البخارى " بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى اليه ثم أمر بالهجرة عشر سنين ومات وهو ابن ثلاث وستين "(٣)

وانزال القرآن الكريم منجما فيه حكم ومصالح كثيرة تتعلق بموضوع هذه الرسالة حيث لفت هذا الموضوع أنظار الناس اليه ، بمخالفة الكتب

---

(١) : رواه الامام أحمد في المسند جـ ٤ ص ١٢٧.

(٢) : انظر : الاتقان جـ ١ ص ٥٣.

(٣) : صحيح البخارى جـ ٢ ص ٣٣٠ (باب الهجرة).

السابقة بنزوله مفرقا على رسولنا صلى الله عليه وسلم ، بعد أن نزل جملة واحدة الى بيت العزة ، فجمع الله لهذا القرآن الكريم بين الميزتين نزوله جملة الى السماء الدنيا كغيره من الكتب، وامتاز عنها بنزوله مفرقا حسب الوقائع والأحداث ، مما يلفت اليه نظر المشركين ، ويوحي اليهم بعظيم أمره ، وصحة خبره ، وصدق مصدره ، بعد ذلك نجد موقفهم موقف المتعجب المهتم من أمر هذا القرآن ، ولا شك أن ذلك من أسباب الاهتمام به ، ومن ثم قبوله والانصياع له ولدعوته ، قال تعالى :" وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا" (سورة الفرقان : ٣٢ ، ٣٣) كما أن انزاله مفرقا أدعى لقبوله بنزوله على التدريج ، بخلاف مالو نزل جملة واحدة ، فانه كان ينفر من قبوله كثير من الناس لكثرة مافيه من الفرائض والنواهي[(١)] . وهذه الحكمة من الممكن أن نستجليها في واقع حياتنا العملية ، فلو قلت لابنك ذاكر دروسك ، واستقبل الضيوف ، ولا تخرج الى الشارع ، الى آخره ، فما موقف الابن ؟ لا شك أنه سوف ينفر منك ، ويتضايق لكثرة هذه الطلبات ، ولكن اذا طلبتها منه بالتسلسل ، كل طلب بعد انجاز الآخر الذى قبله ، أصبح الأمر يسيرا وسهلا ، وتحقق المقصود من الطلب ، وقد ذكرت السيدة عائشة رضي الله عنها هذه الحكمة الجليلة ، وأثرها في قبول الاسلام وأحكامه ، ونجاح الدعوة بسبب ذلك عندما قالت : " انما أنزل منه سورة المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى اذا ثاب الناس الى الاسلام ، نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شئ لاتشربوا الخمر لقالوا : لا ندع الخمر أبدا ، ولو نزل لاتزنوا لقالوا : لا ندع الزنا

---

(١) : انظر : الاتقان في علوم القرآن للسيوطي جـ ١ ص ٥٧ .

أبدا.[1]

ومن ثمار التدرج في مخاطبة الأمة ، بانزال القرآن منجما تيسير قراءته وحفظه ، خاصة اذا علمنا أن أولئك كانوا أميين ، وأدوات الكتابة لم تكن ميسورة لدى من كانوا يكتبون منهم على ندرتهم ، وكانوا مشغولين بمطالب المعاش ، وبالدفاع عن دينهم الجديد ، بالحديد والدم ، فلو نزل جملة وهم على هذه الأحوال ، لعجزوا عن حفظه ومعرفة أحكامه ، ولكان ذلك عائقا للدعوة ، ولمّا نزل القرآن منجما ، وسهل قراءته وحفظه وتعليمه ومعرفة أحكامه ، كان ذلك عاملا مهما من عوامل قبوله والامتثال له ، والاستجابة السريعة لهذه الدعوة ، وانتشارها ونجاحها بين البشر بعد أن اقتضت الحكمة الالهية انزاله مفرقا ، قال تعالى : " وقرآنا فرقناه لتقرأه للناس على مكث ونزلناه تنزيلا " (سورة الاسراء : ١٠٦) .
كما كان في انزاله منجما مسايرة للحوادث والطوارئ في تجددها ، واجابة لكل سؤال يجول في خواطرهم ، أو موضوع يشكل عليهم الأمر فيه ، وهذا مما يساعد على فهم القرآن ، والاهتمام به ، ومن ثم قبول الاسلام ، ونجاح دعوته ، وأمثلة ذلك كثيرة.[2]

وفي القرآن الكريم من تنزيلات الوحي متجاوبا مع المؤمنين على الرسول صلى الله عليه وسلم صور متنوعة ، وألوان متعددة ، تلتقي عند غاية واحدة : هي رعاية حال المخاطبين ، وتلبية حاجاتهم في مجتمعهم الجديد والمساعدة في تحقيق مرامهم بنشر هذا الدين ، والدعوة اليه واستجابة الناس لمنهاجه بعد أن يعرفوا حقيقته ، ويستبينوا طريقه.[3]

---

(١) : رواه البخاري جـ ٣ ص ٢٢٧ (باب تأليف القرآن) .
(٢) : انظر : مناهل العرفان في علوم القرآن جـ ١ ص ٤٦ .
(٣) : انظر : مباحث في علوم القرآن — صبحي الصالح . ص ٥٦ .

ودليل ذلك ما ورد من الأحاديث النبوية الشريفة الدالة على أن القرآن كان ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات ، وأكثر وأقل ، فقد ورد نزول العشر آيات في قصة الافك جملة ، كما ورد نزول قوله تعالى : " غير أولى الضرر " وحدها وهي بعض آية [1].

ب — أساليب القرآن :

عندما امتن المولى على عباده بهذا الدين الحنيف ، وأنزل القرآن بأحكامه ومبادئه الثابتة ، وشرائعه المتكاملة ، ابتدأ من العقائد العليا ، ومرورا بضروب الأخلاق والعبادات ، وانتهاء بالمعاملات ، لم يرسل تعالى اللطيف بعباده ، الخبير بقدراتهم ونفسياتهم القول في هذه الشرائع ارسال الأوامر المجردة ، أو الالزامات الصارمة ، ثم ينهي القصة بانذار المخالفين ، ورفع سوط العقوبة في وجوههم ، كما تفعل القوانين الوضعية ونظم البشر ، وشرائعهم الجافة !!

وانما كان من عظيم فضل الله ورحمته ، وكريم لطفه بعباده أن مزج أوامره وتكاليفه بما يحرك قلوب العباد ، ويشوق أرواحهم ، ويعطف نفوسهم ويلطف الاستجابة في صدورهم ، ويوقظ فطرتهم ، ويرفع عنها ما ران عليها من غبش الذنوب والأهواء ، ويستجيشها بما يتوافق معها من بواعث الرغب والرهب ، حدبا منه سبحانه وتعالى ، وتلمسا لهدايتهم ، واستمالتهم الى دينه الحق .

فكان أن استعمل القرآن العظيم لتدعيم مبادئه ، وشرائعه جملة وافرة من الوسائل التدعيمية ، وما من مبدأ أو تكليف الا وقد سبق معه مايثبته

---

(١) : انظر : الاتقان في علوم القرآن جـ ١ ص ٥٧ .

ويؤكده، ويلطف منه ان كان خيرا ، وينفر منه ان كان غير ذلك.[1]

واذا كانت وسائل القرآن التدعيمية كثيرة نوعا ، متعددة طرقا ، فان في مقدمتها أساليب القرآن لما لها من آثار في بيان أحكام القرآن، واقبال الناس عليه، وبيان حقيقته.

وان كانت وسائل القرآن كثيرة، فان أساليب القرآن التي تعتبر جزء من وسائل القرآن كثيرة أيضا.

ولذلك فنحن في هذا المقام لن نتحدث عن كل أساليب القرآن بل نكتفي بايراد بعض منها كأمثلة من تلك الأساليب ، وأثرها في نجاح الدعوة.

فلقد جاء القرآن الكريم بأساليب كثيرة تدل على تدرجه في الخطاب، وتلك الأساليب منها :

١ — نزول القرآن على سبعة أحرف :

ان من أقوى الأدلة على تدرج القرآن في مخاطبة العرب، حسب اختلاف لهجاتهم وأفهامهم نزوله على سبعة أحرف، حيث قد يتفاوت فهمهم للفظ الواحد حسب اختلاف لهجاتهم، وهذا من أوجه اعجاز القرآن الكريم، مما ييسر عليهم قراءته وحفظه وفهم معانيه مما دفع بهم الى الاستجابة لهذه الدعوة واحتمال الأذى في سبيلها بل والجهاد عنها بعد ذلك .

ولما كان لقريش من الخصائص والميزات على غيرها من العرب ماتستحق به استلام القيادة، وزمام الريادة، نزل القرآن الكريم بلغتهم ، ثم توسع فيه الى سبعة أحرف، بلغات العرب الآخرين ، كما تواترت الأدلة بذلك، روى البخارى وغيره عن ابن عباس رضي الله

(١) : انظر : مجلة كلية أصول الدين بالرياض — العدد الثاني ٩٩/١٤٠٠هـ — (مقال للدكتور عبدالستار سعيد) بعنوان : نظرات في الاستدلال القرآني .ص١١٠

عنهما أنه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده حتى انتهى الى سبعة أحرف.[1] "

وقد اختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة ، وخلافهم ليس هذا مكان ايراده ، وانما الذى يهمنا أن هذا التنويع في نزول القرآن على سبعة أحرف له عظيم الأثر ، وكبير الفائدة في حفظهم القرآن، وفهم معانيه لأكبر عدد منهم مع كثرة لهجاتهم ، وتعدد قبائلهم ، فكان في ذلك تسهيل لقبولهم الاسلام واقبالهم عليه ، وأخذهم به ، ومن ثم انتشار الدعوة الاسلامية ، ونجاحها نجاحا منقطع النظير في التاريخ ، بخلاف ما لو نزل بلهجة واحدة.

٢ ـ الاستدلال :

وهذا كذلك نوع آخر من أساليب القرآن ، في التوصل الى معرفة الأشياء وحقيقتها بأدلتها ، كدلالة الألفاظ على المعاني ، والقرآن الكريم لم يكتف بما يحمله مع مبادئه من دلائل صدقها وصحتها البالغة ، بل تعدى ذلك وجعل طلب الدليل وتحصيله تكليفا شرعيا ، وندب الجميع اليه في كل حال ، وهذا شيئ تفرد به هذا المنهاج الالهي ، والحديث عنه أوسع من أن يستقصي ه قال السيوطي : " قال العلماء : قد اشتمل القرآن العظيم على جميع أنواع البراهين والأدلة ، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحذير تبنى من كليات المعلومات العقلية والسمعية الا وكتاب الله قد نطق به ، لكن أورده على عادات العرب دون دقائق المتكلمين لأمرين :

(١) : رواه البخارى جـ ٣ ص ٢٢٦ ـ كتاب فضائل القرآن ـ باب أنزل القرآن على سبعة أحرف.

أحدهما : بسبب ما قاله ، في قوله تعالى : " وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم " (سورة ابراهيم — ٤) .

ثانيا : أن المائل الى دقيق المحاجة هو العاجز عن اقامة الحجة بالقليل من الكلا م ، فان من استطاع أن يفهم بالأوضح الذى يفهمه الأكثرون لم ينحط الى الأغمض الذى لا يعرفه الا الأقلون ولم يكن ملغزا ، فأخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجلى صورة، ليفهم الخواص من أبنائها ما يربي على ادراكه فهم الخطباء[1].

فالقرآن الكريم باستدلاله الواسع، وأسلوبه الفريد ، يقدم الدليل واضحا وجليا عن كل استفسار ، أو خاطرة تدور في خلد المرء ، وهو بذلك يقدم التفسير الشامل للحياة، ودقائقها ، وهذا مما يساعد على فهم أحكامه ، وقبوله لدى الناس، ومن ثم نجاح الدعوة بعد ادراك حقيقتها ، وسبر غورها .

٣ — وسائل أخرى :

لقد سلك القرآن من الوسائل والأساليب في بيان أحكامه ومبادئه سوى ماسبق الشيء الكثير ، يظهر ذلك جليا فيما سلكه القرآن من أساليب البلاغة والبيان ، حيث أنه وان جاء بلغة العرب، ولم يخرج عن سنن كلا مهم ، في ألفاظه وحروفه وتركيبه وأسلوبه على العموم ، فقد بلغ الذروة التي تعجز أمامها القدرة اللغوية لدى

---

(١) : الاتقان في علوم القرآن جـ ٢ ص ١٧٢ .

البشر، بما تضمنه من اتساق حروفه، وطلاوة عبارته، وحلاوة أسلوبه، وجرس آياته، ومراعاة مقتضى الحال في ألوان البيان، وما تضمنه من معاني البلاغة كالنفي والاثبات، والحقيقة والمجاز، والتقديم والتأخير .. وهلم جرا.[1]

" ومن ناحية التأليف والنظم، فالقرآن بديع التأليف، عظيم الوصف، كل كلمة في الآية تامة، وكل لفظ بديع واقع، وكل كلمة منه لو وقعت مع كلام غيره لتميزت، ونظم القرآن في مؤتلفه، ومختلفه، وفي فصله ووصله، وافتتاحه واختتامه، وفي كل منهج يسلكه، لا يتفاوت، كما وصفه الله تعالى: " ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا " (سورة النساء — ٨٢) بخلاف غيره من الكلام الذى يأتي كثير التلون، دائم التغير، يقف بك على بديع مستحسن، ويعقبه قبح مستهجن، وقد يأتيك باللفظة الحسنة بين الكلمات البهم".[2]

اضافة الى ما احتواه القرآن الكريم من أساليب أخرى: كايراد القصة والحوار، والقسم، وضرب الأمثال واستعمال التكرار والتأكيد والجدل، والايجاز والاطناب، وتلوين الخطاب، وغير ذلك من فنون القول الحكيم، البالغ حد الاعجاز في كل حال، وكل هذا من فضل الله ومنّه قد بلغ بالدعوة أعلى المراتب وكان له أكبر الأثر في لفت أنظار العرب وأسماعهم وقلوبهم الى هذه الدعوة الجديدة ما كان سببا في اقبالهم عليها، ونجاحها في أوساطهم نجاحا منقطع النظير.

مبنيا على أسس وطيدة من العقل والوجدان، والفكر والقلب، بعد

---

(١) : انظر : النبأ العظيم ص ٩٠ ومباحث في علوم القرآن للقطان ص ٢٦٦.
(٢) : اعجاز القرآن للباقلاني — بتصرف — جـ ٢ ص ٩٩.

أن جاء هذا التنويع والتعدد لتلبية حاجة الانسانية جميعا على اختلاف منازعهم ومشاربهم .

ثانيا : التدرج في التربية والتشريع :

سبق الحديث عن تدرج القرآن الكريم في مخاطبة الأمة ، ووسائله في ذلك . وفي هذه الفقرة سنتحدث عن تدرج القرآن في التربية ،الذى يعتبر من ثمار التدرج في الخطاب، نظرا لأن التدرج في التربية والتشريع الذى سلكه القرآن يعتبر من وسائل فهم منهج الاسلام، ويسر وسهولة أحكامه ، ثم قبول الناس، وبالتالي نجاح الدعوة، لكون هذا من أهم أسباب نجاح الدعوة الاسلامية في كل عصر ، وفي أى مصر ، وبخاصة عند تكوين اللبنة الأولى للمجتمع الاسلامي الأول .

ونحن في هذا المقام عندما نتحدث عن التدرج في التربية ، فليس مقصودنا التعرض الى أهداف الاسلام أو منهجه في التربية عامة، فهذا له موضع آخر ، وانما نكتفي بالتعرض الى ماهو لب موضوعنا الذى يهمنا ، وهو كيف كان عمل القرآن في التدرج في التربية ؟ وما هي وسائله في التدرج ؟ لأن حديثنا في هذا الفصل عن القرآن الكريم معجزة الدعوة الكبرى ، والذى كان الدعامة العظمى لنجاح الدعوة، بعد أن استطاع بمنهجه الفريد بالتدرج في التشريع والتربية تحقيق مايمكن أن نعتبره معجزة ، وهو نقل المجتمع المسلم من مجتمع جاهلي منحط ، مفكك الأواصر ،الى مجتمع اسلامي مثالي سامق ، مترابط البنيان ، كالجسد الواحد .

وكان من أهم وسائل القرآن — اضافة الى وسائل التدرج في الخطاب — ما يأتي :

أ — أهداف المكي والمدني :

لم يكن من اليسير أن يستطيع هذا القرآن الكريم أن ينقل الناس مما هم فيه من جهل وضلال، الى نور الاسلام وهديه، دفعة واحدة، كما لم يكن من اليسير أن يسلموا قيادهم طفرة لهذا الدين الجديد، لولا أن عالجهم القرآن الكريم بحكمته، وأعطاهم من دوائه الناجح جرعات يستطبون بها من الفساد والرذيلة، لذلك كان هدف القرآن من أول ما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم، أن يسوس أولئك برفق وتؤدة، فأخذ يسير معهم حسب الحوادث والنوازل، فكان أن جاء القرآن المكي تأصيلا، والمدني تفصيلا، لاختلاف أحوال المسلمين وظروفهم بين مجتمعهم في مكة، ومجتمعهم في المدينة، حيث راعى القرآن الكريم هذا الجانب في أهدافه تربية الأمة، في مكة والمدينة، ومن الممكن أن نستبين الفرق بين تربية المكي والمدني، ومراعاة حال الأمة فيما حواه كل من القرآن المكي والمدني من الخصائص والأساليب :

١ — الخصائص :

لم يكن انزال القرآن بصورته المعروفة، حدثا سهلا، أو أمرا يسيرا، لقد أنزله تعالى ليهدى به البشرية، وينقلها مما ران عليها من زيغ وجهل وضلال، ونظرا لعظمة هذا الأمر وأهميته، قرن الله تعالى بالقرآن من الخصائص ما يكون معينا على قبوله، والامتثال لمنهاجه، ومن ثم انتشاره بين الناس ونجاح دعوته، والوسائل التي رافقت نزول القرآن في ذلك كثيرة سبق الحديث عن بعضها، ومنها ما تضمنه القرآن المكي والمدني من الخصائص. حيث كان القوم في مكة في جاهلية تعمى وتصم، يعبدون الأوثان ويسجدون

للأحجار ، ويشركون بالله ، ويكذّبون بيوم الدين ، فكان أن بدأ القرآن الكريم يتناول أصول الايمان بالله تعالى ، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، واثبات البعث والجزاء والحساب وما فيه من جنة أو نار ، مستعينا في ذلك بأساليب التقرير ، والمجادلة بالآيات الكونية ، والبراهين العقلية في أنفسهم ، وفي الكون كله ، قال تعالى : " وفي أنفسكم أفلا تبصرون " (سورة الذاريات — ٢١) واضعا الأسس الراسخة ، والقواعد الثابتة للتشريع والتربية ، مع التنفير مما هم عليه من ضلال وشرك ، حتى اذا ما انحلت عقدة الشرك ، لأنها المصيبة العظمى ، والطامة الكبرى ، وتأسست هيبة الأخلاق العليا بدأ الاسلام في تشريع الأحكام المتعلقة بالعبادات والمعاملات ، حسب أحوال المجتمع ، ومتطلبات الأمة مع دينها الجديد .

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوى : " ولم يزل الرسول صلى الله عليه وسلم يربيهم تربية دقيقة عميقة ، ولم يزل القرآن يسمو بنفوسهم ، ويذكي جمرة قلوبهم ، ولم تزل مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم تزيدهم رسوخا في الدين ، وعزوفا عن الشهوات ، وتفانيا في سبيل المرضاة ، وحنينا الى الجنة ، فما زال القرآن يأخذهم بهذا الأسلوب ، والرسول عليه السلام يربيهم تلك التربية الفريدة ، حتى انحلت العقدة الكبرى — عقدة الشرك والكفر — فانحلت العقد كلها ، وجاهدهم الرسول صلى الله عليه وسلم جهاده الأول فلم يحتج الى جهاد مستأنف لكل أمر أو نهي ، وانتصر الاسلام على الجاهلية في المعركة الأولى ، فكان النصر حليفه في كل معركة ، وقد دخلوا في السلم كافّة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم كافّة ، لا يشاقون الرسول

من بعد ما تبين لهم الهدى ، ولا يجدون في أنفسهم حرجا مما قضى ، ولا يكون لهم الخيرة من بعد ما أمر ونهى ، حدثوا الرسول صلى الله عليه وسلم عما اختانوا أنفسهم ، وعرضوا أجسادهم للعذاب الشديد اذا فرط منهم زلة استوجبت الحد ، نزل تحريم الخمر والكؤوس المتدفقة على راحاتهم فحال أمر الله بينها وبين الشفاه المتلمظة ، والأكباد المتقدة ، وكسرت دنان الخمر ، فسالت سكك المدينة »(١)

وكان من خصائص القرآن المكي بيان أصول الأخلاق ، وحقوق الاجتماع بيانا عجيبا كره اليهم الكفر والفسوق ، وما يحدثه من جهل وقذارة وفوضى ، وحبب اليهم الايمان والطاعة وما يثمره من المحبة والرحمة والاخلاص والبر وطهارة القلب وغير ذلك .

كما نجد القرآن المكي يكثر من قصّ أنباء الرسل ، وأممهم السابقة ونتيجة عصيان أولئك وتكذيبهم أنبيائهم ، وفي هذا أبلغ المواعظ ، وأنفع العبر ، وأنجح السبل لدخول الايمان في قلوبهم ، والامتثال لما سيكلفون به من أحكام وتشريعات فيما بعد .(٢)

والقرآن المكي كان ينزل بأصول العبارات والمعاملات ، مراعاة لحال المخاطبين فلم يكن ممكنا أن يقبلوا أحكام الاسلام ، ودقائق تشريعاته مرة واحدة ، ولكن اذا قبلوا الأصول والأساسيات الكلية هانت الجزئيات بعد ذلك ، ففي مكة شرعت الصلاة ، وشرع الأصل العام للزكاة مقارنا بالربا " فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك

---

(١) : نص : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٩٨ .
(٢) : انظر : مناهل العرفان جـ ١ ص ١٩٦ .

خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون . وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون " (سورة الروم : ٣٨-٣٩)

ونزلت سورة الأنعام ، وهي مكية تبين أصول الايمان ، وأدلة التوحيد وتندد بالشرك والمشركين ، وتوضح ما يحل وما يحرم من المطاعم ، داعية الى صيانة حرمات الأموال والأعراض والدماء .

ثم استمر القرآن الكريم، يسير في خطه المرسوم ، الذى يهدف الى التدرج في تربية الأمة ، والتسهيل عليهم ، مما يرغبهم في هذا الدين ، ويشرح به صدورهم لما جاءهم من الهدى ، ويكون مهيأ لقبول بقية التشريعات والأحكام ، وييسر عمل الدعوة ويساعد في نجاحها في أوساط الناس ، بطريقة فريدة ، لم يشهد لها تاريخ البشر مثيلا ، عندما قام القرآن بتفصيل أحكامه التي أصلها عند بداية نزول القرآن فأصول المعاملات المدنية نزلت بمكة ، وكذلك أسس العلاقات الأسرية ، وأصل تحريم الزنا ، وحرمة الدماء ، كل أصول تلك الأحكام نزلت بمكة ، أما تفاصيل أحكامها وحدودها ومقدار عقوباتها فنزلت بالمدينة . وان أوضح مثال للتدرج في التشريع والتربية هو تدرج القرآن في تحريم الخمر (1) .

وهكذا كان من أهداف القرآن المكي التمهيد لتخليهم عن عقائدهم الباطلة، وعباداتهم الفاسدة ، وعاداتهم المرذولة ، ليمهد لكمال تحليهم بالعقائد الحقة ، والعبادات الصحيحة ، والأخلاق

---

(1) : انظر : مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القطان — ص ١٢ .

الفاضلة ، بعد أن يتخلوا عما هم عليه من شرك وجهل وضلال شيئا فشيئا ، بسبب أسلوب القرآن التربوى الناجح هذا ، بنزوله عليهم بتلك الصورة ، وكلما نجح معهم في هدم باطل ، انتقل بهم الى هدم آخر ، وهكذا بدأ بالأهم ثم المهم ، حتى انتهى بهم آخر الأمر عن تلك الأرجاس كلها فطهرهم منها وهم لا يشعرون ، بلا عنت ولا مشقة ، وفطمهم عنها دون أن يرتكسوا في سابق فتنة أو عادة ، وكانت تلك سياسة رشيدة ، لابد منها في تربية هذه الأمة المجيدة[1].

وفي المدينة المنورة حيث تغيرت الحال عنها في مكة ، وأصبح للمسلمين أمة ودولة، وكونوا مجتمعا متميزا مناسبا لتشريعات الاسلام بعد أن كان المسلمون في مكة لا يملكون من السلطان على أنفسهم ، وعلى مجتمعهم ما يستغرغون فيه تلك الأحكام ، بعد ذلك نزلت تفصيلات الأحكام ، وجزئيات الشرائع ، فشرعت صلاة الجمعة بعد الهجرة[2].

وفي المدينة نزل تفاصيل أحكام المعاملات ،كآية المداينة وآيات تحريم الربا ، كما نزل بالمدينة تفاصيل آيات العلاقات الأسرية

---

(١) : انظر : مناهل العرفان جـ ١ ص ٤٩ .

(٢) : انظر : في ظلال القرآن جـ٢ مقدمة تفسير (سورة الأنعام) ومعالم في الطريق ص ٢٠ (أكثر الروايات على أن المسلمين صلوا الجمعة بالمدينة قبل الهجرة النبوية حيث صلى بهم أسعد بن زرارة أو مصعب بن عمير كما في الرواية الأخرى) .
أنظر : تفسير القرطبي جـ ٨ عند تفسير قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة .. الآية " .

كحقوق الزوجين ، وواجبات الزوجية ، وآيات العشرة والطلاق والمواريث كما جاءت الآيات تفضح المنافقين ، وتجادل أهل الكتاب كل تلك الجزئيات نزلت بالمدينة لتكتمل بها تربية الأمة ، وتسمو بنفوسها الى ما هو مطلوب من الايمان والاخلاص وليكون ذلك عاملا مهما من عوامل قبول الاسلام ، والامتثال له وقبول منهجه ، ونجاح الدعوة نجاحا باهرا ، على يدى أولئك القوم الأكارم ، الذين رباهم القرآن بتلك الصورة ، مما لا يزال البشر يتفيئون ضلاله الى أن يرث الله الأرض وما عليها .

٢ — الأساليب :

اذا كانت هذه خصائص القرآن المكي والمدني ، وهذه أهدافها في التربية ، وهذا أثرها في نجاح الدعوة ، فان أساليب القرآن المكي والمدني التي هدف القرآن بها تربية الأمة ، لاتقل عن تلك الخصائص في الأهمية نظرا لما كان لها من آثار ، حيث اختلاف الأسلوب بين القرآن المكي يعتبر من الفوارق المهمة ، بين القرآن المكي والمدني ، ورغبة في اكتمال هذه الفقرة عن أهداف القرآن المكي والمدني خصصت هذه الجزئية لبيان بعض أساليب المكي والمدني وأثر ذلك في نجاح الدعوة .

في مكة عندما نزل القرآن الكريم ، كان المشركون قد انغمسوا في الوثنية والشرك الى حد يصعب نقلهم منه بسهولة ، وكانوا مشهورين بالفصاحة والبيان ، وكانت لغتهم وسيلتهم في التعبير ، والخصومة وابداء الرأى ، والمدح والذم — شعرا ونثرا — فكان أن واجههم القرآن الكريم بسلاحهم الذى عهدوه ، عندما وصل بهم

وتطلبات العقول فى الترويج للباطل والأفكار الهدامة ، واذا كان المسلمون - مع الأسف - قد ابتعدوا عن منهج الاسلام فى ذلك ! نتيجة تقليدهم كل ناعق ! فما أحوجهم اليوم للعودة الى منهج الاسلام فى كل شئونهم خاصة فى مجال تربية النشئ ، وتعليمه بعد أن سبب للمسلمين تقليدهم الانحطاط ، والهزيمة أمام الشعوب الاخرى ! وتداعت عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها ، وهم كغثاء السيل ، ولم يحققوا قول الله تعالى فيهم : "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله" (سورة آل عمران : ١١٠)

ثمار تلازم الحق والفطرة :

أود أن أشير هنا الى أنه ليس هناك فرق بين وصف الدعوة الاسلامية بدعوة الحق ، أو دعوة الفطرة للتلازم التام ، والتوافق الكامل بين هذين المعنيين من جانب وموافقتهما للدعوة من جانب آخر . ولذا يجب أن لا يفهم من وصف الدعوة الاسلامية فى هذا البحث بدعوة الحق تارة ، ودعوة الفطرة تارة أخرى أن هناك اختلافا بين المنهجين ، بل ان هذا التوافق يعتبر من ميزات الشريعة ودعوتها الاسلامية ، لأنه يبلغ بها مدارج الكمال ، ومما يزيد فى توضيح محاسنها ، وقبول الناس لها مما كان من عوامل سرعة انتشارها ، ونجاحها .

وقد ترتب على هذا التوافق بين الدعوة الاسلامية ، وبين منهجى الحق والفطرة ، اضافة الى ما سبق - من كونها دعوة ربانية - من الصالح للعباد ، والمحاسن ما يعجز القلم - مهما أوتى من قوة البيان - عن تسطيره ، ولكن لابد من محاولة ايضاح بعض جوانب ذلك فيما يأتى حيث أن تلك النتائج لا تقل عما سلف بيانه فى هذا البحث من أهمية فى نجاح الدعوة الاسلامية .
فلقد نتج عن كون دعوة الاسلام دعوة الحق والفطرة أن جاءت الدعوة تتصف بصفات الكمال ، لكونها ثابتة فى أساسها القوى ، وقاعدتها الصلبة ، حيث تقف شامخة البنيان ، ثابتة الاركان . تستعصى على كل ظالم ومعتد ، فى حين أن ثباتها هذا لا يعنى جمودها ، وعدم تطورها ، بل أن من سماتها

الاسلام وحدوده ، تدعو الى الجهاد والاستشهاد والعطف والانفاق والتأليف بين أفراد الأمة الواحدة .

وهكذا كان القرآن في تنزلاته في مكة والمدينة ، مراعيا لحال المدعوين ، وظروف استجابتهم ، وفي هذا درس للدعاة بتذوق أساليب القرآن ، والاستفادة منها في أسلوب الدعوة الى الله ، ولكل مقام مقال ، علاوة على أن مراعاة مقتضى حال المدعوين من أخص معاني البلاغة ، وخصائص القرآن المكي والمدني وأساليبه تعطي الأمة منهجا عمليا لطرائق الخطاب في الدعوة الى الله بما يلائم حال المخاطبين ، ويمتلك عليهم ألبابهم ومشاعرهم ، ويعالج دخيلتهم بالحكمة البالغة ، لأن لكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليبها ، لاختلاف الخطاب باختلاف الناس ومعتقداتهم وأحوال بيئتهم ، ويبدو ذلك جليا في أساليب القرآن المختلفة في مخاطبة المشركين والمؤمنين والمنافقين وأهل الكتاب ، وهذا من أهم عوامل نجاح الدعوة الى أبد الدهر .

ب — النسخ ودوره في التربية :

كان الانسان أكثر شيء جدلا ، وأصعب شيء مراسا ، ولذلك يحتاج تغييره الى جهد ووقت ، ومن هنا : فلم يكن أمر نقل الأمة المسلمة من ذلك المجتمع الجاهلي ، أمرا هينا يمكن تحقيقه في أيام أو شهور ، لذلك جعل الاسلام في منهجه ، والقرآن الكريم في أسلوب تربيته ، وطريقة دعوته ما يحقق الهدف بالتدريج ، وعلى المدى الطويل ، فكان مجيء الناسخ والمنسوخ في القرآن شيئا مهما للتدرج بالأمة في التربية

عندما كان أمر نقلها من تلك البؤرة الفاسدة أمرا شاقا لما فيه من ترك عقائد موروثة ، وعادات محبوبة ، خاصة وقد عرف عند العرب التحمس والحمية لما يألفون ، فاقتضت حاجة التربية ، وحكمة انجاح الدعوة في انطلاقتها التمشي بمهل في التشريع، وفقا لمقتضيات عصبيتهم، وواقع حالهم، فأخذ القرآن يتلطف معهم ، ويسير بهم ، حسبما ينفعهم ، ويقرب من تباعدهم، ويكف من جموحهم ،متنقلا بهم بين السهل والصعب، حتى تم الأمر ونجح القرآن نجاحا باهرا لم يحدث في البشرية مثله ، في سرعة انتشار الاسلام ، وامتزاج النفوس به. ولو أن الاسلام أخذهم في تربيته بهذا الدين مرة واحدة ، لأدى ذلك الى نقيض المقصود ، ومات الاسلام في مهده ، ولم يجد أنصارا يعتقدونه ، ويدافعون عنه ، لأن الطفرة من نوع المستحيل الذى لايطيقه الانسان ، فكان أن جاءتهم هذه الدعوة تمشي على مهل ، متألفة لهم ، متلطفة معهم ، متدرجة بهم الى الكمال رويدا رويدا ، حتى قبلوها ، ونجحت فيهم ، وانتصروا بها عندما قبلوها ، ثم نشروها ودافعوا عنها .

والنسخ الذي له هذا الدور في تربية الأمة ، وقع بالشريعة الاسلامية ووقع فيها ، على معنى أن الله تعالى اقتضت حكمته أن ينسخ بالاسلام كل دين سبقه ، كما اقتضت حكمته نسخ بعض أحكام هذا الدين ببعض حسبما تقتضيه ضرورة التربية والتشريع ، كما سبق آنفا .

وبيان ذلك أن حكمته سبحانه اقتضت أن ينسخ به الأديان كلها ، لأن تشريعه تعالى أكمل تشريع يفي بحاجات الانسانية في مرحلتها التي انتهت اليها ، بعد أن بلغت أشدها ، واستوت، وبعد أن مر النوع الانساني في حياته بأطوار مختلفة ، تقلب فيها كتقلب الطفل ، لكل طور

ما يناسبه ، من الشرائع ، حتى مابلغ العالم أوان نضجه واستوائه، جاء هذا الدين الحنيف خاتما للأديان ، متمما للشرائع، جامعا لعناصر الحيوية، ومصالح الانسانية ، محققا لمطالبها فنسخ الأديان قبله.

وأما حكمة الله في نسخ بعض أحكام الاسلام ببعض ، فترجع الى سياسة الاسلام في تربية الأمة ، وتعهدها بما يرقيها ويمحصها .

تتجلى حكمة ذلك فيما اذا كان الحكم الناسخ أصعب من المنسوخ ، كموقف الاسلام ، في سموه ونبله ، وتربيته في تحريم الخمر، بعد أن كانت مشكلة معقدة كل التعقيد ، عندما كانوا يحتسونها بصورة تكاد إجتماعية ولا يأتونها على أنها عادة مجردة ، بل على أنها أمارة القوة ، ومظهر الفتوة ، وعنوان الشهامة !

هل كان معقولا أن ينجح الاسلام في فطامهم عنها لو لم يتألفهم ويتلطف بهم ؟ الى درجة أن يمتن بها عليهم في أول الأمر ، كأنه يشاركهم في شعورهم، والى حد أنه أبى أن يحرمها عليهم في وقت استعدت فيه بعض الأفكار لتسمع كلمة تحريمه ، حين سألوه صلى الله عليه وسلم : " يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما " (سورة البقرة — ٢١٩).

أما الحكمة من نسخ الحكم الأصعب بما هو أسهل منه فالتخفيف على الناس ترغيبا لهم ، وتيسيرا عليهم ، واظهار لفضله عليهم ورحمته بهم، مما يدفع الى الدخول في هذا الدين، والاستجابة له ، ومن ثم نشره والدفاع عنه والجهاد دونه ، وهذا مما يساعد في نجاح الدعوة وقبولها(١).

وهكذا يظهر جليا أثر تدرج القرآن في الخطاب والتربية في نجاح الدعوة باقبال الناس عليها في بادئ الأمر ، وبالثبات عليها بعد الدخول فيها ،

(١) : انظر : مناهل العرفان جـ ٢ ص ٩٠ وما بعدها .

العامل الثالث : المبادئ والأصول القرآنية :

لما كان القرآن الكريم ، كتاب الدعوة ، ومحور معجزتها ، وأساس انتصارها ونجاحها ، فقد جاء يحمل للناس مبادئ عامة ، وأصولا ثابتة لشئون حياتهم جميعا ، لأنه جاء لهداية النوع البشرى أجمعه في كل زمان ومكان ، وحيث سبق أن ذكرت في تعريف الدعوة " أنها الاسلام من حيث المبادئ ، والقيام بنشره وجذب الناس اليه بالوسيلة المناسبة " ولذلك تتبين علاقة تلك المبادئ والأصول التي جاء بها القرآن بالدعوة ، وبأساليب نجاحها ، حيث أن ثبات تلك المبادئ تبعه ثبات الدعوة ، ورسوخ مبادئها مما أتاح لها فرصة النجاح ، مصداقا لقول الحق تعالى : " ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء. تؤتي أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون. ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار " (سورة ابراهيم — ٢٤ : ٢٦) . والدعوة الاسلامية بذلك تخالف المذاهب الوضعية ، التي تشبه الكلمة الخبيثة ، التي لا تمكث أن تتكشف أمام الناس بزيفها ، ويسقط عنها القناع ، وتنهزم أمام الحق ، وجحافل الهداية لأنه لا أصل لها ولا ثبات فيها ، لأنها أقيمت على الزيف والضلال والمكر والخداع أما الحقائق فهي الثابتة دوما " كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ". (سورة الرعد ١٧) .

والقرآن الكريم بتلك المبادئ الثابتة التي ساعدت في نجاح الدعوة ، قد راعى أحوال الناس ، وتباين طباعهم واختلاف اجتماعهم ، حيث أن مايصلح لزمن قد لا يصلح لغيره ، كما أن مايصلح لمجتمع قد لا يصلح لمجتمع آخر ، فجاء تركيز القرآن في أحكامه وتشريعاته على المبادئ العامة ، والأصول الكلية ، قال الأستاذ

(المودودى)[1] رحمه الله : " القرآن الكريم ليس هو كتاب جزئيات بل هو كتاب المبادىء والقواعد الكلية، ومهمته الحقيقية أن يعرض الأسس الفكرين والخلقية للنظام الاسلامي بوضوح ، ثم يثبتها تثبيتا قويا بكلا الطريقتين : التدليل العقلي ، والتحريض العاطفي .

أما ما يتعلق بالصورة العملية للحياة الاسلامية فانه لا يرشد الانسان اليها بوضع قوانين وأنظمة تفصيلية عن كل ناحية من نواحي الحياة ، بل انه حدد الحدود الأساسية لكل شعبة من شعب الحياة، ونصب معالم جلية في بعض النواحي تشير الى خطوط عريضة يجب أن تؤسس عليها هذه وهي مرضاة الله"[2] ا.هـ. ونستطيع أن نجمل تلك المبادىء فيما يلي :

١ — في العقائد :

انما كان أمر العقيدة أول اهتمامات القرآن الكريم، حيث ظل القرآن المكي ثلاثة عشر عاما يتنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم، يكثر من الحديث عن هذه القضية، وان اختلفت طريقة عرضها ، لأن العقيدة هي قضية الانسان لا تتغير ، لكونها قضية وجوده ، وقضية مصيره ، ونظرا لقوة هذه العلاقة بين الانسان والعقيدة ، جعل منه القرآن الكريم وسيلة لتقرير العقيدة ، وتصحيحها ، بواسطة تفسير سر خلق الانسان وأصله ، وسر وجوده ، ووجود الكون من حوله ، بطريقة فريدة ، مستحسنة، ترغبه في الحق ، وتجتذبه الى الهدى، بواسطة ذلك : فمن هو ؟ ومن أين جاء ؟ والى أين يذهب

---

(١) : المودودى : أبو الأعلى بن أحمد بن حسن المودودى . ولد سنة ١٣٢١هـ بولاية (حيدر أباد) سليل أسرة عريقة، نشأ في بيت علم وفضل مما مكنه من أن يكون في مقدمة مفكرى القرن المنصرم. له مؤلفات كثيرة، كما له جهود مشكورة في الذود عن الاسلام ومبادئه خاصة في القارة الهندية. توفى في أواخر سنة ١٣٩٩هـ. أنظر: كتاب أبو الأعلى المودودى صفحات من حياته وجهاده — أحمد ادريس — الطبعة الأولى ص ١٩٠.

(٢) : النص : في كتاب مبادئ أساسية لفهم القرآن ص ٣٣ . ترجمة خليل الحامدى الطبعة الثالثة — ١٣٩١هـ — ١٩٧١م.

في نهاية المطاف ؟ من الذى جاء به من العدم وأعطاه من النعم ؟ ومن الذى يذهب به ، وما مصيره هناك ؟ ومن الذى أنشأ هذا الوجود الملئ بالأسرار ؟ من الذى يدبره ؟ الى نهاية الاستفسارات التي تثير التساؤل والبحث ، حتى يصل الى الحقيقة والجواب الصحيح ، عن كل هذا ، انه الله المستحق أن يعبد وحده (١).

وأدلة ذلك من القرآن الكريم أكثر من أن تحصر ، وهذا المنهج للدعوة الذى جاء به القرآن الكريم ، قد حقق أسباب النجاح للدعوة ، حيث كشفت تلك الحقائق للناس عن طرف من أسرار الوجود وعظمته ، وجلال موجده المستحق أن يشكر بالعبادة وحده دون سواه .

ودعاة الاسلام في كل مكان مطالبون بتطبيق ذلك الأسلوب الذى اتبعه القرآن الكريم في دعوته ومبادئها .

فكان اصلاح القرآن للعقيدة بتقرير مبدأ الايمان بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر خيره وشره ، وتقرير مبدأ ما اختص الله تعالى نفسه من صفات الكمال . مصداقا لقوله تعالى : " ليس كمثله شيء وهو السميع البصير" (سورة الشورى — ١١) .

وتقرير حقيقة الاسلام، وقواعده وأركانه وهي : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وايقام الصلاة ، وايتاء الزكاة، وصوم رمضان ، وحج البيت الحرام (٢) .

وكذلك ايراد الدلائل القطعية على البعث بعد الموت والجزاء والحساب والجنة والنار، واقامة الحجج والبراهين الواضحة الثابتة على ذلك لاستئصال العقائد الوثنية،واستبدال عقيدة الايمان والاسلام بها (٣) . فكانت قواعد الدعوة تلك قوية ثابتة ، بعد أن جاء القرآن الكريم بهذا التقرير لينشئ أساسا

(١) : أنظر في ظلال القرآن جـ ٢ ص ١٠٠٤ .

(٢) : أنظر كتاب الايمان لابن تيمية ص ٣ — منشورات المكتب الاسلامي بدمشق .

(٣) : أنظر مباحث في علوم القرآن للقطان — ص ١١ .

هاما من أسس الدعوة ، وعاملا مهما من عوامل نجاحها بعد تقرير الهدف من خلق الثقلين ، وهو عبادته تعالى ، فكان أن أخذت الدعوة في مبادئها (المتمثلة في القرآن الكريم) بالأهم فالمهم وهو واقع الدعوة خاصة في مكة .

٢ — في الأخلاق :

القرآن الكريم كتاب تشريع وتربية ، فلم يكن مستغربا اهتمامه بالأخلاق ، والحث على محاسنها بعد اهتمامه بالعقيدة واصلاحها ، لأن في ذلك صلاح الفرد والمجتمع ، فكان للجانب الأخلاقي في مبادىء القرآن أهمية فائقة ، واعتنى به عناية بالغة.

والقرآن الكريم وان وافق غيره من الكتب السماوية في الاهتمام بالعقيدة والأخلاق واصلاحها ، فقد زاد على الكتب السابقة حيث أنه آخر الكتب المنزلة ورسولنا صلى الله عليه وسلم الذى نزل عليه القرآن آخر الأنبياء ، فلم يكتف بالحث على الأخلاق ، والأمر بالتحلي بأسماها ، بل جاء بالقواعد الثابتة والمبادىء السامية ، التي تدل على أهمية العنصر الأخلاقي في الدعوة الاسلامية ، لتواتر الأدلة على الأمر بالتحلي بالأخلاق الفاضلة ، وأثر ذلك في ميزان الله تعالى ، يقول الأستاذ سيد قطب — رحمه الله — : " والناظر في هذه العقيدة يجد العنصر الأخلاقي بارزا أصيلا فيها ، تقوم عليه أصولها التشريعية وأصولها التهذيبية على السواء ، الدعوة الكبرى في هذه العقيدة الى الطهارة والنظافة والأمانة والصدق والعدل والرحمة الى آخر التشريعات في هذه العقيدة التي جاءت لحماية هذه الأسس ، وصيانة العنصر الأخلاقي في الشعور والسلوك ، وفي أعماق الضمير ، وفي واقع المجتمع ، وفي العلاقات الفردية والجماعية والدولية على السواء"(١)

(١) : نص في ظلال القرآن جـ ٦ ص ٣٦٥٧ .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يلخص رسالته في هذا الهدف النبيل عندما قال : " انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[١] . "وفي رواية صالح الأخلاق" واضافة ما ورد من الأحاديث الكثيرة التي تحض على كل خلق كريم ، ففي سيرته الشخصية وتصرفاته العملية ، مثالا حيا وصفحة نقية ، وصورة رفيعة ، تستحق شهادة المولى له في كتابه الكريم " وانك لعلى خلق كريم " (سورة القلم — ٤) ولا يخفى الأثر الكبير لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وما وهبه الله تعالى من خلق عظيم في انجاح الدعوة الاسلامية.

قال الامام الغزالي : " فالخلق الحسن صفة سيد المرسلين ، وأفضل أعمال الصديقين ، وهو على التحقيق شطر الدين ، وثمرة مجاهدة المتقين ، ورياضة المتعبدين"[٢] .

وكذلك كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتابعون لهم باحسان ممن كانوا يتخلقون بأخلاق القرآن العالية ، مثالا للمسلم الحق ، الذى يجاهد في سبيل نشر هذه الدعوة ، بسلاح الأخلاق الكريمة والآداب النبيلة ، فكان خلقهم هذا من الأسباب البارزة في نجاح الدعوة.

كما كان من أصول القرآن السامية ، ومبادئه العامة ، ومقاصده النبيلة اصلاح الأخلاق عن طريق ارشاد الخلق الى فضائلها ، وتنفيرهم من رذائلها فأمر بمحاسن الأخلاق التي تزكو بها النفس ، ويستقيم عوجها ، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، ليقتلع جذور الفساد والشر ، مبينا في ذلك قواعد الحلال والحرام ، ليتحقق بذلك المجتمع المسلم ، المستنير بنور الله ، المهتدى بهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المتخلق بأخلاق القرآن ، المجاهد في

---

(١) : رواه الامام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه جـ ١٠ ص ٦٠ — ورواه البيهقي في الشعب — والحاكم في المستدرك (وقال صحيح على شرط مسلم) .
كما رواه البخارى في الأدب المفرد عن أبي هريرة.

(٢) : احياء علوم الدين جـ ٣ ص ٤٩ .

سبيل دينه ، الناشر لدعوته.(١)

وهكذا عمل منهج القرآن الفريد عمله ، عندما نقل المجتمع من جاهلية منحطة في سلوكها وأخلاقها ،الى أمة مثالية يقتدى بها ، وتقتضي خطاها ، فكان أن أقبل الناس على الاسلام ، ونجحت الدعوة الاسلامية نجاحا باهرا.

٣ — في العبادات :

قلنا فيما سبق ان القرآن الكريم كان أول اهتماماته تثبيت العقيدة وقواعدها لأنها القاعدة لكل الأعمال الأخرى ، فالقرآن الكريم بعد تثبيت قواعد العقيدة وضع القواعد الأساسية للعبادات، لكون العقيدة بمنزلة الأساس والقاعدة في البناء، والعبادة بمنزلة البناء فوقه ، فلا بد لصلاح البناء وسلامته من سلامة القاعدة وصلاحها ، لهذا كانت العبادة عمارة الكون والحياة، وهي الصلة بين البشر وخالقهم ، فكلما اضطربت العبادة اختلت الصلة بين العباد ومن يعبدونه .(٢)

والعبادة هي الغاية من خلق الثقلين ، قال تعالى : " وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون " (سورة الذاريات — ٥٦). واذا كانت العبادة بتلك المنزلة ، فليس مستغربا أن يهتم بها القرآن الكريم ويسعى الى مايثبت قواعدها ، ليستقيم بنيانها ، وتكون عبادة صحيحة ، سالمة من أى اضطراب، يخل بأى جانب من جوانبها ، فكان لسلامة قواعد ومبادئ العبادة أعظم الآثار في ثبات الدعوة ، وترويض الدعاة على نشر هذه الدعوة والدفاع عنها ، ونجاحها في أوساط الناس.

(١) : انظر : مناهل العرفان للزرقاني ج ٢ ص ٢٤٧ .
وكتاب (دراسات اسلامية) لسيد قطب — الطبعة الثالثة ص٤٧ وما بعدها .

(٢) : انظر : كتاب(مفاهيم اسلامية) للمودودى ص ١٢ .

ولابـد من الاشارة البسيطة الى الطريقة التي سلكها القرآن في تثبيت بعض العبادات، كأمثلة على حرص القرآن على اصلاح أصول العبادات لما في ذلك من قبول للدعوة الاسلامية، وانقياد لمنهجها، فلقد جاء القرآن الكريم بقواعد عامة، وأصول ثابتة لاصلاح العبادات، عن طريق ارشاد الخلق الى مايزكي النفس، ويغذى الروح، ويقوّم الارادة، ويفيد المجموع، حيث بدأ بغريضة الصلاة لأنها عمود الدين، فغرضها في أول العهد المكي، ثم زادها الى خمس صلوات قبل الهجرة بسنوات قليلة، وثنى بالزكاة والصوم في السنة الثانية من الهجرة، وختم بالحج بعد ما أن ألفت النفوس جميل شرائعه، واطمأنت الى سلامة أحكامه، فأقبلت عليه، وانقادت لدعوته طائعة مختارة، وكان أن ثبتت عليه عندما ابتليت فيه، وجاهدت دونه وفي سبيله عندما استقامت عليه، فنجحت الدعوة نجاحا لم تشهده دعوة أخرى.

ومسلك القرآن في العبادات المحضة، هو مسلكه فيما يدخل في العبادات من العادات حيث زجرهم عن الكبائر، وشدد على التنكير فيها، فابتدأ في تحريم ما كان متأصلا في النفوس من الموبقات والمفاسد الضارة، كالخمر والميسر والزنى وغيرها(١). فاستطاع القرآن الكريم بهذا الأسلوب تهيئة الأجواء اللازمة لانجاح الدعوة بعد ذلك.

٤ — في المعاملات :

لقد أنزل الله تعالى، هذا القرآن الكريم، لينشىء به أمة ولينظم به مجتمعا، ولينشر به الدعوة، وليحدد به الروابط بين المجتمع، لذلك نجد القرآن الكريم يرسي قواعد ثابتة، وأسسا قوية لهذا الهدف، ليتمكن المسلم

---

(١) : انظر : مناهل العرفان في علوم القرآن جـ ١ ص ٤٩، جـ ٢ ص ٢٤٧.

بواسطتها من ضبط حياته ، وتصرفه في تعامله مع غيره من الأهل الأقربين ، والعشيرة الأبعدين ، ومع الأصدقاء والأعداء ، فجاء القرآن الكريم بمنهاج واضح وقاعدة ثابتة ، وأسلوب دقيق للتعامل والمعاملات ، بأن ربط تلك التصرفات بالله تعالى ، وجعل الثواب العظيم ، والخير الجزيل لمن سلك منهج الله فيها ، وجعل العقاب الشديد ، والشر المستطير ، لمن حاد عن منهج الله مما يحقق تثبيت العقيدة ، ويكفل الاحترام المتبادل ، ويعلي دعوة الله تعالى ، ويسعد الأمة جمعاء.

وما أصدق التعبير القرآني في هذا المعنى عندما جعل القاعدة للتعامل بين الناس ، ماتصلح بها حياة البشر ، ويقوم عليها عمران الكون ، وهي : قاعدة الوفاء بالعهود والعقود ، قال تعالى : " وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا "(سورة الاسراء — ٣٤).

ولم يختل المجتمع المسلم ، ويتهدم بنيانه ، ويتقاعس المسلمون عن واجب الدعوة الى الله ، وتنتشر دعوات الضلال ، الا بعد ما ابتعد المسلمون عن منهج القرآن في التعامل ، وأصبح المسلمون في أكثر المجتمعات لا ينظرون للتعامل الا من زاوية ضيقة ، زاوية المصالح الفردية ، والسعي الى تحقيق المكسب المادى ، وان كان عن طريق الحرام ، وغيره من الطرق التي نهى عنها القرآن ، ولذلك لن يقوم للمسلمين قائمة ، ولن تنتشر الدعوة ، الا بعد الرجوع الى منهج القرآن الكريم في التعامل ، وهو منهج الوفاء بالعقود والعهود ، وفق مراد الله تعالى .

كما كان من أهم الأصول الثابتة ، والمبادئ العامة التي جاء بها القرآن لاصلاح المجتمع ، بواسطة تثبيت مبادئ التعامل ، تقرير العدل المطلق ، وضرورة التزام المساواة بين الناس في التعامل ، والقضاء على

أى فارق سوى التقوى ، قال تعالى : " يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم " (سورة الحجرات — ١٣) .

وتحقيقا لمصلحة الأمة التي تسعى اليها الدعوة أقام القرآن الكريم قواعد تعامله على أساس مراعاة الفضائل ، وتحقيق المصالح في أحكام المعاملات والعلاقات التي تربط المسلمين بعضهم ببعض، فحث على الوفاء بالعهود ، وأمر باجتناب الرذائل من ظلم وغيره ، بل وحذر من عواقب نقض العقود والكذب والخيانة ، وأكل أموال الناس بينهم بالباطل كالرشوة والربا والخرافات لما في تحقيق منهج الله تعالى الذى تضمنه القرآن الكريم في ذلك من صلاح للمجتمع ، وحفظ حقوقه ، بعد أن جاء القرآن الكريم بالقواعد والمبادئ التي تصلح الفرد في عقيدته وعلاقته بربه ، وتحفظ حقه وحق غيره في تعامله مع الغير (1) .

فالدعوة الاسلامية تسعى الى نشر تلك المبادئ وتثبيتها ، بعد أن جاء بها القرآن الكريم ، وعرف الناس قيمة تلك المبادئ في حفظ حقوقهم ، ورعاية مصالحهم ، وأثر ذلك في حياتهم ، فقبلوها ، ومن ثم ثبتوا عليها ، وقاتلوا في سبيل نشرها ، بعد أن طبقوها في سلوكهم ، فكان ذلك من أسباب نجاح الدعوة .

ومفهوم العقود التي جاء المبدأ القرآني بحفظها والوفاء بها ، يدخل فيها كل تصرف يصدر من المسلم سواء كان عبادة أو معاملة .

يقول الشهيد سيد قطب — رحمه الله — : " ان لكلمة العقود معنى أوسع من المعنى الذى يتبادر الى الذهن لأول وهلة ، ويكشف عن أن المقصود بالعقود هو كل ضوابط الحياة التي قررها الله .

وعلى عقد الايمان بالله ، والعبودية لله تقوم سائر العقود . سواء مايختص

(1) : انظر مناهل العرفان جـ ٢ ص ٢٤٨ .

منهـا بكل أمر وكل نهي في شريعة الله ، وما يتعلق بكل المعامـلات مع الناس والأحياء والأشياء في هذا الكون في حدود ماشرع الله .

فكل هذه عقـود ينادى الله الذين آمنوا بصفتهم هذه أن يوفـوا بهـا اذ أن صفة الايمان ملزمة لهم بهذا الوفاء ، مستحثة لهم كذلـك على الوفاء[1]»

وأخـيرا فهذه مبادئ الاسلام ، وأصوله الثابتة في نطاق العقيـدة والأخـلاق والعبادات والمعاملات التي جاء بها القرآن الكريم ، لينـير للنـاس طريق هدايتهم ، ويتبعوا ما أمـرهم به ربهم لتحصـل لهم السعادة والفـوز ، اذا اتبعوا تلك القـواعد والأصـول وساروا على هداها مـن كتاب الله " كتـاب أحكمت آياته ثم فصلت من لـدن حكيم خبير " (أولـ سورة هـود) . وصـدق الله العظيم حين وصـف شرعه الحكيم ، فقال : " اليوم أكملت لكم دينكـم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسـلام دينـا " (سـورة المائدة ـ ٤٣) .

(١) : نـص في ظلال القـرآن جـ ٢ ص ٨٣٥ .
(وأنا لا أوافق كاتبنا الكبير فـي التفريق بين الايمان باللـه والعبودية لله ، لأنه لا ايمان بالله اذا لم يكن هناك عبودية) .
لذا لـزم التنويه مع حسن الظن ، بشهيد الاسلام سيد قطب ـ يرحمه الله ـ وأنه لم يقصـد ذلك فيما ذكره .

الفصـل الثالـــث

العوامل الذاتية في الدعـــاة

العامل الأول : شخصيته صلى الله عليه وسلم .

" الثاني : حكمته وحسن اعداده للدعـــوة .

" الثالث : نوعيـة الصحابة الذين رباهم .

" الرابـع : تضحيتهـم وجهادهم .

من المؤكد أن لدعاة الاسلام ، ولأخلاقهم وتصرفاتهم أعظم الأثـــــر في نجاح الدعوة الاسلامية في كل زمان ومكان ، لأن الله تعالى شاء أن يجعل للبشـــــــر دورا هاما في نشر الدعوة الاسلامية وبيانها للناس، فأصبــــح دعاة الاسلام هم المنظار الذى يرى به غير المسلمين الدعوة الاسلامية ، والديـــن الاسلامي الحنيف ، ويصلون بواسطتهم الى حقيقة الدعوة ، ويسـبرون غورهــا .

ولعله لن يغيب عن البال أثر التجار المسلمين ، بسبب حسن سلوكهــــم وطيب تعاملهم ، مع غيرهم في نشر الاسلام في بعض بلاد الصين وأندونيسيا وغيرها من البلاد ، عندما طبقوا الاسلام في جميع تصرفاتهم .

لذلك نجد الرسول ــ عليه السلام ــ وهو امام الدعاة الخبير بأصـــــول الدعوة ، العارف لوسائلها كان في سلوكه ، وأخلاقه أكبر نموذج للمسلم الحــق ، المطبق لما يدعو اليه ، كما أن أصحابه رضوان الله عليهم ، قد أخذوا منه القدوة الحسنة والنموذج المحتذى ، في جميع تصرفاتهم ، امتثالا لقوله تعالى :

" لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكـــر الله كثير " (سورة الأحزاب ــ ٢١) .

حيث كان لاقتدائهم برسولهم ــ عليه السلام ــ أعظم الأثر في نجاح الدعــوة .
ولما كنا نتحدث عن أسباب نجاح الدعوة الاسلامية ، كان لزاما علينا أن نتحدث عن هذا الجانب الهام من أسباب نجاحها ، أعني العوامل الذاتية في الدعـــاة أنفسهم ، فأفردت هذا الفصـل من الرسالة للحديث عن شخصيته صلى اللـــــه عليه وسلم ، وحكمته في الدعوة ، واعداده لها ، كما خصصت جـزءا من هـــــذا الفصل للحديث عن أولئك الرجال الذين رباهم ــ عليه السلام ــ وذكرت بعــض النماذج الرائعة من تضحياتهم وجهادهم ، في سبيل الدعوة ، ونشرهـــــــا والذود عنها . وما كان لذلك من أثـر في نجاح الدعوة .

العامل الاول : شخصيته صلى الله عليه وسلم :

الحديث عن شخصيته كان لها دورها في حياة الأمم والشعوب ، ليس بالأمر الهين ، الذى يمكن البحث في جوانبه ، والالمام بمحتواه بسهولة ويسر ، فما بالك اذا كان الحديث عن أفضل البشر ، وأكرم الخلق ، وخاتم النبيين وأفضلهم صلى الله عليه وسلم ، الذى زكاه رب العالمين ،في كتابه المبين .
وجعل ذلك قرآنا يتلى الى يوم الدين،فقال عز شأنه : " وانك لعلى خلق عظيم" (سورة القلم — ٤) .

فالحديث عن شخصية ما ، يكون غالبا بدراسة ما برز فيه ذلك الشخص من صفة ، أو بعض من الصفات المحدودة التي ميزته على أقرانه ، والحديث عنها ، فاننا عندما نتحدث عن شخصية قائد بعينه نتعرض الى الخلال والخصائل التي برز فيها من ناحية تفوقه أو عبقريته في الجانب الذى برز فيه ، وهو كونه قائدا شجاعا يستطيع تحقيق النصر ، بما أعطاه الله من مقدرة على حسن التخطيط العسكرى ، والسيطرة على جنده ، وغير ذلك من الميزات الواجب توفرها في القائد العسكرى ، وعندما نتحدث عن داعية ما ، نتحدث عما منحه الله تعالى من قوة البيان ، ومقدرة على مخاطبة الناس بقدر عقولهم ، وحسب أحوالهم ، لاجتذاب أكبر قدر منهم ، بطريقة الداعية الواعي الملهم ، آخذا في ذلك بأيسر السبل ، وبكل وسيلة مستطاعة ، وهكذا دواليك .

أما عندما نتحدث عن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته العطرة ، وشمائله الكريمة ، فالأمر يختلف تماما لأن مجال البحث وضروراته تلزمنا بالتحدث عن فضائل أشخاص مجموعة في شخصه صلى الله عليه وسلم ، فالحديث عنه أولا في كونه رسولا مرسلا من الله بشيرا ونذيرا ، ونتحدث عنه باعتباره داعية وامام للدعاة ، ومبلغا عن ربه تعالى ، ونتحدث عنه من كونه خطيب بليغ ، ونتحدث

عنه من كونه فقيه بارع ، وقائد محنك ، وانسان متواضع لله عابد ناسك ، ونتحدث عنه أبا وزوجا ، ورب أسرة ، ومربي أمة ، كما نتحدث عن سماحته وكرمه حتى مع خصومه ، ونتحدث عن محمد السياسي الفذ ، والادارى الناجح ، الى آخر تلك الصفات والخصائص التي تواترت أدلة ثبوتها وهي من الاستفاضة والكثرة ، أشهر من أن نسوقها هنا(١).

فرسول الله صلى الله عليه وسلم قد بلغ أعلى مراتب الكمال المقدورة للبشر ، ولم يصل الى درجته بشر قبله ولا بعده ، ورسول الله لم يكن عبقريا فقط لأن شخصيته فوق العبقرية لأن الرسالة التي بعث بها لا ترجع الى ذاته ، وانما هي منحة وفضل من الله تعالى يهبه لمن اصطفاه .

ثم برز الرسول صلى الله عليه وسلم وبلغ الكمال المقدور للبشر ، في كل جوانب شخصيته ، فهو ليس عبقريا(٢) على نمط البشر ، وانما هو رجل جمع له الكمال من طرفيه : الوهبي والكسبي .

واذا كان القرآن الكريم — كما سبق — المعجزة الكبرى للدعوة فهو صلى الله عليه وسلم المعجزة الأخرى لها لكونه جمع كل الصفات المتوفرة للرسل قبله من: حسن الخلق ، والصدق ورجاحة العقل ، والحلم والصبر والعفة ، وغيرها . اضافة الى وقوع ما بشر به ، وأخبر عنه في المستقبل ، وما منحه الرب من المعجزات ، وخوارق العادات التي يوقعها تعالى بقدرته على يدى رسله ، وتميز بتشريف الله له بزيادة الفضل ، وعلو المكانة ، حيث جعل الله رسالته عامة لبني البشر ، وعندما ينظر المرء لتلك الميزات والخصائص بميزان العقل ،

(١) : انظر : كتاب عبقرية محمد للعقاد طبعة ١٣٨٦هـ — ١٩٦٦م . بيروت . ص ١١ وما بعدها (بتصرف) .

(٢) : العبقرى صفة لكل ما يولع في وصفه ، وعبقرى القوم سيدهم ، وقيل العبقرى الذى ليس فوقه شيئ . انظر : لسان العرب ج ٤ ص ٥٣٥ .

ومنظار الفطرة السليمة، التي فطر الله الناس عليها ، لا يسعه الا التصديق بأن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله حقا لكل البشر .

ونحن في هذه العجالة لا نستطيع متابعة كل صفاته وشمائله صلى الله عليه وسلم ، واستجلاء خصائصها ، لقصورنا أولا ، وللايجاز الذى يفرضه ظروف البحث ثانيا ، لأن الحديث عن كل ذلك يحتاج الى أسفار ومجلدات كثيرة، ولكن اذا لم نستطع لمس هذا الكمال ، فلا أقل من أن نشير اليه بأطراف الأصابع اجلالا وتقديرا ، ولذلك سأكتفي بايراد شيء يسير عن شخصيته صلى الله عليه وسلم، مع يقيني بأن ما أذكره لا يساوى شيئا ، من حقه العظيم ، كما أن مانقوله لا يساوى شيئا بالنسبة الى شهادة الله تعالى له ، وثنائه عليه في مثل قوله عز وجل : " وانك لعلى خلق عظيم" (سورة القلم — ٤) .

وسأحصر حديثي في هذا المبحث في بعض صفاته صلى الله عليه وسلم : كحسن الخلق ، وعلو المكانة ، والمثابرة والكفاح ، وغيرها من الصفات التي كانت من الأسباب المؤثرة في نجاح الدعوة وقبولها وانتشارها .

أ — حسن الخلق :

ليس من شك أن حسن الخلق ، من أهم الصفات التي يجب أن يتحلى بها المرء ، وخاصة دعاة الاسلام .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان قدوة ، ومثالا فريدا في خلقه ، وحسن تعامله مع نفسه أولا ، ومع ربه تعالى ، ومع عباد الله كذلك .

فالله تعالى الذى اختاره لأمانة وحيه ، ولتبليغ دعوته قد أعطى عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم من حسن الخلق ما لم يعط بشرا سواه .

والقرآن الكريم قد جلى لنا وأبان بكل وضوح كيف كان خلقه صلى الله عليه وسلم ، في قوله تعالى : " وانك لعلى خلق عظيم " (سورة القلم — ٤) .

كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد وضح الهدف النبيل ، والغـــرض السامي من بعثه فيما رواه أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليــه وسلم : " انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " وفي رواية " صالح الأخـــلاق"(١) كما وردت أحاديث أخرى كثيرة عن حسن خلقه صلى الله عليه وسلم يصعب ذكرها هنا .

واذا كان الأمر كذلك فمن البديهي أن يكون صلى الله عليه وسلم أتـــم الناس خلقا ، لأن من به نقص أو عيب لا يصلح للقيام بمهمة اتمام الأخـــلاق " لأن فاقد الشيئ لا يعطيه " كما يقال .

فقد اجتمعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كل الفضائل ، وتنزه عن كل المعايب، لأن الله تعالى اصطفاه من خلقه ، لتبليغ رسالتـــه ، فطهره من الأرجاس، وحفظه من كل سوء ، وعلمه وهذبه ، ليكون قـــدوة للبشر ، كما أخبر بذلك القرآن، في قوله تعالى : " لقد كان لكم فـــي رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا " (سورة الأحزاب — ٢١) .

ولقد أكمل الله تعالى لرسوله — عليه السلام — المحاسن خَلْقا وخُلُقاً ، وجمع الفضائل الدينية والدنيوية فيه نسقا .

قال القاضي عياض رحمه الله : " اعلم أيها المحب لهذا النبي الكريم الباحث عن تفاصيل جُمَل قدره العظيم ، أن خصال الجمال والكمال فـــي

---

(١) : رواه الامام أحمد في المسند جـ ١٠ ص ٦٠ . ورواه البيهقي في شعب الايمان ، والحاكم في المستدرك . (وقال : صحيح على شرط مسلم). كما رواه البخارى في الأدب المفرد وكلها برواية أبي هريرة.

البشر نوعان :

١ — ضروري دنيوي اقتضته الجبلة ، وضرورة الحياة.

٢ — مكتسب ديني وهو ما يحمد فاعله ، ويقرب الى الله تعالى زلفى ، ثم هي على فنّين أيضا منها ما يتخلص لأحد الوضعين ، ومنها ما يتمازج ويتداخل ، فأما الضروري المحض فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب مثل ما كان في جبلته من كمال خلقه ، وجمال صورته ، وقوة عقله ، وصحة فهمه ، وفصاحة لسانه ، وقوة حواسه ،وأعضائه ، واعتدال حركته.

وأما المكتسبة الأخروية ، فسائر الأخلاق العلية ، والآداب الشرعية من الدين والعلم ، والحلم والصبر والشكر والعدل والزهد والتواضع والعفو والعفة والجود والشجاعة والحياء والمروءة والصمت التوءدة والكرم والوفاء والرحمة وحسن المعاشرة وهي التي جماعها :" حسن الخلق " .

وقد كانت تلك الصفات على الافراد والاجمال من ضرورات الدعوة، وسببا من أسباب نجاحها ، قال تعالى : " فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين" (سورة آل عمران — ١٥٩).

واذا كان هذا مجمل حسن خلقه صلى الله عليه وسلم فمن المناسب التعرض الى تفصيل بعض الصفات الخلقية ، التي وهبها تعالى لرسوله وأنعم بها عليه ، والتي هي فرع من حسن الخلق ومنها :

---

(١) : نص القاضي عياض — كتاب الشفا جـ ١ ص ٥٤ .

١ — الصدق والأمانة :

لقد بلغ صلى الله عليه وسلم في قومه منزلة لم يصل اليهما شاب من أقرانه في قومه لما تواتر عنه من صدق الحديث ، وعظيم الأمانة ، حتى لقبوه " الأمين " دون منازع ، وأخذوا يضعون عنده ودائعهم لما منحه الله من مروءة في قومه ، ورأى سديد ، وحلم وتواضع ، حتى ان خديجة بنت خويلد ، تلك المرأة التي منحها الله المال والشرف ، والمعرفة بالرجال ، تختاره من بين رجال قريش ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار ، وهي تجد في قومها الكثير من التجار ، وأرباب الاحتراف والاسفار ولكن ما بلغها عن محمد وصدق حديثه ، وعظيم أمانته ، وكريم خلقه ، جعلها تعرض عن غيره اليه ، ويحصل لها بسببه الربح الكثير ، والبركة العظيمة ، ويحصل من البشارات والخير على يديه ، مايبهر غلامها " ميسرة " الذى كان يصاحبه في الرحلة للشام ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد قامت خديجة بعرض نفسها عليه ليتزوجها ، لما رأت عليه من علامات حسن الخلق ، وصدق الحديث ، في حين يعرض عليها كثيرون من قومها الزواج ، ولم تقبل لما كانت عليه من شرف ومنزلة ، وعلو مكانة ، وحزم في قومها ، حتى كانت تدعي في الجاهلية بالطاهرة ، وبسيدة قريش ، ولكن كل هذا لم يساو شيئا لها بالنسبة الى من تقدمت بعرض نفسها عليه لزواجها لما رأته عليه من حسن خلق ، وأمانة وطيب نفس.(١)

ولقد شهد بأمانته ، وصدق حديثه ، وما منحه الله من خصال حميدة

(١) : انظر : سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٠٥ .

القاصي والداني ، والعدو والصديق ، فهذا النضر بن الحارث وهو من أشد أعدائه صلى الله عليه وسلم بعد الدعوة يعيب على قريش تكذيبها محمدا مسفها رأيهم منتقدا كذبهم لمحمد صلى الله عليه وسلم فيقول : " قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا، وأعظمكم أمانة ، حتى اذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر، لا والله ما هو بساحر " قال ذلك في اجتماع قريش للاتفاق على رأى يقولونه للعرب الذين يحضرون في الموسم ، لينفروهم من محمد ويظهروا كذبه فيما يدعيه من النبوة، وكان حسده لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ومكانته في قومه مانعا من الدخول في الاسلام.(١)

وهذا أبو سفيان وهو من أشد أعدائه أيضا ، كان مع نفر من قريش أمام هرقل حينما سأل ملك الروم أبا سفيان قائل : " هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان لا ، فقال هرقل :

" ماكان ليدع الكذب على الناس ، ويكذب على الله "(٢)

ولقد كان لصدقه وأمانته أثر كبير في نجاح الدعوة ، حيث نجد خواصه أول من آمن به كزوجه خديجة ، وصديقه الحميم أبو بكر ، ومولاه زيد بن حارثة ، ولو كانوا يعلمون شيئا يجرحه ، وهم أدرى الناس به لما كانوا السابقين الى الايمان بدعوته وتصديقه ، وهم أدرى الناس ببواطنه .

٢ — العفة :

لما كانت هذه حال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصدق والأمانة ليس مستغربا كونه عفيف النفس، مستغنيا عما في أيدى الناس،

(١) : انظر سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣١٩ .وصدغيه مفردها صدغ وهوما بين العين والأذن ويسمى الشعر في هذا الموضع صدغا .

(٢) : صحيح البخارى جـ ١ ص ٨ .

مقبلا على ربه ، متعلقا به ، بعيدا عن مظاهر الدنيا وبهارجها راضيا بحال الفقر والحاجة ليربي نفسه على تحمل الشدائد والصعاب .

وأدلة ذلك من سلوكه صلى الله عليه وسلم كثيرة ، منها أنه لم يستغل رغبة خديجة وثقتها فيه للكسب المادى ، أو المصالح الدنيوية حيث كان في امكانه أن يشاطرها مالها ، ويصبح أغنى رجل في مكة ، وترك كل ذلك ليواصل تحنثه وتعلقه بربه ، واذا كان قومه قد عرفوه بتلك الحال من العفة والاعراض عن الدنيا ، فلا بد أن يستجيبوا له عندما يدعوهم ، ويعرفوا صدقه ، ونبوته ، فكان ذلك من دلائل صدقه ، ومن عوامل نجاح دعوته .

٣ — حلمه وصبره :

لقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الحلم والصبر كماله ، شأن كماله من كل خلق كريم ، كان حليما لا يغضب الا للحق ، اذا انتهكت حرمات الله ، ولم يغضب لنفسه قط .

وكان صلى الله عليه وسلم مثالا للصبر والتحمل ، حيث لا يخفى ما كان يلاقيه من قومه من سخرية وايذاء واهانات وهو متحمل كل ذلك ، خلال ثلاثة عشر عاما من الزمن ، وهي فترة طويلة ، تدل على مقدار صبره وجلده ، ومجال هذه الرسالة لا يمكننا من ايراد الأدلة التي هي أكثر وأشهر من أن تذكر ، وهي تدل على مقدار صبره ، وحلمه وتحمله ، وكل تلك الخصال كانت عاملا من عوامل نجاح دعوته ، ودليلا على صدق نبوته ، وثباته على مايدعو اليه ، مما لفت الأنظار الى هذه الدعوة ، فكانت الاستجابة كبيرة لدعوته .

هذه بعض من خصاله صلى الله عليه وسلم ، التي كان ملتزما بها ،

وسائرا عليها في كل الأحوال ، وقد كانت تلك الخصال دلالة من أدلة صدقه ، ومكانته ، ومن ثم عاملا من عوامل نجاح دعوته عند من عرفوا عنه تلك الخصال والخلال الحميدة التي يجمعها حسن خلقه صلى الله عليه وسلم ، وخاصة العرب الذين كانوا يجلون الثبات على المبدأ ، ويقدرون التضحية والتحمل .

وحسبنا أن نعلم أن الله تعالى قد كافأه على ذلك الخلق ، بأن خيره أن يكون ملكا أو نبيا ، فاختار أن يكون نبيا عبدا متواضعا لربه هاديا لخلقه ، مرشدا لهم ، داعيا لهم الى مافيه خيرهم وسعادتهم ، بعد أن أوصله تعالى بهذا الخلق منزلة لم يصلها بشر سواه صلى الله عليه وسلم.(١)

ب — علو المكانة :

لما كان أنبياء الله صفوة عباده ، وخير خلقه ، لما كلفهم به من القيام بحقه تعالى ، فقد استخلصهم من أكرم العناصر ، وأمدهم بأوكد الأواصر ، حفظا لنسبهم من قدح ، وصيانة لعرضهم من جرح ، ولتكون النفوس لهم أطهر ، والقلوب لهم أصفى ، وفي ذلك سهولة في انقياد من يدعون ، وأسرع لاجاباتهم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم وهو خير الأنبياء وأفضلهم ، قد اختاره الله من أرفع الأنساب وأعلى المكانة في قومه ، بل وفي الخلق كلهم ، وقد كان ذلك من أقوى الأسباب في نجاح دعوته ، يبين ذلك ماحصل للرسول من بعض قومه من وقوفهم معه ، وان لم يكن بعضهم مؤمنا بما يدعواليه في بادىء الأمر ،واسلام بعضهم من باب الحمية لرسول الله ودفاعهم

---

(١) : انظر : كتاب الشفا جـ ١ ص ١٣٠ .

عنه ، كما حصل من حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، حيث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من أرفع قومه نسبا ، فهو لم يزل ينتقل من خير الآباء الى خير الأبناء حتى انتهى الى كبير مكة ، وعظيم قريش ، عبد المطلب بن هاشم ، ثم الى أبيه عبد الله أشرف الناس نسبا.(١)

روى البخارى في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذى كنت فيه "(٢).

وروى مسلم عن واثلة بن الأصقع قال : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم "(٣).

وروى الامام أحمد بسنده عن العباس رضي الله عنه قال : " بلغه صلى الله عليه وسلم بعض مايقول الناس : قال " فصعد المنبر فقال : من أنا ؟ قالوا : أنت رسول الله ، فقال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، ان الله خلق الخلق ، فجعلني من خير خلقه ، وجعلهم فرقتين فجعلني من خير فرقة ، وخلق القبائل فجعلني من خير قبيلة ، وجعلهم بيوتا فجعلني من خير بيتا ، فأنا خيركم بيتا وخيركم نفسا "(٤).

وروى الطبراني مثله عن ابن عمر — في الكبير — بسند حسن.

وانما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك لاحمية لنفسه ونسبه في

---

(١) : انظر : أعلام النبوة ص ١٦٦.
(٢) : صحيح البخارى جـ ٢ ص ٢٧٢ (كتاب بدء الخلق — باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم).
(٣) : صحيح مسلم جـ ٤ (كتاب الفضائل باب نسب النبي صلى الله عليه وسلم.)
(٤) : مسند أحمد جـ ٣ ص ٢٢٣.

المقام الأول ، حيث لم يكن بحاجة الى بيان نسبه ، وعلو مكانته فيهم ، وانما لما يعلم أن لذلك آثارا سيئة على قبول الدعوة عند العرب ،لأن الأنساب عندهم في قمة الفضائل ، ومن هنا كان رد رسول الله صلى الله عليه وسلم لبيان الحقيقة الأصلية ، ولقطع الطريق على الذين يعملون ضد الدعوة الاسلامية ، لما كان يدركه صلى الله عليه وسلم من أثر لهذا العامل من عوامل نجاح الدعوة.

ولما كان رسول الله الذى اختاره تعالى لحمل أمانة الوحي ، والتبليغ عن ربه ، بتلك المكانة في المنبت ، فان الله قد طهر مولده بأن استخلصه من أطيب المناكح ، وحماه دنس الفواحش ، عندما نقله من أصلاب طاهرة.

قال العلامة (الماوردى) : " واذا خبرت حال نسبه وعرفت طهارة مولده علمت أنه سلالة آباء كرام ، سادوا ورأسوا لأنه ليس في آبائه خامل مسترذل ، ولا مغمور مستذل ، كلهم سادة وقادة ، وهم أخص الناس بالمناكح الطاهرة ، حتى تحرجوا عن نكاح المحارم ، وان استباحه غيرهم من العرب" (1) .

ولا شك أن لتلك المكانة والرئاسة في قومه أعظم الأثر في نجاح الدعوة وكل تلك الخصائص مما أجراه تعالى ليكون سببا من أسباب قبول دعوته واقبال الناس عليها.

ولقد كان لذلك دوره في شخصه صلى الله عليه وسلم حتى قبل بعثته بدليل مشاركته في كثير من شئون قومه الهامة ، بل وحل بعض مشكلاتهم المستعصية كما حصل من خلافهم في وضع الحجر الأسود ، وكان من حسن طالعهم ،ودلائل نبوته ، وطاعتهم له أن يحكموه في

---

(1) : أعلام النبوة ص ١٨٨ .

ذلك ،ويجنبهم الخلاف والاقتتال الذى أوشك أن يقع فيهم ، وحضر مع قومه وهو شابا يافعا حرب الفجار، وحلف الفضول وأثنى على هذا الحلف بعد بعثته صلى الله عليه وسلم.(١)

ولا شك أن لمكانته تلك في قومه ،واشتهار ذكره فيهم، ومشاركته لهم في قضاياهم أعظم الآثار في نجاح الدعوة ، لما كانوا يعرفون ،من أحواله دقيقها وجليلها .

جـ ـ الاعداد الالهي له :

لقد كان مما أجراه المولى عز وجل للدلالة على صدق نبوته ، وثبوت دعوته ، ماكانت عليه حاله منذ صغره ، من حياة الكفاح والنكد والمثابرة ، بعد أن توفى والده وهو جنين في بطن أمه .(٢)

فولد يتيما لم يرث من والده شيئا ، واسترضع في بني سعد ـ كما سلف ـ كما توفيت أمه وهو ابن ست سنين ، فكفله جده عبدالمطلب، ورعاه أحسن رعاية ، وكان يعطف عليه دون بقية أبنائه ، ولقد كان يجلسه جده على فراشه بجوار الكعبة ، بينما يمنع بقية أبنائه من الجلوس على فراشه ، ويقول : " دعوا ابني ، فوالله ان له شأنا " ثم يجلسه معه عليه ويمسح ظهره ، ويسره مايراه يصنع" ذكر ذلك ابن اسحاق .(٣)

وبالرغم من تلك الرعاية والعطف وعلو المكانة ورفعة النسب،فان ذلك لم يجعله يركن للكسل ، والعيش عالة على أهله ، ويعيش حياة الترف واللهو كغيره من فتيان مكة ، بل اتجه الى حياة الكفاح والمثابرة والعمل الشريف مهما كان لما أراده الله من اعداد الهي له لتحمل هذه الدعوة فيما بعد ،

(١) : انظر : سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٤٥ ، ٢٠١ ، ٢١٤ .
(٢) : انظر : السيرة الحلبية جـ ١ ص ٨١ .
(٣) :انظر :سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٧٩ .

واذا أراد الله تعالى شيئا هيأ له أسبابه ومقدماته .

ولقد كان يرعى الغنم لقومه بمكة ، كغيره من الأنبياء قبله ،فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : " ما بعث الله نبيا الا رعى الغنم ، فقال أصحابه : وأنت . فقال : نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة".[1]

وفي رعايته — عليه السلام — الغنم حكما كثيرة منها :

ان الرجل اذا استرعى الغنم ، وهي أضعف البهائم ، سكن قلبه الرأفة واللطف تعطفا ، فاذا انتقل من ذلك الى رعاية الخلق كان قد ذهب أولا من الحدة الطبيعية ، والظلم الغريزى ، فيكون في أعدل الأحوال ، وهكذا يكون هذا العمل كمالا في حق الأنبياء ، بخلاف غيرهم من البشر[2] . مما يكون عاملا في استجابة الناس لما يدعوهم اليه واقبالهم عليه .

والقرآن الكريم أكبر دليل وأصدقه على ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من يتم وفقر ، فالله تعالى يمتن على رسوله بأن غير حاله ، فآواه بعد يتم ، وأغناه بعد فقر .

قال تعالى : " ألم يجدك يتيما فآوى . ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى "(سورة الضحى — ٦ : ٨) .

واذا كانت هذه شخصيته التي جمعت كل خلق حسن من : صدق وأمانة وصبر وحلم وعفة وتواضع وشفقة ، وغير ذلك من كمال الأخلاق ، وهذه مكانته بينهم ، وهذا نسبه فيهم ، وهذه جلائل أعماله ، وحياته في كفاحه وجلده ومثابرته أدركنا الأثر القوى لشخصيته صلى الله عليه وسلم ، ودورها في نجاح الدعوة ، بعد أن أهّله ذلك ليكون فيهم في مكان الصدارة

(١) : رواه البخارى في الصحيح جـ ٣ ص ٣٢ (كتاب الاجارة) .
(٢) : السيرة الحلبية جـ ١ ص ٢٠٦ — بتصرف — .

والاحترام والهيبة ، ولقد كان المشركون يعرفون قدره ، ويعلمون مكانته ، ويعلمون صدقه فيما يدعوهم اليه ، ولكنه الحسد الذى يأكل قلوبهم ، والظلم المحتدم في أفئدتهم ،قال تعالى : " قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون "(سورة الأنعام — ٣٣) .

فعندما أظهر دعوته ، اهتموا من أمره ، واتجهت أنظارهم للدعوة ، باهتمام بالغ ، يلفت النظر الى حد الغرابة ، ولم يعرضوا عنه ويتركوه وشأنه ، أو يخلوا بينه وبين غيرهم ، بل وقفوا في وجه الدعوة من أول أمرها ، وفاوضوه صلى الله عليه وسلم ليعرض عن دعوتهم لهذا الأمر الذى جاءهم به ، حتى عرضوا عليه أن يكون رئيسا عليهم ، وعرضوا أن يعطوه من المال حتى يكون أغناهم ، ولو لم يكونوا يعرفون مكانته ، ودور شخصيته وصدقه فيما جاءهم به لما عرضوا عليه كل ذلك ، وهم فيهم رجال أهل معرفة ودهاء ، ولقالوا اتركوه وشأنه ، ويجدون من غيرهم من يكفيهم أمره ، ويقضي على دعوته .

ولقد ثبت توقعهم ، وما كانوا يخافونه ، حيث أظهر الله دعوته ، وانتصر عليهم ، وهم كارهون ، واستطاع الذى رعى الغنم أن يرعى الخلق ويقودهم للهداية والعزة والخير ، وكان هذا بسبب شخصيته صلى الله عليه وسلم التي كانت من أهم عوامل نجاح الدعوة .

العامل الثاني : حكمته وحسن اعداده للدعوة :

لقد كان لفضل الله أولا ، ثم لحكمة رسول الله صلى الله عليه وسلم واعداده المتقن ، وتصرفه الباهر ، وتخطيطه المحكم ، أعظم الأثر في نجاح الدعوة الاسلامية ، وكان من مظاهر حكمته البالغة في هذا الجانب استعماله في سبيل انجاح دعوته كل وسيلة ممكنة ، والسير على المنهج الذى رسمه له القرآن الكريم ، بعد أن منحه تعالى كل الصفات التي تؤهله لتحمل الرسالة : كالصدق المطلق ، والالتزام الكامل بما يدعوا اليه ، والتبليغ التام المستمر دون كلل أو ملل ، والصبر الهائل على كيد الأعداء ، وتحمل ايذاء الخصوم ، والاستقامة على أمر الله ، اضافة الى منحه الله كذلك من عقل كبير ، ورأى راجح ، وبتلك الأسباب استطاع صلى الله عليه وسلم أن يصل بالدعوة الاسلامية ، الى أعلى مستويات الانتصار ، والاستعلاء على الأعداء ، وأن يواصل مسيرة دعوته ، بحكمة صائبة ، واعداد متقن (١).

وفي الفقرات التالية من هذا المبحث صور من تصرفاته التي تدل على حكمته صلى الله عليه وسلم ، وحسن اعداده للدعوة وتلك الصور من مئات الأدلة تدل على نواحي العظمة في شخصيته.

ونحن عندما نسوق تلك الصور المضيئة من حياة رسولنا وقدوتنا صلى الله عليه وسلم ، فانما نطالب المسلمين أفرادا وجماعات ، وفي مقدمتهم الدعاة والوعاظ والعلماء اقتفاء خطى سيدنا ورسولنا صلى الله عليه وسلم ، الذى استطاع أن يجعل من جفاة الأعراب ، دعاة خير وهداية ، ومن رعاة الغنم رعاة أمم وساسة شعوب ، وقادة جيوش جرارة ، وأصبح الذين يجهدون أنفسهم في القضاء على الاسلام ، هم الذين يدافعون عنه ، بعد أن تيقن كل منهم أنه على ثغر من

(١) : انظر : كتاب (الرسول صلى الله عليه وسلم ج١ص٢٠) تأليف : سعيد حوى — الطبعة الرابعة ١٣٩٩هـ — ١٩٧٩م.

ثغور الاسلام يخشى أن يؤتي الاسلام من جانبه .

وقد يكون من الضروري التعرض — ولو بايجاز — الى بعض من ضروب حكمته ، وحسن قيادته صلى الله عليه وسلم .

أ — الصبر والصفح :

ان الصبر وتحمل الأذى في سبيل الدعوة من أهم الصفات التي يجب أن يتلبس بها الدعاة في كل زمان ومكان ، ولقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلى الأمثلة في ذلك ، لما احتمله مما ناله من أذى قومه ، فقد احتمل ألوانا من الشدائد ، وصنوفا من الأذى ، تصعب على الجبال والرواسي وما كان ذلك ليضعف من عزيمته ، أو ليثنيه عن مراده .

فقد استهزأ به قومه عندما بادأهم بالدعوة ، فأخذوا يكيلون له السباب والشتم ، ووصفوه بالسحر والكهانة ، واحتقروه وحسدوه ، وتصدى له من قومه أناس جفاة غلاظ ، لايتورعون عن الحاق أقسى الأذى به ، مثل عدو الله أبي جهل التي تنوعت وسائل أذاه للرسول ، وتواترت ووصل به الأمر الى محاولة القاء الحجر عليه وهو ساجد ، ولكن الله منعه ، كما ذكر ذلك ابن اسحاق وغيره من رواة السير والسنن والتفاسير والتاريخ .

وكان من أصناف اهاناتهم الكثيرة أن قام شقي قريش عقبة بن أبي معيط بالقاء سَلاَجزور على ظهر النبي صلى الله عليه وسلم وهو ساجد ، روى البخاري رضي الله عنه ، قال : " بينما النبي صلى الله عليه وسلم ساجد ، وحوله ناس من قريش ، جاء عقبة بن أبي معيط بسَلاَجزور فقذفه على ظهر النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يرفع رأسه فجاءت فاطمة — عليها السلام — فأخذته عن ظهره ودعت على من صنع ذلك فقال النبي صلى

الله عليه وسلم : " اللهم عليك الملأ من قريش : أبا جهل بن هشام وعتبة ابن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف، أو أبي بن خلف " شعبة الشاك[1] فرأيتهم قتلوا يوم بدر .....[2]

وهؤلاء كانوا من سادة قريش ومن أشدهم عداوة للرسول صلى الله عليه وسلم ، وعن عروة بن الزبير قال ، : " سألت ابن عمرو بن العاص أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي صلى الله عليه وسلم ، قال : " بينما النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في حجر الكعبة اذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقا شديدا فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله .. الآية[3].

ولم يقفوا عند حد ايذائه ، وتعذيبه بل تآمروا على قتله .

روى الامام أحمد - بسنده - عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ان الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر ، فتعاقدوا باللات والعزى ومناه الثالثة الأخرى ونائلة واساف : لو قد رأينا محمدا قمنا اليه قيام رجل واحد فلم نفارقه حتى نقتله ...[4]

ولكن الله حفظ رسوله ، وعصمه من كيدهم ، وكان تدبيرهم تدميرا لهم .

---

(١) : شعبة : هو شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي الأزدي الواسطي ، ولد بواسط ونشأ بها ، سكن البصرة ، من أئمة رجال الحديث ، كان يلقب (بشيخ المحدثين) توفي بالبصرة سنة ١٦٠ هـ وعمره ثمان وسبعون سنة . أنظر : البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٣٢ والاعلام جـ ٣ ص ١٦٤ .

(٢) : رواه البخاري جـ٢ص ٣٢١ (كتاب الخلق - باب مالقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المشركين) - ورواه مسلم جـ٣ص١٤١٩ (كتاب الجهاد ، باب مالقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين) . ورواه الامام أحمد في المسند عن عبدالله بن مسعود جـ٥ص٢٢٧ شرح وفهرسة أحمد محمد شاكر . والسلا اللفافة التي يكون فيها الولد في بطن أمه ، وتكتب بالالف والياء قراءتان .

(٣) رواه البخاري جـ٢ص ٣٢١ . (٤) مسند الامام أحمد جـ٤ص ٢٦٩ .

والرسول صلى الله عليه وسلم صابر ثابت على الحق، والدعوة لذلك تسير من نصر الى نصر، ومن فوز الى فوز، وهم في المقابل ينتقلون من هزيمة الى هزيمة، ومن ذل الى ذل أشد ، ومع ذلك فهو يقابل تلك العداوة الظاهرة بالصبر والصفح ، والدعاء لهم بأن يهديهم الله ، ولم يكن ليقتص لنفسه قط، ولم يحمل لهم في نفسه كرها أو عداوة ، بل عفا عنهم وهو في قمة انتصاره ، عندما دخل مكة المكرمة فاتحا منتصرا ، وموقفه هذا يثير العجب ، لقد كان في زمن حرب مع المشركين ، وناله منهم من الأذى الشيء الكثير ، ولكنه صاحب القلب الكبير، والخلق الرفيع، يعفو عنهم بعد أن يقول لهم : " يامعشر قريش ، ماترون اني فاعل فيكم " ؟ فيقولون : خيرا أخ كريم ، وابن أخ كريم ، فيقول لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء(١).

ولقد كان لصبره وصفحه هذا أعظم الآثار في نجاح الدعوة، حيث رقق قلوبهم للاسلام ، ورغبهم فيه ، وطمأنهم الى سهولة أحكامه ، وليونة تربيته ولو كان صلى الله عليه وسلم شديدا عليهم ، زاجرا لهم ، ومعاقبا لهم ، لأعرضوا عن الاسلام ، ولما استجابوا له ، بتلك السهولة، ولم يكن للدعوة هذا الانتشار ، وهذا النجاح ، قال تعالى : " فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين " (سورة آل عمران — ١٥٩) .

ولما هاجر صلى الله عليه وسلم للمدينة، عظمت مسئولياته فيها ، وكان أمامه كثير من المسئوليات، كتنظيم المجتمع الجديد ، والتآلف بين فئاته المختلفة ، ومواجهة المشركين ، ووجد أمامه جبهة جديدة

---

(١) : سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٣٢ .

وهم اليهود ومكرهم ، والمنافقون ودسائسهم ، وقد واجه كل ما كان من المشركين واليهود والمنافقين من عداوة ومكر وخداع ونقض للعهود ، بصبر وجلد .

ولقد كان اليهود أشد خطرا على الدعوة في المدينة من المشركين في مكة ، بدليل ماحصل منهم من مواقف تنضح بالعداء للرسول صلى الله عليه وسلم وللمسلمين ، كما كان من بني قريظة ، وبني قينقاع وبني النضير من نقض العهود ، وايذاء المسلمين ، والكيد لهم بالشبهات والدسائس والغدر بالرسول صلى الله عليه وسلم ومحاولة قتله ، فوقفوا في ذلك مع المشركين في خندق واحد ، مصداقا لقوله تعالى : " لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ... " (سورة المائدة — ٨٢) .

كما كان عبدالله بن أبي زعيم المنافقين ، على رأس كل مصيبة ، والعقل المدبر لكل بلية تصيب المسلمين ، والقرآن الكريم ينزل يكشف أحوالهم ، ويهتك أستار نفاقهم وخداعهم (١) .

ومع ذلك نجده صلى الله عليه وسلم صابرا صافحا ، وعندما مات عبدالله ابن أبي ، جاء ليصلي عليه مراعاة لخاطر ابنه المسلم الصادق وعشيرته ، حتى نهاه القرآن الكريم عن ذلك ، في قوله تعالى : " ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ، ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون " (سورة التوبة — ٨٤) .

ولقد كان لتصرفاته تلك بمواجهة عداوة أولئك بالصفح ، والرفق والصبر أعظم الأسباب المباشرة لنجاح الدعوة ، خاصة عندما نعلم أنه استمر على

---

(١) : يراجع تفاصيل ذلك في سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٢٥٢ — والبداية والنهاية : جـ ٤ ص ٧٤ . والسيرة الحلبية جـ ٢ ص ٤٧٤ .

سلوكه هذا حتى بعد ما أن أظهره الله ونصره على كل أولئك الأعداء في كل ميدان ، ولم يكن سلوكا مؤقتا فرضته ظروف الدعوة في مكة المكرمة كما في يعتقد البعض .

ولن تغيب عن البال حادثة الأعرابي الذى قصد الرسول صلى الله عليه وسلم محاولا قتله ، ولما حفظ الله رسوله من مكره ، وراء من كريم خلقه ، وعفوه عنه ، دخل في الاسلام ، وشهد أنه رسول الله.(1)

وهكذا ندرك كيف كان لأخلاقه وشمائله ،وتخطيطه وحسن اعداده الفضل الأكبر في نجاح الدعوة ، حيث أقام من سجاياه ، ومن تصرفاته أدلة صادقة لا يرقى اليها الشك على صحة دعواه ، وصدق نبوته .

وكان أعداؤه كلما زين لهم الشيطان مطعنا فيه ، وجدوا في ماضيه وحاضره وطباعه وخصاله ما ينفي طعنهم ويرد كيدهم ، فكان أن انتصر عليهم ، وأظهر الله دعوته ، ونجحت الدعوة نجاحا باهرا، وانتصر الاسلام نصرا مؤزرا .

ب ــ البحث عن مأوى ودار للدعوة والدعاة :

مر بنا فيما سبق الحديث عما امتازت به الدعوة ، من كونها دعوة متدرجة ، وكيف رتب صلى الله عليه وسلم دعوته ، من الدعوة الفردية الى الدعوة العامة ، ومن دعوة عشيرته الأقربين ، الى دعوة الأبعدين ، ومن دعوة العرب الى دعوة غيرهم ، بحيث سلك كل طريق سليم ، يبلغ دعوة الله ــ عز وجل ــ على الوجه الأكمل ، بأن اتصل بالأفراد ، اتصالا شخصيا ، وعرض نفسه على القبائل في المواسم ، وفي أماكن تجمعاتهم ورحل من أجل تبليغ الدعوة ، وأرسل الرسل ، واستقبل الوفود ، ليأخذوا عنه ، والدارس لكل

(1) : انظر : صحيح البخارى جـ ٣ ص ٣٦ (كتاب الجهاد والسير ــ باب غزوة ذات الرقاع) .

تلك التصرفات منه ـ عليه السلام ـ يدرك مدى اهتمامه بالدعوة الاسلامية.
وحرصه على وجود المناخ المناسب، والجو الملائم لنجاح الدعوة، وبحثه عن المكان الذى يضمن لها الاستقرار والنجاح، والثبات في وجه الخصوم.

فكان من تصرفاته الرائدة التي تنبيك عما عداها في البحث عن منتجع للدعوة، وأشدها تعبا على نفسه، وأخطرها على حياته، سفره الى الطائف بعد أن رأى من قومه الاعراض عنه، وخاصة بعد موت عمه أبو طالب حيث نالوا منه مالم ينالوا منه في حياته، فقرر ـ عليه السلام ـ الخروج الى الطائف، فخرج الى بني ثقيف، يرجو نصرتهم لدين الله، بعد أن خذلته قريش، ولما لقيه من قومه من السب والتكذيب.

قال ابن اسحاق: " ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب.
فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل فخرج اليهم وحده"[1].

ولما وصل الطائف عمد الى سادة ثقيف وأشرافهم، فدعاهم الى الله، وكلمهم بما جاءهم له من طلب نصرته، والقيام معه على من خالفه من قومه، ولكنهم سخروا منه، ولما يأس من اسلامهم بعدما أعياه التعب في هدايتهم، طلب منهم كتمان خبره، كراهية ابلاغ قومه خبره، فيحرشهم ذلك عليه، ويزيد من شرهم، ولكن ثقيفا لم يفعلوا وأغروا به سفهاء هم وعبيدهم يسبونه، ويصيحون به، ويرمونه

---

(١) : سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٨ (وأرجح الروايات على أن مولاه زيد بن حارثة كان معه في هذه الرحلة. كما في زاد المعاد جـ ٢ ص ٤٦.
والسيرة الحلبية جـ ٢ ص ٥١ .. وهذا خلاف رواية ابن اسحاق الواردة في سيرة ابن هشام.

بالحجارة، حتى التم عليه الناس، وألجئوه الى حائط لبني ربيعة، فعمد الى ظل شجرة من عنب فجلس فيه، ولما سكن روعه مما لقي من ثقيف، وخلى الى نفسه، قال دعاؤه المأثور المؤثر : " اللهم أشكو اليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس ياأرحم الراحمين أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، الى من تكلني ؟ الى بعيد يتهجمني أم الى عدو ملكته أمري ؟ ان لم يكن بك على غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي .. الى آخر دعائه صلى الله عليه وسلم.(١)

وكان في الحائط عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وقد رأيا مالقي من سفهاء أهل الطائف، فتحركت له رحمهما، فدعوا غلاما لهما نصرانيا يقال له : عدّاس فقالا خذ قطفا من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ثم اذهب به الى هذا الرجل فقل له يأكل منه، ففعل عداس، فلما وضع صلى الله عليه وسلم يده الشريفة في الأكل، قال : بسم الله ثم أكل، فنظر عداس في وجهه، وقال : والله ان هذا الكلام مايقوله أهل هذا البلد ودار بينهما حوار عرف به عدّاس من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وكان لصبر الرسول صلى الله عليه وسلم وتصرفه أعظم الأثر في اسلام عدّاس حيث دخل الاسلام قلبه، وأكبّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه، مما بهر هذين المشركين، فأخذا يحذرانه من اتباع الرسول، ولكن تأثير شخص الرسول صلى الله عليه وسلم، وصبره كان أقوى في نفس عدّاس من تحذير هذين الشيطانين، وكان ردّ عدّاس قوله : ياسيدي مافي الأرض شيئ خير من هذا، لقد أعلمني بأمر لايعلمه الاّ نبي، وكان داعي الايمان في نفسه أقوى، فأسلم عدّاس وحسن اسلامه، وعد من الصحابة، مات قبل الخروج الى بدر.(٢)

(١) : سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٩ (وتقدم التعليق على درجة هذا الاثر ص ١٧٤ من هذه الرسالة).

(٢) : السيرة الحلبية ج ٢ ص ٥٣ .. وما بعدها . بتصرف .
والحائط : هو البستان، والقطف : العنقود . وأصله اسم لكل مايقطف.

ورجع رسول الله — عليه السلام — الى مكة ، وقومه أشد ماكانوا من ايذائه ، وفراق دينه ، وأخذ صلى الله عليه وسلم يواصل دعوته ، متحملا المشاق ، والابتلاء والامتحان من قومه صامدا على مايدعو اليه صمود الجبال الراسيات مديرا نظره الى غير قومه عسى أن يجد عندهم العون والمساندة ، فأخذ يعرض نفسه على قبائل العرب في المواسم يدعوهم الى الله ، ويخبرهم أنه نبي مرسل ، ويسألهم تصديقه ، ومنعه أذى قومه (١) .

ولقد كان لتحركه هذا آثارا لابأس بها في نجاح الدعوة ، حيث عرف كثير من العرب القادمين للموسم حقيقة دعوته ، وصدقه فيما يدعوا اليه ، خاصة لما كان له من خلال وخصائص شخصية -كما سبق — قد بلغت الآفاق ، وهيّأت أذهان العرب لقبول الدعوة ، ومما يؤكد ذلك أن قريشا قد أحست بخطورته ، والأثر القوى في تصرفاته من نجاح للدعوة ، فكانوا يحاولون منعه من الاتصال بالقبائل في الموسم ، ويسعون الى الحيلولة بينه وبين مراده ، من دعوة غيرهم الى هذا الفضل العظيم الذى جاءهم به فلم يقبلوه ، وهذا والله قمة الظلم والجور والعدوان !!

قال ابن اسحاق : " حدثني حسين بن عبدالله بن عبيد الله بن عباس قال : سمعت ربيعة بن عباد يحدثه أبي ، فقال : اني لغلام شاب مع أبي بمنى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقف على منازل القبائل من العرب فيقول :

يابني فلان ، اني رسول الله اليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلصوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي ، وتمنعوني حتى أبين عن الله مابعثني به " . قال : وخلفه رجل أحول له غديرتان عليه حلة عدنية ، فاذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله ، وما دعى اليه ، قال ذلك الرجال : يابني

(١) : انظر : دلائل النبوة للاصفهاني . الطبعة الثانية ١٣٨٩ — ١٩٦٩ م . ص (١٠٠) .

فلان ان هذا انما يدعوكم الى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيش الى ماجاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه، قال: فقلت لأبي: يا أبت من هذا الذى يتبعه ويرد عليه مايقول ؟ قال عمه عبدالعزى بن عبدالمطلب أبو لهب.(١)

كما أنه في سبيل عدوته ونشرها، والبحث لها عن مكان مناسب، توجه الى القبائل في منازلهم، ولم يكتف بلقائهم في المواسم، يدعوهم الى الله عز وجل، ويطلب منهم النصرة والمساعدة، كبني كندة وبني كلب، وبني حنيفة، وبني عامر بن صعصعة.(٢)

وبالرغم من أن تلك القبائل أبوا ولم يقبلوا ما عرضه عليهم، وردوه ردا عنيفا، فقد كان تصرفه هذا له آثار قوية في نجاح الدعوة، حيث خرج بها عن النطاق الاقليمي لقبيلة قريش، التي ازدادت له ايذاء، ومحاولة القضاء على دعوته وتنفير العرب، ولكنه صبر وواصل دعوته، بصبر وجلد، ونتيجة لاتصاله هذا الذى كان من عوامل نجاح الدعوة خاصة قريش التي قامت باجراء جنوني ينم عن الخبث والعداء الشديد، كما يدل من جانب آخر على استمرار الدعوة في سيرها، وبلوغها شأنا لا بأس به من النجاح، أخاف المشركين، وزعزع بنيان وثنيتهم كان نتيجة أن قرر المشركون حصار المسلمين في الشعب.

وهذا التصرف بالرغم مما كان فيه من ضرر للمسلمين، فقد كان من عوامل لفت النظر للدعوة، وأهميتها، وسببا لبعض العرب بالعطف على المسلمين، واهتمامهم بهذه الدعوة، ومن ثم الايمان بها.

---

(١) : سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٣٢ (رواه أحمد والطبراني بهذا اللفظ).
(٢) : انظر : دلائل النبوة — ص ١٠٠.

ومازال صلى الله عليه وسلم يواصل دعوته بأسلوب الاتصال الناجح المتعدد الأساليب، مما كان سببا لتهيئة الجو والمناخ المناسبين للدعوة فعندما عرض نفسه على قوم من الخزرج، ودعاهم الى الله — عز وجل — آمنوا به، وصدّقوه، حيث كانت دعوته قد بلغت آفاقا لابأس بها.

فلم يكن الخزرج بحاجة الى شديد اقناع، بسبب ماسبق ذلك من اتصال لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقبائل العرب، وبيان حقيقة دعوته، فكان ذلك عاملا مهما من عوامل نجاح الدعوة.(1)

وبعد ايمان أولئك النفر من الخزرج، انفتحت للدعوة آفاق جديدة وتحولت الدعوة في سيرها تحولا هاما، كان له أعظم الآثار أيضا في نجاح الدعوة، حيث كانت الهجرة النبوية للمدينة، التي كانت فتحا عظيما، ونصرا مبينا كما سيأتي.

جـ — الهجرة للمدينة بعد تهيئتها وأثر ذلك في الدعوة:

لم تكن هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة، أمرا عارضا، أو من باب المصادفة، حيث سبقها عدة محاولات للبحث عن قاعدة أخرى غير مكة، تحمي هذه العقيدة الناشئة، وتكفل لها حرية النجاح والانتشار، بعد ما أصاب المسلمين في مكة الاضطهاد والتعذيب ووقوف بقية العرب منها موقف المتربص، بانتظار ما تكون عليه النتائج بين الرسول وعشيرته، خاصة بعد وفاة عمه أبي طالب، وزوجه خديجة، وعودته من الطائف بعد ايذاء ثقيف له، واغراء سفهائهم به، وقبلها هاجر معظم المسلمين الى الحبشة فرارا بدينهم، ومخافة

(1) : انظر : سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٦٩.

الفتنة ، وكانت الهجرة للحبشة بتوجيه منه صلى الله عليه وسلم ، أول هجرة في الاسلام ، عندماقال لأصحابه : " لو خرجتم الى أرض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه"(1).

فخرجوا اليها ورسول الله باق بمكة ينتظر أمر الله وفرجه ، وبعد كانت الهجرة للمدينة بعد تهيئتها ، مما ضمن للدعوة أفضل النتائج ،على مانفصله فيما يلي :

١ — التمهيد للهجرة :

لقد تمت هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة ، بعد تمهيد ثابت ، واعداد محكم ، وتمت تحت تأثير ظروف حتمتها وبخطة محكمة ضمنت لها النجاح ، بأن تمت حسبما خطط لها ، صلى الله عليه وسلم ، حيث كانت اجراء ضروريا لسير الدعوة في الخط المرسوم ، بعد ماكان من قومه ، ومن حولهم من الأعراب، اضافة الى ماكان له — عليه السلام — بيثرب من علاقة غير علاقة التجارة فله بها علاقة قربى ، فأخواله بنو النجار في المدينة، كما كان في مجاورة الأوس والخزرج ،وهم عبدة أوثان لليهود ، وما يصيب أهل يثرب من الأذى من اليهود ، وعيبهم لأهل الأوثان، وتعاليهم عليهم لكونهم (أهل كتاب) وانذارهم لهم بنبي يبعث يقضي عليهم ، ويشايع اليهود ، كل تلك الأسباب مهدت لأهل يثرب لقبول الدعوة ، وهيأت أذهانهم لها ، كما هيأت جو

---

(1) : انظر : سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٤٣ .

المدينة لتقبل الهجرة العظيمة ، فكان أن فتح الله تعالى على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلى دعوته وأصحابه من حيث لم يحتسبوا. فكانت بيعة العقبة الأولى ، ثم بيعة العقبة الثانية ، وما تبعها من اجراءات قام بها صلى الله عليه وسلم ،في غاية الاحكام والاتقان ، والسرية التامة عند الضرورة ، ولقد صاحب هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم للمدينة ، حكم وأحكام ، وخير عميم للدعوة ، بعد ماقام به صلى الله عليه وسلم من حكمة ، وحسن اعداد وتخطيط، قبل الهجرة وفي أثنائها ، وما حصل على يديه من المعجزات، يعتبر أمرا عظيما ساعد في سير الدعوة ، وكان عاملا على نجاحها فيما بعد .

٢ — الهجرة للمدينة :

عندما رأت قريش أمر الرسول يقوى ، ودعوته تنتشر بالرغم مما بذلوه من محاولة القضاء عليها في مهدها ، اجتمعوا للنظر في أمر محمد ، وتداولوا رأيهم فاتفقوا على قتل محمد بأن يأخذوا من كل قبيلة شابا يشارك في قتله ، فيضيع دمه بين القبائل ،فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فيرضون بالدية، وكان هذا رأى فرعون هذه الأمة أبو جهل ، بمآزرة الشيطان.[(١)]

وكان صلى الله عليه وسلم قد خطط للهجرة .

روى الامام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنه :في قوله تعالى :

---

(١) : انظر : زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٢ .

" وان يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك ".

قال : تشاورت قريش ليلة مكة ، فقال بعضهم : اذا أصبح فأثبتوه بالوثاق يريدوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال بعضهم : بل اقتلوه ، وقال بعضهم : بل أخرجوه ، فأطلع الله عز وجل نبيه على ذلك ، فبات علي على فراش النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة ، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون عليا ، يحسبونه النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أصبحوا ثاروا عليه ، فلما رأوا عليا رد الله مكرهم ، فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لاأدرى . فأقتفوا أثره ، فلما بلغوا الجبل خلط عليهم ، فصعدوا الجبل ، فمروا بالغار ، فرأوا على بابه نسيج العنكبوت ، فقالوا : لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاثا(١) .

وتمت رحلة الهجرة حسب الخطة التي رسمها صلى الله عليه وسلم ، ووقع في أثنائها للرسول وصاحبه من المعجزات والعجائب الشيء الكثير ، مما دلل على صدق نبوته ، وحفظ الله له ، ولقد كان لذلك أعظم الأثر في لفت النظر للدعوة ، ومن ثم اقبال الناس عليها ونجاحها(٢) .

ووصل الركب المبارك الى " يثرب " مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فاذا هي قد لبست أحلى حللها لاستقبال الوافد العظيم ، وخرج أهلها من المسلمين وغيرهم يستقبلونه استقبالا يليق بمكانته في

(١) : مسند الامام أحمد جـ ٥ ص ٨٧ .
(٢) : تفاصيل الهجرة النبوية في سيرة ابن هشام . جـ ٢ ص ٩٣ .. وما بعدها .

نفوس المسلمين ، وينم عن الخبث والمكر المبيتين في نفوس اليهود اذ كان المسلمون يستقبلونه بالبشر والترحاب ، واليهود طمعا في استمالته الى جانبهم ، فأحاطوا به كل حسبما يجول في نفسه ازاء القادم العظيم(١) .

٣ — أثر الهجرة في الدعوة :

نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فكان نزوله في قلوب أبنائها ، قبل أن يحل أرضها ، وكان همه الأول هذه الدعوة التي عهد الله اليه بتبليغها ، فقام ببناء المسجد بعد أن اختار له المكان المناسب ، ليظهر للمسلمين أهمية المسجد ، ومكانته في نفوسهم ، ودوره في نشر الدعوة ، فجعل منه مكان العبادة ، ومدرسة التعليم ، ومعسكر الجند ، ومقر الادارة ، مما جعل المسلمين يفتخرون بحق بأن الاسلام دين دولة.

وانطلق المسلمون ينشرون دعوتهم ، كما اهتم صلى الله عليه وسلم بأمر الأمة المسلمة ، بتحقيق مصالحهم ، وقضاء حاجاتهم ، والتأليف بين قلوبهم بعد الفرقة ، وأمنهم بعد الخوف ، فتحققت منه الله تعالى ، ورحمته لعباده .

قال تعالى : " وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين . وألف بين قلوبهم لو أنفقت مافي الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم " (سورة الأنفال — ١٦٢— ١٦٣) .

---

(١) : حياة محمد — ص ٢٣٣ — بتصرف يسير.

وهكذا تحقق للمسلمين بالهجرة ماكان يبحث عنه صلى الله عليه وسلم من المأوى والدار والدعاة، بعد جهد مضن ، وصبر وكفاح ، لتضم المسلمين ، وليمارسون فيها عبادتهم في أمان وحرية ، فكان في ذلك أعظم الآثار في نجاح الدعوة ، ورفع راية الجهاد لنشر هذه الدعوة ، حتى تبلغ الآفاق ، بعد أن هيأ الله لها بذلك أسباب النجاح حيث كانت الهجرة النبوية ارهاص للفتح المبين الذى تبعها ومقدمة لنشر الاسلام في ربوع الدنيا بعد أن تمت بوحي من الله تعالى ،وبارادته جلّ وعلا الذى شاء أن يجعل هذه الهجرة من أسباب نجاح الدعوة،وانتشار الاسلام.

والهجرة للمدينة وان كانت فتحا عظيما للمسلمين ، ونصرا مؤزرا للدعوة فانها لم تكن مجالا للراحة ، أو توقف الجهاد والكفاح ، وتحمل المشاق من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، بل كانت انطلاقة جديدة للدعوة ، في خط جديد ، وبأسلوب أقوى ، وأعظم مسئولية ، وأكثر أمانا ، وأسرع انتصارا ، وكانت أيضا سببا لزيادة المسئوليات ، وكثرتها نوعا وعددا ، وقد قابل صلى الله عليه وسلم ذلك بشخصية المؤمن الواثق بربه ، ونصره له ولدعوته ، ثم بعون المسلمين وتكاتفهم وتآلفهم .

ولم يزل الاسلام ينتشر ، وأمر المسلمين يقوى في المدينة شيئا فشيئا ، ولم تزل الدعوة تواصلها انتصاراتها ونجاحها حتى فشى الاسلام في المدينة ولم يبق بيت لم يدخله الاسلام، وأخذ المسلمون في مكة يهاجرون تباعا ، تاركين وراءهم كل شيء ، ناجين بعقيدتهم وحدها ، حيث لقوا من اخوانهم الذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم من الايثار والاخاء ما لم تعرف له الانسانية نظيرا قط.

بعد أن هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصاحبه الصديق الى القاعدة الحرة، القوية الآمنة ،التي بحث عنها من قبل طويلا ،

وقامت الدولة الاسلامية في هذه القاعدة منذ اليوم الأول لهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم[1]

ج — الاستفادة من الامكانيات المتاحة :

سبق الحديث عن بعض نواحي العظمة في شخصه صلى الله عليه وسلم، وذكر شئ من تصرفاته التي كانت من أسباب نجاح الدعوة الاسلامية.

واكمالا للفائدة سأتحدث في هذا المقام عن ناحية أخرى، وجانب مهم للدلالة على حكمته، وحسن تخطيطه للدعوة، وهو :

استفادته صلى الله عليه وسلم من امكانيات أتباعه في كل النواحي بما فيها العقلية والجسمية، بعد استفادته من كل الامكانيات المتوفرة، والظروف المواتية له ، وبعد الحديث عن صبره وصفحه ، صلى الله عليه وسلم وكيف كان حريصا على البحث عن مكان ملائم للدعوة ، يساعد على انجاحها.

ولقد كان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على الاستفادة من جميع الامكانيات المتوفرة ، التي تساعد في الوصول للهدف المطلوب لنجاح الدعوة ، ونشر الدين الاسلامي الحنيف.

يظهر ذلك جليا في معرفته بأحوال رجاله ، والاستفادة من كل طاقة لديهم ، واستخلاص رأيهم الصائب ، واتباع مشورتهم ، ووضع كل منهم في مكانه المناسب ، حيث كان صلى الله عليه وسلم في كل هذا الأسوة الحسنة ، والمثل المحتذى .

ولقد كان هذا من أقوى الأسباب والعوامل لنجاح الدعوة ، وسيرها في الخط المرسوم ، نظرا لما في تصرفاته تلك من استغلال للطاقات وتجميع

---

(١) : نص في ظلال القرآن جـ ١ ص ٣٠ .

لها ، وأخذ بالرأى الأمثل ، وتحرى الأصوب ، وتحميل كل فرد لمسئوليته .

مما يستوجب احساس كل منهم بمكانته ، ودوره في سلوك أمته ، فترتفع ملكات الفرد ، ويكون المرء على صلة بما يدور في مجتمعه ، فتتظافر الجهود ، وتتآلف القلوب ، وتعلوا روح الجماعة ، وتنتصر الأمة على أعدائها ، وتنجح الدعوة ، وينتشر الاسلام .

ولم يكن ذلك الاهتمام منه صلى الله عليه وسلم بامكانيات أتباعه في النواحي العسكرية ، وفي ميدان القتال فحسب — كما يتبادر الى ذهن البعض — بل ان الأمر أشمل وأعم من ذلك ، فسيرته صلى الله عليه وسلم كلها شواهد للدلالة على ذلك الادراك منه لهذا الأمر ، مما لم يعرف له البشر شيلا ، والأدلة على هذا القول أكثر من أن تحصى ، وأصعب من أن تستقصى ، ولو استطردنا في هذا الموضع لطال الكلام وضاق المقام ، ولكن نكتفي بايراد بعض النماذج على تصرفاته صلى الله عليه وسلم في هذا الجانب.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهتم بالشورى في كل أموره امتثالا لقول الحق تعالى : " وشاورهم في الأمر .... " (سورة آل عمران — ١٥٩) .

فمن يقرأ سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى حبه لمشاروة أتباعه ، واهتمامه بأمر الشورى ماثلا للعيان .

ففي غزوة بدر استشار الناس، فأشار المهاجرون ، فلم يكتف، ثم استشار الناس ، فأشار الأوس والخزرج (وهم الأنصار) ثم اتخذ قراره الأخير.(١)

ولما عسكر المسلمون في أدنى ماء من بدر جاء الحباب بن المنذر بن الجموح فقال : يارسول الله ، أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله

(١) : سيرة ابن هشام — جـ ٢ ص ٢٥٣ .

ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بل هو الرأى والحرب والمكيدة " قال الحباب : يارسول الله : فان هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نعور[1] ما وراء من القلب، ثم نبني عليه حوضا فنملوءه ماء، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد أشرت بالرأى[2] "

ولعله لن يغيب عن البال فعل نعيم بن مسعود يوم الخندق ، عندما ندبه صلى الله عليه وسلم لخذل الأحزاب، بعد أن تجمعت القبائل المعادية لقتال المسلمين ، وتكالب معهم بنو قريظة على حرب الاسلام، وأصبح المسلمون في ضيق وكرب ، وزاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر فقال صلى الله عليه وسلم لنعيم : " انما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا ان استطعت فان الحرب خدعة[3] "

فكان من فعل نعيم ماكان ، مما دل على فراسته صلى الله عليه وسلم ، وحنكته وبعد نظره ، وادراكه لعواقب الأمور .

وكذلك ماكان منه صلى الله عليه وسلم من اختيار أبا بكر وعمر رضي الله عنهما لصحبته حتى لقبا (بالوزيرين) ولقد كان يمضي معهما الوقت الطويل للنظر في قضايا المسلمين ، ولما مرض صلى الله عليه وسلم أمر أبا بكر أن يصلي بالناس ، ولم يشك أحد من الصحابة في سلامة هذا الاختيار

(١) : نعور : معناها : نفسد . وذلك بأن يقذفوا في القلب وهي : البئر حجارة وترابا تفسدها على العدو ، وفي رواية بالغين ، معناها نجعله يغور في الأرض.

(٢) : سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٦٠ .

(٣) : السير الجلبية جـ ٢ ص ٦٤٩ .

وأنه كان اختيارا موفقـــا ، فنجد المسلمين يختارون أبا بكـر خليفة للمسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد وفاته يختـــارون عمـر خليفـــة لخليفـــة رسول الله صلى الله عليه وسلم [1].

وأما معرفة الرجال ، ووضع كل في محله المناسب له ، وتكليفه المهمـــة التي يصلح لها ، فكان كذلك لا يجارى رســول الله صلى الله عليه وسلـــم فيــه أحــد .

فقــد ثبت اتخاذه عددا من الكتاب ، كما اتخذ ثابت بن قيس خطيبا ، وحســان بن ثابت شاعـــرا .

بعد أن عـرف صلى الله عليه وسلم بحكمته البالغة ، ومعرفته للأمـــور ، ما للكلمـــة من دور مؤثر في نشر الحق ، ودحر الباطل ، في ذلك الزمـــان الذى بلغ فيـــه العـــرب أعلى مستويات الفصاحة ، وقمة البلاغة ، وأصبحـــت الكلـــة-سواء شعرا أو نثـــرا-هي وسيلتهـــم في التعبير ، ومن أمضى الأسلحة للـــذود على المبـــدأ ، حتى أصبحت القبيلة تتخـــذ خطيبا أو شاعرا أو أكثر لهذا الغرض ، حتى أصبح ثابت بن قيس بن شماس يلقب " بخطيب رســـــول الله صلى الله عليه وسلم [2].

كما كان يحث حسان بن ثابت رضي الله عنه (الملقب بشاعر رسول اللـــه) على هجـــاء المشركين ، ويقول له : " أهـــج المشركين فان جبريل معـــك " [3]
ولقد استفاد صلى الله عليه وسلم من هؤلاء وأمثالهم في نشـــر الدعـــــوة ، عندما بذلوا أنفسهم للذود عن رسول الله ودعوته ، وجاهدوا في نشـــــر الاسلام بمقارعة شعراء المشركين ، وخطبائهـــم الذين كانوا يكيدون للاسلام والمسلمين .

---

(١) : انظر : كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم ـ سعيد حوى جـ١ص ٢١٥ .
(٢) : البخـــارى جـ ٣ ص ٧٩ .
(٣) : صحيح البخارى جـ ٣ ص ٣٥ .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم اذا جاءته وفود العرب لتفاخره، أو تناظره بألسنة الفصحاء والبلغاء من خطبائها ، ندب لهم ثابت بن قيس لمنازلة الخطباء ، وحسان بن ثابت لمفاخرة الشعراء.

فعندما أتى وفد بني تميم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له :

" نحن ناس من بني تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونخاطبك "

وطلبوا منه صلى الله عليه وسلم أن يأذن لخطيبهم وشاعرهم ، فأذن لهم فقام خطيبهم فقال ما لديه ، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس أن يرد عليه ، فرد وأحسن ، ثم قام شاعر بني تميم فقال ما أراد ، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت أن يرد عليه ، فغلب خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبهم ، وشاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم شاعرهم.(1)

وفعل الرسول صلى الله عليه وسلم هذا يدل على أن يجب على الدعاة استغلال جميع الامكانيات ، والاستفادة من كل الطاقات لنشر الدعوة، وأن لكل زمان أسلوبه المناسب للدعوة ، مما يكفل لدعاة الاسلام الفوز والنجاح في دعوتهم ، والوصول الى هدفهم المطلوب.

وبعد هذا البيان المختصر عن أثر حسن اعداده ، وتخطيطه صلى الله عليه وسلم للدعوة ، ودور ذلك في نجاحها ، أود أن أختم هذا البحث بالاشارة الى أمر هام ، يؤكد ما نحن بصدده ، ودليل معقول لا نحتاج معه الى كثير بيان عن شخصيته — صلى الله عليه وسلم — وأثر ذلك

(1) : انظر : السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٢١٦ .

وتخطيطه في نجاح الدعوة، وأعني بذلك : استطاعته تحويل خامات الجاهلية المعطلة الى ايمان ، بأن بعث فيها روحها بعد مواتها ، وأصلحها بعد فسادها ، بفضل ما أعطاه مولاه، من الايمان الواسع واليقين العميق ، والتعليم النبوى المتقن ، مع حسن التخطيط ، والشخصية الفذة ، والمقدرة الفائقة ، والتنفيذ المحكم ، فكان أن حقق مراده وفق مراد الله تعالى ، بنشر الدعوة الاسلامية ، واعادة البشرية الى صوابها ، بفضل الله ومنّه ، بعد أن هيأ تعالى لهذه الدعوة أسباب نجاحها وعوامل انتشارها (١) .

والمسلمون اليوم مطالبون باقتفاء آثار نبيهم ، وسلفهم الصالح ، لينشروا دعوتهم على نفس ذلك المنهاج الذى اتبعه صلى الله عليه وسلم .

---

(١) : انظر : كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ــ فصل كيف حول الرسول خامات الجاهلية الى عجائب انسانية ــ ص ١١٨ .

العامل الثالث : نوعية الصحابة الذين رباهم — صلى الله عليه وسلم :

تحدثنا في المبحث السابق عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشخصيته العظيمة ، وعن تخطيطه واعداده للدعوة ، وكيف قام بأعبائها بعون الله .. وهو صلى الله عليه وسلم ، وان كان قام بالدعوة على الوجه المطلوب وفق مراد الله تعالى، فقد كان لصحابته وأعوانه الذين رباهم ، وغذى أرواحهم بالقرآن، وأنار نفوسهم بالايمان، أعظم الأثر في دعوته صلى الله عليه وسلم ، حيث كانوا من أهم عوامل نجاحها لتطبيقهم الاسلام، وفق مراد الله قولا وعملا .

فكان لابد لأي باحث في دعوة الاسلام، وعوامل نجاحها خاصة في مطلعها في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من ذكر الرعيل الأول ، والتعرض لمآثر ومفاخر ذلك الجيل المثالي، من الصحابة الكرام ، والاشادة بدورهم في نشر الدعوة، ومآزرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومشاطرته أعباء الدعوة براحة بال ، ورحابة صدر ، وقوة ايمان ، حتى نالهم من شديد الأذى ما نال رسولهم، ان لم يكن أشد في حق الضعفاء والمساكين ، وكان لايمان تلك الطائفة من أفاضل البشر ، وتصديقهم ، واتباع النبي الأمي أعظم التأثير في مجرى الحياة ، مما بقى أثره ماثلا للعيان حتى الآن ، والى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وسأورد في الفقرات التالية نزرا يسيرا من بطولاتهم وتضحياتهم ، وأثر الايمان فيهم ، وما أورده لايمثل شيئا بالنسبة الى حالهم، وواقع أمرهم، وما هو الا كمثل القطرة في البحر ، ولكن عذرى في ذلك عجزى عن الاحاطة بعظمتهم رضوان الله عليهم ، وحتى لا نخرج عن اطار بحثنا هذا ، و منجمل الحديث عنهم في الفقرات التالية :

أ ـ التحول العجيب :

لم يكن تحـول الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ الى الاسلام، وهجر ماكان عليه آباؤهم وأجدادهـم أمرا ميسورا، يمكن تحقيقه بسهولة ويسر لمن عرف ما كان عليه العرب من تغشي الجهل والضلالات، وما أثر عنهم من الأعتداد بالآبـاء، والتمسك بما هو مـوروث، وصعوبة تحولهم عنه، اضافة الـى ماكان يصيب من اهتـدى منهم الى الاسلام من الايذاء والشدة مـن المشركين، وان كانوا أقـرب الناس اليهم، فكان نقلهم من ذلك الواقـع شيئا عجيبـا، يصل الى حـد المعجزة، الا أن كل هذا لم يكن ليقف فـي وجـه الدعوة، وقام صلى الله عليه وسلم بذلك الاعتدال الغريب، وأحـدث التحول العجيب بسبب الأسلوب الذى سلكه صلى الله عليه وسلم، في الدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والصراحة والوضوح، وبيان الحق دون ممـالاة، ولا مداهنة، ولا ممـاراة.

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوى :

"لقد كان الانقلاب الذى حدث في نفوس المسلمين، وبواسطتهم في المجتمع الانساني أغرب مافي تاريخ البشر، وقد كان هذا الانقلاب غريبا فـي كـل شيء، كان غريبا في سرعته، وكان غريبا في سعته وشموله، وكـان غريبـا في وضوحه وقربه الى الفهم. فلم يكن غامضا كـكثير من الحوادث الخارقـة للعادة، ولم يكـن لغزا من الألغاز(1)".

ولقد كانت رحلة شاقة، محفوفة بالمخاطر، وبقدر ماكان يصيبهم مـن قومهم من الايذاء بسبب اتباعهم لمحمد، فقد كان ايذاء قومهم لهـم سببا لقوة ايمانهم، وتمسكهم بالمبدأ الذى اتبعوه، والصراط الذى ساروا فيه، عندما وضعوا أيديهم في يد من صدّقـوه وآمنوا به، واتبعوا النـور

(1) : ماذا خسر العالم ص ٩٩.

الذى جاء به " وهو الحق من ربهم " فأسلموا أنفسهم له ، وأرواحهم اليه، وهم من حياتهم على خطر ، ومن البلاء والمحنة على يقين، ولكنهم فهموا بعد ان تغلغل في نفوسهم ، ومازج أفئدتهم ، قول الحق تعالى :" ألم• أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين "(سورة العنكبوت ــ ١ : ٣) فأدركته قلوبهم ، ووعته أفئدتهم (١) .

وكأنهم بعد اسلامهم قد احتفظوا بالخط النفسي الذى يشكل حياتهم وتصرفاتهم ، وهو الاستمساك والثبات على ما يعتنقونه .

فهم قاوموا الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الخط، وثبتوا على معاييرهم الجاهلية ثباتا مزعجا ، حتى اقتلعهم منه القرآن باعجازه الباهر، والنبي صلى الله عليه وسلم بحكمته الفائقة .

فلما دخلوا الاسلام عمل هذا الخط عمله في الحق بأكثر مما عمله في الباطل، فثبتوا على الاسلام ثبات الجبال الراسيات ، فقارعوا به الأقربين والأبعدين، وجميع من خالف فكرهم ومعتقدهم .

ولعل الى هذا (٢) يشير الحديث الشريف " تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا ، وتجدون خير الناس في هذا الشأن أشدهم له كراهية (٣) " فحصل لهم بذلك الموقف النصر والفوز في الدنيا والآخرة ، ولم يكتب لأعدائهم الا الهزيمة والخسران المبين مصداقا لقوله تعالى :

---

(١) : انظر : ماذا خسر العالم ص ٩٦ بتصرف .

(٢) : انظر : معنى الحديث عند ابن تيمية في منهاج السنة ــ منشورات مكتبة الرياض الحديثة ــ جـ ٢ ص ٣٣٩ .

(٣) : رواه البخارى جـ ٢ ص ٢٦٤ . (كتاب: بدء الخلق باب : قوله تعالى :" ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) .

" انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد "
(سورة فاطر — ٥١) .

فهذا عمر بن الخطاب ، وعمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد ، وغيرهم كثر كانوا أشد الناس عداوة للدعوة ، وعندما هداهم الله للاسلام انقلبت قسوتهم على الاسلام جهادا في سبيل الاسلام ، والدعوة اليه ، مما عاد على الدعوة بأعظم النتائج .

ب — التحمل الفريد :

الايمان ليس كلمة تقال باللسان ، انما هو حقيقة ذات تكاليف ومعاني ، وأمانة ذات أعباء ومسئوليات ، وجهاد يحتاج الى صبر وجلد ، فلا يكفي أن يقول الناس : آمنا بل لابد أن يتعرضوا نتيجة لذلك للفتنة ، فيثبتوا على الحق ، ليخرجوا بذلك صافية عناصرهم ، خالصة قلوبهم ، ولقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم هذه الحقيقة ، ووعتها قلوبهم ، ومارسوها درسا عمليا في شدة التحمل ، وقوة الصبر ، ومواجهة الابتلاء ، وكيف لا يدركون هذه الحقيقة ، وهم يعيشون فترة عجيبة ؟ فترة اتصال السماء بالأرض اتصالا مباشرا ظاهرا متبلورا ، في الحوادث ، والقرآن الذى ينزل به الروح الأمين على الرسول الأمين ، الذى يعيش بينهم يربيهم بخلقه الفاضل ، ويأدبهم بالأدب النبوى المتخلق بأخلاق القرآن ، ويقوى فيهم العزيمة بجهاده المتواصل ، ويرشدهم أن الايمان أمانة الله في أرضه لا يتحملها الا من وهبهم المولى — عز وجل — القدرة على حملها من أمثال ذلك الجيل الفريد ، الذين رباهم صلى الله عليه وسلم ، حتى أصابهم في دينهم من الابتلاء والامتحان في العقيدة ماتعجز عن حمله الجبال[1] .

---

(١) : انظر : كتاب في ظلال القرآن جـ ٥ ص ٢٧٢٠ .

وقد سطر لنا المؤرخون وكتّاب السير من الصور العجيبة ، والحوادث الفريدة من أولئك مايضيق المجال لذكره ، وما لا يصدقه الا المؤمن ، الذى ذاق حلاوة الايمان .

فقد تحملوا الأذى البدني المروع الذى صب عليهم من" أكابر المجرمين"(١) كما سماهم القرآن الكريم ، تحملوا خسارة التجارات والأموال ، وصبروا على مشقة الجوع والعطش، حين حوصروا في الشعب ، وصبروا على الغربة ، حين غادروا الديار ، وهجروا الأوطان ، وأرخصوا الأهل والمال ، فتركوها وراءهم ظهريا ، ورحلوا الى بلاد بعيدة ، وأقوام غرباء عنهم ، في اللغة والبلاد والعادات ، وهذه تضحية جسيمة بالغة الجسامة ، اذا ماقيست بحياة العربي الذى كان يحب وطنه وقومه يعيش حرا ، ويلوذ بقبيلته وأهله ، ويصعب عليه أن يفارقهم الا ريثما يعود لهم بعد رحلة قصيرة .

وهكذا سهلت عليهم الصعاب في سبيل عقيدتهم ، وثابروا على نصرة دينهم ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم يشعل جذوة الايمان في نفوسهم ، ويقوى عزائمهم ، ويشد عضدهم .

روى البخارى في الصحيح ، قال : " حدثنا سفيان حدثنا بيان واسماعيل قالا : " سمعنا قيسا يقول : سمعت خبابا يقول : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برده في ظل الكعبة ولقد لقينا من المشركين شدة فقلت : ألا تدعو الله فقعد وهو محمر الوجه فقال : لقد كان من قبلكم ليمشط بمنشار الحديد مادون عظامه من لحم أو عصب مايصرفه ذلك عن دينه ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين مايصرفه ذلك عن

(١) : في الآية (١٢٣ — سورة الأنعام) قال تعالى : " وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها .. " الآية .



دينه".[1] الحديث.

ولقد عقد ابن هشام فصلا بالسيرة عنوانه " ذكر عدوان المشركين على المستضعفين ممن أسلم بالأذى والفتنة " ذكر فيه ماأصاب آحاد المسلمين من الابتلاء والامتحان بسبب ايمانهم بعد أن أصيب رسولهم بالأذى ـ كما سبق.

قال ابن اسحاق : " انهم عدو على من أسلم واتبع الرسول عليه الصلاة والسلام من أصحابه ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ، ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة اذا اشتد الحر، من استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم ، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذى يصيبه ، ومنهم من يصلب[2] لهم ويعصمه الله منهم .

وكان بلال مولى أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ لبني جمح مولد من مولد يهم ، وكان صادق الاسلام ، طاهر القلب ، وكان أمية بن خلف يخرجه اذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول وهو في ذلك البلاء : أحد أحد[3].

وما زال على هذه الحال من الشدة والبلاء مع غيره من المستضعفين العبيد حتى أعتقهم أبو بكر رضي الله عنه[4] .

---

(١) : رواه البخارى ج ٢ ص ٣٢١ . كتاب بدء الخلق ـ باب : مالقى النبي وأصحابه من المشركين بمكة.

(٢) : يصلب : أى يصمد . (٣) : سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٣٩.

(٤) : انظر : سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٤٠.

وكان - عدو الله - أبو جهل اذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعه أنبه وخزاه ، وقال : تركت دين أبيك وهو خير منك ، لنسفهن حلمك، ولنغيلن رأيك[١]، ولنضعن شرفك ، وان كان تاجرا قال : والله لنكدسن تجارتك ، ولنهلكن مالك ، وان كان ضعيفا ضربه وأغرى به[٢].

لقد تحمل أصحاب النبي رضوان الله عليهم من المشركين أشد أنواع الأذى والابتلاء المادى والمعنوى ، الى الدرجة التي كان يبلغ العذاب فيها ذروته ، فيعطي المسلم بلسانه قولا يفتدى به من العذاب في حينه ، ولكن لا يصرفه ذلك أبدا عن دينه .

أخرج ابن اسحاق عن سعيد بن جبير قال :

" قلت لعبد الله بن عباس : أكان المشركين يبلغون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من العذاب مايعذرون به في ترك دينهم ؟ قال : نعم والله ، ان كانوا ليعذبون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر على أن يستوى جالسا من شدة الضرب الذى نزل به ، حتى يعطيهم ماسألوه من الفتنة ، حتى يقولوا له : اللات والعزى الهك من دون الله . فيقول : نعم . حتى ان الجعل[٣] ليمر بهم فيقولون له : هذا الجعل الهك من دون الله . فيقول : نعم افتداء منهم مما يبلغون من جهده[٤]"

وهكذا يظهر جليا مدى العذاب المهين الذى صب على الصحابة رضي الله عنهم ، ومدى ماتحملوه في سبيل الله ، كما يظهر أيضا أثر الايمان اذا

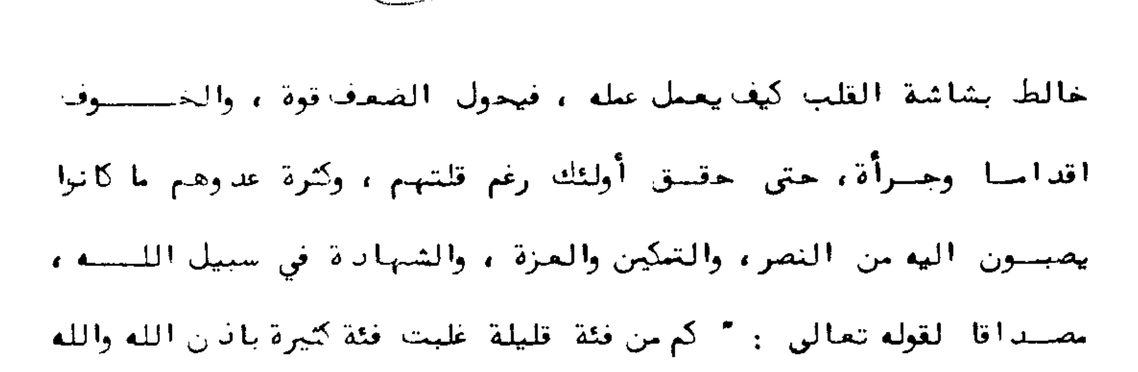
---

(١) : قوله : لنغيلن رأيك : أى نقبحه ونخطئه كما جاء في القاموس.

(٢) : سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٤٢ .

(٣) : الجعل : حشرة صغيرة حقيرة.

(٤) : سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٤٢ . وزاد المعاد جـ ٢ ص ٤٣ .



خالط بشاشة القلب كيف يعمل عمله ، فيحول الضعف قوة ، والخوف اقداما وجرأة ، حتى حقق أولئك رغم قلتهم ، وكثرة عدوهم ما كانوا يصبون اليه من النصر ، والتمكين والعزة ، والشهادة في سبيل الله ، مصداقا لقوله تعالى : " كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين " (سورة البقرة - ٢٤٩)

ولقد كان لتحملهم وصبرهم وكفاحهم أعظم الآثار في انتشار الاسلام ، ونجاح الدعوة ، بعد أن علمهم ايمانهم القوى ، وعقيدتهم الثابتة ، أن حكمة الله تعالى اقتضت أن يمتحن النفوس ويبتليها ، فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها ، ومن يصلح لموالاته وكرامته ، ومن لا يصلح ومن يقدر على تحمل أعباء الدعوة ومن لا يقدر ، وليمحص النفوس التي تصلح له ، ويخلصها بكير الامتحان (1) ، كالذهب الذى لا يخلص ولا يصفوا غشه الا بالامتحان ، ولما كان أمر الدعوة ، والقيام بشئونها أمانة كبيرة ، ومسئولية عظيمة ، فكان لابد من الامتحان لتقوى تلك النفوس على القيام بالدعوة وواجباتها ، حيث كانت حال الصحابة ، وما أصابهم من العذاب تمحيصا لايمانهم ، ودفعا لهم الى التضحية والجهاد في سبيل الدعوة ونشرها ، فكان تحملهم هذا عاملا من عوامل نجاح الدعوة .

جـ - العلم والعمل :

لقد أقيمت هذه الدعوة على قاعدتين هامتين ، هما : العلم والعمل . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصحابته الذين رباهم حريصين على تطبيق هاتين القاعدتين .

---

(1) : كير الحداد منفخه من جلد غليظ ذو حافات . وقد يكون آلة من حديد يصدر منها الهواء لاشعال نار الحداد .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان نموذجا للمتعلم الباحث عن العلم النافع، الحريص على التلقي المتقن ، والتطبيق الكامل لكل ما يتعلمه، يدل على ذلك ماكان من حرصه عندما كان يتلقى الوحي من معلمه جبريل ، حتى ان القرآن الكريم يرشده الى أن الله تعالى الذى أنزل هذا القرآن ، كفيل بتعليمه اياه وحفظه ، ويوجهه الى عدم ارهاق نفسه في ذلك .

قال تعالى : " لا تحرك به لسانك لتعجل به ،ان علينا جمعه وقرآنه . فاذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم علينا بيانه "(سورة القيامة — ١٦ : ١٩) ورسول الله صلى الله عليه وسلم بالقدر الذى حريصا على التلقي من معلمه جبريل ، كان حريصا على تعليم أصحابه ، وارشادهم وهدايتهم ، قولا وعملا .

ولشدة حرصهم على العلم وطلبه ، كانوا يلازمون لرسول الله ، ويخدمونه ليتلقوا من علمه ، ويشاهدوا عمله ، حتى يحصل لهم العلم المقرون بالعمل ، كما كان من أنس بن مالك ، وأبي هريرة وغيرهم كثير، بعد أن جعلوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم معلمهم وقدوتهم ، امتثالا لقوله تعالى : " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا " (سورة الأحزاب — ٢١) .

وطبقوا أحكام الاسلام في كل شأن من أمرهم ، بعد العلم والمعرفة ، لأن الايمان الذى شعشع في نفوسهم علمهم أنه لا ايمان بدون عمل ، ولا عمل بدون علم ومعرفة تامة بأحكام هذا الدين ، فجعلوا علمهم وسيلة لعملهم ، فاستغلوا طاقاتهم ، وسخروا امكانياتهم في سبيل عقيدتهم ، ونشر دعوتهم ، واجتنبوا بذلك مانوه عنه القرآن الكريم

من الذم الوارد في حق ماخالف قوله فعله ، في قوله تعالى : " ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون " (سورة الصف — ٢ ، ٣).

وكان في سلوكهم هذا أقوى الضمانات لنجاح الدعوة ، بعد أن علمتهم عقيدتهم أن العلم بدون عمل لاثمرة له ، ولا خير يرجى منه.

فجعلوا في مقدمة اهتماماتهم القرآن واتقانه ، وتطبيق أحكامه ، راغبين في كل علم نافع.

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : " (والله الذى لااله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله الا أنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله الا أنا أعلم فيم أنزلت ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الابل لركبت اليه).(١)

وثبت أنهم كانوا يتعلمون القرآن خمس آيات وعشر آيات لايبارحونها حتى يتعلموها ويعملوا بها.(٢)

وكان لعلمهم أعظم الآثار في تهذيب النفس ، وتقوى الله ، واتباع الصراط المستقيم ، والبعد عن الشر وأهله ، وتعميم الخير واقامة الحق والعدل ، ونشر دعوة الاسلام ، عندما كانوا يختلفون الى مدرسة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيصيبون منها علما وهدى وفضائل وسجايا وآدابا وأحكاما ، ما اتسعت لذلك أوقاتهم ، وساعدت عليه ظروفهم.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

" كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد — وهي من عوالي

---

(١) : رواه البخارى جـ ٣ ص ٢٢٨.
(٢) : انظر : الاتقان جـ ١ ص ٥٧.

المدينة ـ فكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينزل يوما وأنزل يوما ، فاذا نزلت جئته بعلم ذلك اليوم ، واذا نزل فعل مثل ذلك[١] .

ولهذا السبب نجد البون شاسعا بين أولئك القوم والمسلمين اليوم، بسبب بعد المسلمين عن القرآن ، وهجرهم له ، واستبدال أحكام من أنفسهم ومن شياطينهم ، بأحكام القرآن .

قال تعالى : " وقال الرسول يارب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا" (سورة الفرقان ـ ١٣٠) .

(ولقد كان القرآن الكريم هو النبع الأول الذى استقى منه ذلك الجيل أحكامه وأخلاقه (القرآن وحده) عندما كان ذلك الجيل يقرؤون القرآن الكريم للعلم والعمل ، وطاعة الله ورسوله ، كما لم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الدنيا ، أو الثقافة الزائدة ، انما كان يتلقى أمر الله في خاصة شأنه ، وشأن الجماعة التي يعيش فيها ، وهذا هو الفارق)[٢] .

فحازوا قصب السبق في الورع ، والتقوى والزهد ، والعدل وبلغوا درجة الكمال المقدورة لهم ، حتى جاء مدحهم والثناء عليهم ، من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم .

قال تعالى : " والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه " (سورة براءة ـ ١٠٠) .

(١) : مع الرعيل الأول ـ محب الدين الخطيب ـ الطبعة الثالثة ١٣٨٣هـ ـ ص ٧٢ .
(٢) : معالم في الطريق ـ ص ١٢ .. بتصرف.

والآيات في ذلك كثيرة.

كما ورد الثناء عليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بأحاديث مستفيضة ، متكاثرة ، منها ماجاء في الصحيحين.

عن أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تسبوا أصحابي فو الذى نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدكم أو نصيفه"[1].

ولذلك فعدالة الصحابة رضوان الله عليهم جميعا ، وعلو مكانتهم ، وفضلهم ثابتة لهم ، معلومة من دين الاسلام بالضرورة ، ولا يشك في ذلك الا منافق متكابر ، منكر لهدى القرآن.

قال الخطيب[2] البغدادى في " الكفاية " : " ان عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم ، واخباره بطهارتهم ، واختياره لهم بنص القرآن في آيات يكثر ايرادها ، ويطول تعدادها ، ووصف رسول الله عليه وعلى آله السلام الصحابة مثل ذلك ، وأطنب في تعظيمهم ، وأحسن الثناء عليهم ، من ذلك :

ما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ، ثم يجيئ قوم تسبق أيمانهم شهادتهم ، ويشهدون قبل أن يستشهدوا"[3].

---

(١) : رواه البخارى جـ ١ ص ٢٩٢ — باب فضل الصحابة. ورواه مسلم جـ٤ ص ١٩٦٧ — باب تحريم سب الصحابة).

(٢) : الخطيب البغدادى : هو أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب أحد الحفاظ المؤرخين المتقدمين ، ولد سنة ٣٩١هـ ونشأ ببغداد ، له مؤلفات كثيرة في علوم الحديث والأحكام والتاريخ . كان كثير الترحال في طلب العلم. توفى سنة ٤٦٣هـ. انظر : وفيات الأعيان — جـ ١ ص ٢٧ ، والبداية والنهاية : جـ١٢ ص ١٠١ ، والأعلام جـ ١ ص ١٧٢.

(٣) : رواه البخارى جـ ١ ص ٢٨٧ — باب فضل الصحابة — ورواه مسلم جـ ٤ ص ١٩٦٢ — (باب فضل الصحابة).

وجميع ماورد في ذلك يقتضي طهارة الصحابة ، والقطع على تعديلهم ونزاهتهم فلا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله تعالى لهم ، المطلع على بواطنهم الى تعديل أحد من الخلق له[1]".

وهكذا كان شأن الصحابة في سلوكهم وعلمهم وعملهم فكان لهم دورا كبيرا في نجاح الدعوة ، لأن المجتمعات لبناتها الأفراد ، والأمم لبناتها الأسر ، فاذا صلح الفرد والأسرة ، قامت أمة عظيمة كريمة ، ولقد كان هذا ماحدث هنا ، فلقد أصبح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل منهم كأنه أمة وحدة ، في الطاعة والامتثال والصدق والصلاح والعلم والعمل ، وأصبحوا خير مثال في الأرض لدعوتهم فكانوا قدوة ، وكان حسن اسلامهم دافعا لغيرهم في الدخول في الاسلام ، فنجحت بهم الدعوة.

---

(١) كتاب الكفاية في علم الرواية ص ٩٣ .



العامل الرابع : تضحياتهم وجهادهم :

تحدثنا فيما سبق عن الجهاد في سبيل الله ، وكونه عاملا مهما من عوامل نجاح الدعوة ، ولكن قد يكون المبدأ سليما ولايطبق ، والدين صحيحا ولا يطاع ، والتكليف على غاية الأهمية ثم يهمله أتباعه.

ومن هنا نتحدث في هذا البحث عن فضل الصحابة رضوان الله عليهم، وكيف حولوا المبادئ الى حقائق تدرج على الأرض ، وجعلوا التكاليف رجالا تمشي على قدمين ، حتى غدا الجهاد عندهم شوقا ، والغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نصرة لدينهم غراما وكلفا ، والموت في سبيل الله أمنية محبوبة .

قال تعالى : " ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون " (سورة آل عمران - ١٤٣).

ولما كان لجهادهم وتضحياتهم أكبر الآثار في نجاح حركة الدعوة وثباتها وحمايتها ، وسرعة انتشارها ، خاصة اذا علما أنهم كانوا يجابهون أعداء جفاة الطباع ، غلاظ الأكباد ، لايتورعون عن استئصال الدعوة ، واجتياحها لولا أن الله تعالى هيأ لها هذا الجيل من المجاهدين ، حيث بذلوا تضحيات نادرة (بالنفس والمال والأهل) في سبيل الدعوة ، على مانوجز بيانه فيما يلي :

التضحية النادرة :

لقد كان من نعم الله تعالى ، وفضله على المسلمين ، وعلى الدعوة الاسلامية أن منح أولئك الصحابة رضوان الله عليهم - على قلتهم عددا وكثرة عدوهم - القدرة على الثبات على الحق ، وتحمل المشاق ، والصبر على الأذى

في سبيل العقيدة ، وبسببها ، فكان أن قابلوا تلك الشدائد التي تعجز عن حملها الجبال ، ويشيب من هولها الولدان ، بايمان قوى ، وعزيمة صلبة ، وشجاعة خارقة للعادة ، وحبا فريدا لهذه الدعوة ، لا يدانيه حب النفس أو الأهل أو الولد أو حب شيئ آخر في الوجود ، فما كان الا أن قدموا التضحيات الهائلة ، والجهاد المتواصل ، ورخص في أعينهم كل غال ونفيس من أجل العقيدة ، ومحبة الله تعالى ، ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقد شدهم ذلك الى الحنين الى جنان ، والشوق للآخرة لما عرفوا ما أعده لهم تعالى من ثواب جزيل ، فكان حب التضحية والاستشهاد في سبيل الله فوق أى غرض آخر.

فكانت عداوة قومهم لهم قوة هائلة تدفعهم الى التضحية والبذل بسخاء ، وكلما زادت غضبة قومهم عليهم ، وعداوتهم لهم زاد هؤلاء المجاهدون في الثبات على المبدأ ، والصمود على الحق ، فقدموا أنفسهم وأموالهم بعد أن جادوا بها لا يريدون لها ثمنا الا من الله تعالى يوم القيامة.

فسطر لنا أولئك الجنود من (جنود الدعوة) صحائفا من نور تشع بالتضحية والفداء ، ووهبوا أرواحهم ، ودماءهم وأموالهم في سبيلها ، وبذلوا الغالي والرخيص في سبيل هذه الدعوة : ضحوا بالنفس ، وجادوا بالمال ، وأرخصوا الأهل والولد وكل شئ في سبيل هدف واحد ، وغاية واحدة هي : جعل كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، فكان لهم ما أرادوا بفضل الله .

وفيما يلي بعض النماذج من تضحياتهم ، والتي هي أكثر من أن تحصى ، وأصعب من أن تستقصى ، لأن لكل منهم رضوان الله عليهم مواقف لا تنسى ، وبطولات لا تنكر ، ومن ذلك :

١ — التضحية بالنفس :

اذا كانت النفس أعز مايملك الانسان ، وأغلى ما يحرص على حفظه لما فطره الله عليه ، فأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين رباهم قد رخصت عندهم أنفسهم ، وهانت عليهم الحياة في سبيل الله ، فبذلوا أنفسهم ثمنا لعقيدتهم ، وضحوا بكل شئ من أجلها ، وكانوا جميعا على هذا المنوال وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدين ، وبقية العشرة المبشرين بالجنة ، وأشراف قريش ممن اهتدوا للاسلام ، وناهيك بما كان من عمار بن ياسر وأبيه وأمه وبلال بن رباح وغيرهم من المستضعفين .

فهذا أبو بكر رضي الله عنه ينفرد به المشركون في المسجد مع قلة مستضعفة من أصحابه فيضربونهم ضربا شديدا ، ويدنو من أبي بكر عتبة بن ربيعة ويأخذ يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه ، وينزوا[١] على بطن أبي بكر حتى مايعرف وجهه من أنفه ، حتى جاءه بنو تيم فأجلوا المشركين عنه ، وحملوه في ثوبه الى بيته لا يشكون في موته ، ثم لما رجعوا للمسجد قالوا : والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة ، ويبقى بعد ذلك زمنا على فراشه كلما سأل عن حاله قال : مافعل رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] ؟ .

ولم يكن هذا قاصرا على حال الأشراف عليهم ، وأهل الشوكة والمنعة وانما كان أمرا عاما فيهم حتى المستضعفين والعبيد كعمار بن ياسر وأبيه وأمه ، وخباب ، وصهيب ، وبلال وغيرهم .

أخرج الامام أحمد عن عثمان رضي الله عنه قال : ألا أحدثكم عن عمار ؟

---

(١) : وينزوا : أى يصعد ويرتفع عليه .
(٢) : انظر : كتاب حياة الصحابة جـ ١ ص ٤١٢ .

أقبلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم آخذا بيدى نمشي في البطحاء، حتى أتى على أبيه وأمه وعليه يعذبون. فقال أبو عمار: يا رسول الله الدهر هكذا؟ فقال له صلى الله عليه وسلم: " أصبر، ثم قال: اللهم اغفر لآل ياسر، وقد فعلت"(١)

وهكذا كانت هذه الأسرة الكريمة تعذب بأشد أنواع التعذيب، وكانت سمية (أم عمار) أشد هذه الأسرة اصابة وتضحية، فكانت رضي الله عنها أول شهيد في الاسلام، بعد أن طعنها -عدو الله- أبوجهل في قبلها فماتت، ومات بعدها زوجها في العذاب(٢).

وتضحيات بلال بن رباح أشهر من أن تذكر، بحيث لا تخفى على أحد.(٣)
منها ما أخرجه أبو نعيم(٤) (في الحلية) " ان بلالا من أول السبعة السابقين للاسلام وكان من المستضعفين الذين ألبسوا أدراع الحديد ثم جروهم في الشمس، فبلغ منهم الجهد ماشاء الله أن يبلغ من حر الحديد والشمس، فلما كان في العشى أتاهم أبوجهل -لعنه الله- ومعه حربة فجعل يشتمهم ويوبخهم"(٥)

وقال ابن القيم -رحمه الله-: " ومنهم بلال بن رباح فانه عذب في الله أشد العذاب فهان على قومه، وهانت عليه نفسه في الله"(٦)

---

(١) : أخرجه الامام أحمد في المسند -ج ١ ص ٤٤٠.
(٢) : انظر: الاصابة -ج ٣ ص ٦٤٧.
(٣) : للاستزادة عن حياة بلال: انظر: أسد الغابة ج ١ ص ٢٠٦ وغيرها.
(٤) : أبو نعيم: هو أحمد بن عبدالله بن أحمد بن اسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، ولد سنة ٣٣٦هـ -حافظ، له عدة تصانيف تدل على اتساع روايته، وقوة اطلاعه، توفى سنة ٤٣٠هـ في بلده أصبهان.
أنظر: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٤٥، والأعلام ج ١ ص ١٥٧.
(٥) : حلية الأولياء ج ١ ص ١٤٠.
(٦) : زاد المعاد ج ٢ ص ٤٣.

وانه لن تغيب عن البال تضحية خبيب بن عدى وأصحابه الكرام الذين قتلوا غيلة ، وقد لخص (ابن القيم) رحمه الله قصتهم بقوله :

" قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم من عضل والقارة وذكروا أن فيهم اسلاما وسألوه أن يبعث من يعلمهم الدين ويقرئهم القرآن فبعث معهم ستة نفر في قول ابن اسحاق ، وقال البخارى : كانوا عشرة وأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوى ، وفيهم خبيب بن عدى فذهبوا معهم فلما كانوا بالرجيع وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز غدروا بهم واستصرخوا عليهم هذيلا ، فجاءوا حتى أحاطوا بهم فقتلوا عامتهم ، واستأسروا خبيب بن عدى ، وزيد بن الدثنة فذهبوا بهما ، وباعوهما بمكة وكانا قتلا من رؤوسهم يوم بدر ، فأما خبيب فمكث عندهم مسجونا ثم أجمعوا على قتله فخرجوا به من الحرم الى التنعيم ، فلما أجمعوا على صلبه ، قال : دعوني حتى أركع ركعتين ، فتركوه فصلاهما ، فلما سلم قال : والله لولا أن تقولوا ان مابي جزع لزدت ، ثم قال : اللهم احصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تبق منهم أحدا ، ثم قال :

لقد أجمع الأحزاب حولي وألبوا ... قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وكلهم مبدى العداوة جاهد ... علي لأني في وثاق مضيع

الى أن قال :

ولست أبالي حين أقتل مسلما ... على أى شق كان في الله مضجعي
وذلك في ذات الاله وان يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

وما من شك أنه كان لهذا الثبات الأشم ، والتضحيات الهائلة وقعها الأكيد في نفوس الكفار ، وفي أرجاء بلاد العرب ، بل في نفس كل انسان يعجب بالشجاعة ، وينتشي للبطولة ، ومن هنا تنتقل الأخبار ،

وتتــواتر الآثار للناس، ويقولون : ان هذا الدين يصنع الأعاجيب ، فــــي نفــوس أصحابه ، ومن هذا المدخل الهادئ يتسـرب الاسلام الى النفــوس حتى وصــل التأثير الى قلب ــ زعيم الشرك ــ أبي سفيان ، وقائد العــــير والنفــير ضــد المسلمين ، فقال أبو سفيان لخبيب :

" أيسرك أن محمدا عندنا نضرب عنقه ، وانك في أهلك ؟ فقال : لا والله مايســرني اني في أهلي وان محمدا في مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه"[1]

ولا شــك أنه كان لهذا الجواب الحاسم ، والوفاء والحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من خبيب أثـره في نفس أبي سفيان حتى يقول :

" مارأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا ، ثم قتــل رضــي الله عنه"[2]

وزميل خبيب ، وأخوه في الله (زيد بن الدثنة) لم يقل عنه في التضحيـــة ، ابتاعه صفــوان بن أمية فقتله بأبيه[3].

ولقد أسلم كثير بعد موقف خبيب وزيد ممن حضروا قتلهما[4]. حتى لقــد تغنى الشعراء بأمرهما وأمر دينهما فقال القائل :

أسرت قريش مسلما في غــــزوة فمضى بلا وجل الى السيـــــاف
سألوه هل يرضيك أنك سالـم ولك النبي فدا من الاتــــلاف
فأجاب :كلا لا سلمت من الردى ويصــاب أنف محمــد برعـــــاف

---

(١) : زاد المعاد جـ ٢ ص ١٠٩ .
(٢) : حلية الأولياء جـ ١ ص ١١٢ . وفي سيرة ابن هشام ان قول أبي سفيان هذا كان لزيد بن الدثنة . بخلاف مارواه ابن قيم الجوزيه .
(٣) : انظر : سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ١٦٤ ، زاد المعاد جـ ٢ ص ١٠٩ ، وحيـاة الصحابة جـ ١ ص ٧٨٣ .
(٤) : انظر : سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ١٦٥ ، ١٨٧ .

وهذا قليل من كثير من تضحياتهم ، التي تعددت وتنوعت ، حتى بلغت الآفاق ، وضربت رقما قياسيا في مجال التضحية والفداء ، وكانت مضرب الأمثال وعاملا مهما في نجاح الدعوة.

٢- التضحية بالمال :

لا نزاع في أن المال عصب الحياة ، ومن أجل ذلك فطر الناس على حبه ، قال تعالى : " المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا " (سورة الكهف - ٤٦).

ولما كان المال بهذه المنزلة فمن الصعب أن يتنازل عنه المرء ، بل من الصعب أن يتساهل في تحصيله ، لكنا نجد تلك الفئة الخيرة ، من (جند الدعوة) من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين غرس في قلوبهم قوة الايمان ، ورباهم على التضحية ، قد استرخصته ، ولم تعبأ به ، في سبيل حصولها على مايقربها الى الله تعالى .

وان سيرة أولئك القوم الأكارم لتزخر بالوقائع التي تنم عن زهدهم في الدار الفانية ، لينالوا الحضوة في الدار الآخرة.

وتضحيات الصحابة رضوان الله عليهم عندما هاجروا الى المدينة ، وتركوا مالهم في مكة ، في أيدى المشركين ، أكثر من أن تحصى ، وأكبر دليل على صدق ايمانهم ، حين كانوا في أمس الحاجة الى ذلك المال ، حتى نزل القرآن الكريم في الثناء عليهم ، وعلى تضحياتهم التي في مقدمتها التضحية بالمال ، كقوله تعالى : " ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد " (سورة البقرة - ٢٠٧).

حيث نزلت هذه الآية بعد أن هاجر صهيب بن سنان رضي الله عنه للمدينة

مقابل ترك ماله للمشركين[1]. عندما قالوا له : " لا نتركك تذهب غنيا وقد جئتنا صعلوكا ولكن دلنا على مالك بمكة. ونخل عنك ، فعاهدوه على ذلك ففعل[2] "

فلما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت الآية ، فقال صلى الله عليه وسلم : " ربح البيع أبا يحيى[3] "

ولا شك أن لارخاصهم المال بتلك الصورة، وعلى هذا النحو ، أعظم الآثار في نجاح الدعوة ، لمن عرف تلك المكانة للمال في النفوس، فيقتنع غيرهم بأن هذا الدين الذى يضحي في سبيله بتلك الصور الفريدة هو دين الحق ، وأن ماعداه هو الضلال ، فيدخل في نفوسهم برضاء واختيار .

٣ ـ التضحية بالأهل :

من العسير على كل انسان أن يعيش في منأى عن أهله ، وهم الذين عاش في كنفهم ، وكيف يقوى المرء على مفارقتهم ، وقد حملوه صبيا ، واحتضنوه غلاما ، وأنسوا به يافعا ، وركنوا اليه كهلا ، وبادلهم هو نفس المشاعر ، وشاركهم نفس الأحاسيس ، غير أن الايمان بالعقيدة ، يصنع العجائب ويحدث المعجزات ، فهاهم أولئي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، يستمرؤون فراق أهليهم ، فرارا بدينهم ، حتى وصل الأمر بهم الى معاداتهم ، وشهر السيوف في وجوههم ، سواء كان أبا أو أخا أو قريبا ، مضحين بكل شيئ في سبيل هذه الدعوة ، حبا لها ، ودفاعا عنها ، وجهادا في سبيل نشرها " أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب " (سورة الزمر ـ ١٨)

(١) : انظر : تفسير القرطبي جـ ١ ص ٧٢٨ .

(٢) : الاستيعاب جـ ٢ ص ١٧٤ . والصعلوك : الفقير.

(٣) : حلية الأولياء للأصفهاني ـ الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م ـ جـ ١ ص ١٥١ .

لأن أولئك القوم (من حزب الله) امتثلوا قوله تعالى :

" لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون " (سورة المجادلة ـ ٢٢) .

ونحن عندما نتحدث عن تضحيات الصحابة رضوان الله عليهم في ذلك، وأثر تلك التضحيات في نجاح الدعوة ، لن نذهب بعيدا فهجرتا الحبشة ، والهجرة للمدينة أكبر مثال على جسامة تلك التضحيات حيث هاجر الصحابة رضوان الله عليهم فارين بدينهم ، تاركين أهليهم وأموالهم ، منتظرين الفرج من الله تعالى .

فأرخصوا الأهل ، وضحوا بالعشيرة في سبيل العقيدة ، في حين كان العرب أشد الناس احتفالا بعصبية القبيلة والعشيرة والبيت ، ولا شك أنه كان لتصرفات الصحابة تلك المخالفة لفطرة العرب ـ آنذاك ـ صداها الواسعة التي رددتها نجاد الجزيرة ووهادها (١) ، مما لفت الأنظار الى هذه الدعوة ، ودلل على صحتها وثباتها ، ومن ثم اتجاه الناس اليها خاصة عندما نعلم أن العرب كانوا يقدروه البطولات ، ويجلون التضحيات.

وتضحيات هؤلاء الذين هاجروا ، وتركوا أهلهم وأوطانهم ، قد تكون أسهل وقعا على النفس ، وأقل أثرا في الناس عن حال من هاجر بأهله فارين بدينهم ، فيلحق به أعداء الله ، وأعوان الشيطان من المشركين ، ويمنعوا

---

(١) : نجاد : مفردها نجد وهو ما ارتفع من الأرض ، ووهاد : مفردها وهد ، وهو المكان المطمئن .

أهله عن مرافقته ، ويمكنوه هو من الهجرة ظنا منهم أن ذلك سيثنيه عن عزمه ، أو يحول دون مراده ، وهذا ماحصل لأبي سلمة المخزومي ، أول من هاجر من المسلمين للمدينة ، ولندع زوجته أم سلمة[1] رضي الله عنهما تروى لنا محنتها حيث تقول فيما نقله ابن اسحاق :

" لما أجمع أبو سلمة الخروج الى المدينة رحل[2] لي بعيره ، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم قاموا اليه ، فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ، علام نتركك تسير بها في البلاد ، قالت : فنزعوا خطام البعير من يده ، فأخذوني منه ، قالت : وغضب عند ذلك بنو عبدالأسد رهط أبي سلمة ، قالوا : لا والله لا نترك ابننا عندها اذ نزعتموها من صاحبنا ، قالت : فتجاذبوا ابني سلمة بينهم ، حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسني بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجي أبو سلمة الى المدينة ، قالت : ففرق بيني وبين زوجي وابني ، قالت : فكنت أخرج كل غداة فأجلس في الأبطح ، فما أزال أبكي حتى أمسي ، سنة أو قريبا منها ، حتى مر بي رجل من بني عمي أحد بني المغيرة ، فرأى مابي فرحمني فقال لبني المغيرة : ألا ترحمون هذه المسكينة ؟ ! فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها قالت : فقالوا لي : الحقي بزوجك ان شئت[3] "

---

(١) : أم سلمة : اسمها هند وغلبت عليها الكنية بأم سلمة ابنها ، بنت أحد سادة بني مخزوم وهو : أبي أمية سهيل بن المغيرة بن عبدالله المخزومي ويلقب " بزاد الراكب " لكرمه وجوده ، تزوجها صلى الله عليه وسلم بعد موت زوجها عبدالله بن عبدالأسد بن هلال المخزومي . انظر : البداية والنهاية : جـ ٨ ص ٢١٤ .

(٢) : رحل بعيره : أناخه بعد أن شد عليه للركوب .

(٣) : سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٧٧ .

ولقد كان لتلك التضحيات الهائلة ، التي لم يسجل التاريخ في صفحاته لها شيئا أعظم الآثار لنجاح الدعوة ، لأنه مهما كانت عداوة قومهم لهم ، وقسوة قلوبهم ، وغلظ طباعهم ، فان الدعوة تتسرب الى نفوسهم في هدوء وروية عندما يقفون منبهرين[1] أمام تضحيات هؤلاء القلة من (جنود الدعوة) ونتجاوز عن تلك التضحيات الضخمة الهائلة ، لنقف عند نوع آخر من التضحيات قد لا يصدقه أحد من الناس ، الا من ذاق حلاوة الايمان ، وصدق اليقين والحب الذى لا يوازيه حب الله ولرسوله ولدعوته ، ونعني بذلك تضحية (عبدالله بن عبدالله بن أبي) رضي الله عنه وأرضاه ، ذلك النموذج الرفيع للمسلم المتجرد ، الصادق الايمان ، عندما يشقى بأبيه (زعيم المنافقين) ويضيق بأفاعيله ، ويخجل من مواقفه ، فيستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان كان عازما على قتله ، بسبب ماأصاب المسلمين من شره ، أن يقوم بقتل أبيه ، ويقول الابن معللا كيف حوله الايمان ، وأثر فيه ، حتى أصبح حبه المفرط لوالده بغضا بعد أن أصبح عدوا لله ولرسوله : يارسول الله : " انه قد بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أبي فيما بلغك عنه ، فان كنت لابد فاعلا ، فمرني به فأنا أحمل اليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ماكان لها من رجل أبر بوالده مني ، واني أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعني نفسي انظر الى قاتل عبدالله بن أبي يمشي في الناس فأقتله ، فأقتل رجلا مؤمنا بكافر ، فأدخل النار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل نترفق به ، ونحسن صحبته مابقي معنا[2] "

وهكذا ندرك كيف كانت تضحيات الصحابة هائلة ، لايمكن وصفها أو تصورها

---

(١) : انبهر : تتابع نفسه .
(٢) : سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٣٧ .

بعد أن علمهم ايمانهم القوى ، ويقينهم الصادق ، أن حكمة الله تعالى اقتضت وجود الصراع بين دعوة الحق وأصحابها ، وبين قوة الشرك وحزب الشيطان ، وأنه لابد لهذه الدعوة من قوة تحميها وتدافع عنها،وتطبعها بطابع الجد الذى يناسبها ، فكانت تلك التضحيات الجسام بالرغم مما فيها من كلفة ومشقة ضرورية ليتميز بها الحق من الباطل ، والصدق من الزيف والضلال ، وبذلك تقوى الدعوة وتنجح باذن الله تعالى .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر فالذى يقع غالبا أن كثرة الناس تقف متفرجة على مايبذله هؤلاء المجاهدون ، وما يجودون به من تضحيات، حتى اذا تضخم رصيد التضحيات والآلام من قبل دعاة الاسلام،وهم ثابتون على الحق ، ماضون في طريقه ، قالت الكثرة المتفرجة ، أو شعرت من حيث تدرى أو لا تدرى، أنه لا يمسك أصحاب الدعوة على دعوتهم على الرغم من تضحياتهم الجسيمة الا أن في هذه الدعوة ماهو أغلى مما يضحون به وأثمن ، وعندئذ تتقدم الكثرة المتفرجة من الناس بما فيهم المعاندين والمكابرين ، لترى ماهو العنصر الغالي الثمين الذى يرجح كل أعراض الحياة ، بل الحياة ذاتها عند (جند الدعوة) وعندئذ يدخل المتفرجون أفواجا في هذه الدعوة بعد طول التفرج والانتظار ، وبذلك نجحت العوة ودخل الناس في دين الله أفواجا (١) .

نماذج من جهادهم واستشهادهم :

بينا فيما سبق كيف أن الله تعالى ، أراد للانسانية الخير والفلاح ، عندما منح ذلك الجيل ، من جنود الحق ، أنفسا قوية ، يتدفق منها روح الايمان،

---

(١) : في ظلال القرآن جـ ٥ ص ٢٥٦٢ . بتصرف.

وحب الايثار ، والشوق الى الجنــان ، التي أعدها المولى لعباده المؤمنين الصابرين ، المجاهدين في سبيله ، فقدموا أنفسهم فداء لهذا الديــن ، وجادوا بكل مايملكونه من أجــل هذه الدعوة ، بعد ما أعطاهم الايمان القوى واليقــين الثابت، الارادة القوية التي فعلت الأعاجيب ، وحققت المستحيلات وهم وان قدموا التضحيات الباهرة ، قبل الأمر بالجهاد ، فلقد كان تشريع الجهاد في سبيل الله ، والنــدب اليه قوة دافعة لهم الى التضحية والجهاد والاستشهاد ، لتكون كلمة الله هي العليا ، ولم لا يكون ذلك وهم يطرق آذانهم ويخالج أفئدتهم ،قول الله تعالى : " ياأيها الذين آمنوا استجيبوا للــــه وللرسول اذا دعاكم لما يحييــكم .. الآية " (سورة الأنفال — ٢٤) .

وقول الله تعالى : " انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكـــم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون " (سورة التوبة — ٤١) .

فاستجابوا لنداء الله تعالى ، ونالوا ماوعدهم به المولى ، من الخـــير الجزيل بالنصــر في الدنيا ، والفوز في الآخرة ، ففتح الله لهم القلوب قبــل الديــار ، وأعز الله بهم هذه الدعوة ، واعتزوا بها ، فانتصرت بهم، وانتصروا بها ، وحقق الله بهم ، وعلى أيديهم ، وبسواعدهم القوية مايعد خارقة فــي تاريخ البشرية كلها ، فنجحت بهم الدعوة ، وبلغت الآفاق ، وربحت الصفقة التي عقدوها مع الله تعالى ، عندما اشترى منهم أنفسهم وأموالهم ، عوضهــــا جنة عرضها السموات والارض، إنــهم قاتلوا في سبيل الله ، قال تعالـــــى : " ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم " (ســـورة التوبة — ١١١) .

فانطلقوا أشد من الرياح العاتية ، يصولون ويجولون ، يمينا وشمالا ، شرقا وغربا مبشرين بدين الله العظيم ، ناشرين دعوة الاسلام ، فانتصروا ، بعد أن هانت عليهم الصعاب ، وأرخصوا أموالهم وأنفسهم ، وكل متاع غال عندهم ، وكذلك لابد لكل مجاهد صقله الايمان ، واستولت عليه العقيدة.

روى أنس بن مالك رضي الله عنه : " غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال يارسول الله : غبت عن أول قتال قاتلت المشركين لئن أشهدني قتال المشركين ليرين الله ماأصنع ، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال : اللهم اني أعتذر اليك مما صنع هؤلاء يعني أصحابه ، وابرأ اليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين ، ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ ، فقال : ياسعد ابن معاذ الجنة ورب النضر اني أجد ريحها دون أحد ! قال سعد : فما استطعت يارسول الله ماصنع ، قال أنس : فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ، ووجدناه وقد مثل به المشركون فما عرفه أحد الا أخته ببنانة ، قال أنس : كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه " من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا "(١) (سورة الأحزاب — ٢٣) .

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم ، أشد مايكونون حرصا على الجهاد ، وعدم التخلف عنه ، وكانوا يستاءون كثيرا عندما يحصل مايمنعهم عن المبادرة للتوجه للجهاد كما كان من أمر أنس بن النضر.

وهذا حنظلة بن أبي عامر (غسيل الملائكة) رضي الله عنه يسمع نداء الجهاد ، فيهب من فوره من فراش عرسه بجنابته ، متوجها الى أحد ، ويستبسل في قتال المشركين حتى يستشهد ،فيخبر رسول الله صلى الله وسلم وأصحابه أن الملائكة

(١) : رواه البخاري ج٢ ص١٣٨ (كتاب الجهاد والسير . باب قوله تعالى : من المؤمنين رجال صدقوا ...) . ومعنى كلمة بضعا : البضع في العدد : مابين الثلاث الى التسع، بنانة : واحدة البنان ، وهي : أطراف الأصابع.

تفسله ، ثم يقول : " سلوا أهله ماشأنه ؟ فسألوا امرأته فأخبرتهم الخبر.(١)
وقبله كان (أخوه في الله) عمير بن الحمام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر، فلما دنا العدو، وتواجه الفريقان قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس فوعظهم وذكرهم بمالهم في الصبر والثبات من النصر والظفر العاجل ، وثواب الله الآجل ، وأخبرهم صلى الله عليه وسلم أن الله قد أوجب(٢) الجنة لمن استشهد في سبيله ، فقام عمير بن الحمام فقال : يارسول الله ، جنة عرضها السموات والأرض ، قال : نعم ، قال : بخ بخ يارسول الله قال : مايحملك على قولك : بخ بخ . قال : لا والله يارسول الله الا رجاء أن أكون من أهلها . قال : فانك من أهلها فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال : لئن حييت حتى آكل من تمراتي هذه انها لحياة طويلة فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتل حتى قتل فكان أول قتيل في بدر.(٣)

وصور تضحياتهم وجهادهم واستشهادهم بهذا النحو كثيرة، متواترة أدلتها .

واذا كان الصحابة رضوان الله عليهم قد جادوا بأنفسهم على هذا المنوال فلن يبخلوا بمالهم للجهاد في سبيل الله ، لأن النفس أغلى من المال ولأن المال انما يطلب لخدمة النفس ، فماذا يراد بالمال بعد النفس ؟

وهذا ماكان من الصحابة ، لقد ضحوا بمالهم ، وأنفقوه في سبيل الله ، وجاهدوا به لاعلاء كلمة الله ، فهؤلاء الصحابة يتسابقون للاستجابة لنداء الله في قوله تعالى : " انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل

---

(١) : انظر : زاد المعاد جـ ٢ ص ٩٣ .
(٢) : انظر : باب فضل من شهد بدرا في صحيح البخارى جـ٢ ص٧ والأحاديث الواردة فيه .
(٣) : زاد المعاد جـ٢ ص٨٨ . وبخ : كلمة تقال في المدح والرضا بالشيء وتكرر للمبالغة . فيقال : بخ بخ . ومعنى قرنه : جعبته ، ويجمع على أقرن واقران ، قاله ابن الأثير في النهاية جـ ٤ ص ٥٥ .

الله "(سورة براءة — ٤١) . في غزوة تبوك وغيرها عندما حضهم الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك، وندبهم اليه ، حتى ان عثمان بن عفان رضي الله عنه — وغيره من الصحابة ينفقون يوم تبوك نفقات كبيرة لا توصف، كل هذا من أجل نشر هذه الدعوة والذود عنها(١) .

وهذا (أمين هذه الأمة) أبو عبيدة بن الجراح يضحي بماله في سبيل الله ، بعد أن ضحى بأبيه وقتله مشركا في بدر(٢) .

ولقد كان لتضحياتهم أعظم الآثار في نجاح الدعوة ، لأن الدعوات لا تقوم الا بالبذل ، ولا تثبت في وجه الأعاصير الا بالتضحيات الجسام، وحمايتها وحياطتها بكل غال ونفيس من الأنفس والأموال والأهل .

ولقد أراد المشركون واليهود والنصارى هدم الدعوة ، ومحو الاسلام، وتدمير دولته ورجاله ، ولولا فضل الله ثم هذه التضحيات الجسام لما مضت الدعوة في طريقها .

فأعداء الدعوة اليوم هم أعداؤها بالأمس الذين مازالوا يحاولون هدمها والقضاء عليها ، ولم يصل الأمر بالمسلمين اليوم ، الى هذا الحد من الضياع والبعد عن الاسلام ودعوته ، ولم تتداعى عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها ، الا بسبب تقاعس المسلمين عن الجهاد ، وقبض أيديهم عن الانفاق في سبيل الله ، ولن تنجح الدعوة اليوم ، الا بالسبب الذى نجحت به على أيدى الصحابة رضوان الله عليهم جميعا ، جزاهم الله عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء.

(١) : سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٧٢ .
(٢) : للاستزادة من سيرة أبي عبيدة : أنظر : الاستيعاب جـ ٣ ص ٢ ، وحلية الأولياء جـ١ ص ١٠٠ ، والاصابة جـ ٥ ص ٦٠ .

وكان للنساء نصيب في الغزو والجهاد :

لقد فهمت المرأة المسلمة وظيفتها في العبودية لله تعالى ، ومهمتها في الكون والحياة ، ومن ثم استجابت لنداء القرآن الكريم ، ودعوة الرسول صلى الله عليه وسلم كالرجل سواء بسواء ، فضحت وبذلت وخرجت مراغمة لقومها نابذة لعقائدهم ، مهاجرة بدينها ، متغربة في البلاد في سبيل الله ، محتملة الأخطار ، متجشمة الأسفار ، صابرة على المتاعب الجسام ، ولن تغيب عن البال هجرتهن الى الحبشة حيث كانت رقية رضي الله عنها ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم وزوج عثمان بن عفان رضي الله عنه أول من هاجر من المسلمين مع زوجها ، وتبعتها أخواتها المسلمات مهاجرات مثل أم سلمة المخزومية وسهلة بنت سهيل بن عمرو ، وأسماء بنت عميس ، وليلى بنت أبي جثمة ، وغيرهن هاجرن مع أزواجهن ، فرارا بدينهن ، وتضحية في سبيله.(١)

واذا كن هؤلاء قد هاجرن للحبشة فرارا بدينهن ، فما بال اللواتي لم يهاجرن من المسلمات لقد كن في أشد بلاء ، وأصعب امتحان ، فهذه فاطمة بنت الخطاب ، يدخل عليها أخوها عمر قبل اسلامه ، وهي مع زوجها سعيد بن زيد بن عمرو وخباب بن الأرت يقرأ عليهما القرآن فيبطش بهما ، ويضرب أخته ويشجها ، وهي صابرة مثابرة.(٢)

ولما جاءت الهجرة للمدينة ، كان للنساء قصب السبق ، حيث سارعن في الهجرة مع أزواجهن متحملات المشاق ، صابرات على المخاطر والمكاره من أجل هذه الدعوة ، وفي سبيلها .

وعندما فرض الجهاد في سبيل الله كان لهن حظا وافرا من الجهاد والغزو

---

(١) : سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٤٤ .

(٢) : سيرة ابن هشام جـ١ ص ٣٦٧ . والشجة : الضربة في الوجه .

حيث خرجن النساء المسلمات بجانب الرجل في الميدان تسعى وتجاهد وتشارك في حماية دينها ، وعقيدتها ، وقمن ببعض الأعباء الماسة في الميدان ، مشاركة للرجل في عمله ، وتسهيلا لمهمته حيث تولين التمريض للجرحى ، ومواساة المصابين وغير ذلك .

روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار معه اذا غزا فيسقين الماء ويداوين الجرحى ."(١)

ونكتفي في هذا الموضوع بنموذج واحد من النماذج الكثيرة من المسلمات المجاهدات انها (أم عمارة) واسمها (نسيبة بنت كعب المازنية) وندعها تروى قصة بطولتها يوم أحد كما ذكرها ابن هشام في السيرة حيث تقول :

" خرجت أول النهار وأنا أنظر مايصنع الناس ، ومعي سقاء فيه ماء ، فانتهيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في أصحابه ، والدولة والريح للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحزت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقمت أباشر القتال ، وأذب عنه السيف ، وأرمي عن القوس ، حتى خلصت الجراح الـــي ، فلما ولى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،أقبل قمأة أقمأه الله : يقول : دلوني على محمد فلا نجوت ان نجا ، فاعترضت أنا ومصعب بن عمير ، وأناس ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضربني ضربة ، ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كان عليه درعان "

قالت أم سعد بنت سعد بن الربيع : " رأيت على عاتق أم عمارة جرحا أجوف له غور ، فقلت من أصابك بهذا ؟ قالت ابن قمئة ، وروت القصة"(٢)

---

(١) : صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٤٣ (كتاب الجهاد والسير ــ باب غزو النساء مع الرجال)

(٢) : سيرة ابن هشام ج٣ص٢٩ . معاني الكلمات : الدولة والريح : الغلبة والنصر . أقمأه الله : أذله وحقره ، أجوف : الطعنة التي تنفذ ، له غور : الغور كل شيئ قعره .

ولقد كان لجهادهن ، ومشاركتهن في الدفاع عن الدعوة ، آثارا كبيرة في نجاح الدعوة ، حيث تعاون البيت كله ، في تطبيق مبادىء الاسلام ، والثبات على الحق ، فكان الزوج المسلم يجد من المنزل المكان الذى يأوى اليه ، ليفرج عن همومه ، ويخفف عما يصيبه من الايذاء الذى يناله في سبيل الدعوة ، التي وقفوا لها حصنا منيعا من الرجال والنساء تكسرت عليها معاول العداء والهدم ، فانتصر المسلمون ونجحت الدعوة ، بفضل الله ثم بتعاون الأسرة ، رجالا ونساء شيبا وشبانا ، وهو ما تفقده الأمة الاسلامية اليوم ، وهو مالابد منه اذا أردنا للدعوة النجاح في هذا الزمان وكل زمان .

الخاتمـــة

الحمد لله الذى بفضله ونعمه وعونه تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على أشــرف أنبيائه مــن خير خلقه ، وخاتم رسله .. وبعد :

فقـد عشت زمنـا مع الدعوة الاسلامية ، كمـا يحـبّ أن يعيـــش كل مسلم لهــذه الدعوة المباركـــة ، ومن أجلها ، وفي سبيل نجاحهـــا عشــت بتوفيــق الله محلقـا في أجوائهــا الواسعة ، متنقــلا بين حقولهـا الـخصبة الزاهيـة ، لأقطـــف من ثمارها اليانعة ، وأنهل مـــن ينابيعهـا الطافيـــة .

لقــد عشت قرير العين ، مرتاح البال ، أدرس وأبحث عــن تلــك الحـــال التي أشعر معهـا بأنني قد أسهمت مع غيرى من الدارســين في بيــان آفــاق تلك الدعوة ، والكشف عن محاسنها ، وميزاتهـــا ، وبيـــان عوامــل وأسبــاب نجاحهــا ، وان كنــت لا أدعي فيما قمــت به كمــالا .

لقــد كانت ضـرورة البحث تفـرض علـي قبل الدخـول في موضـــوع الرسالة وهــو (أسباب نجاح الدعوة الاسلامية في العهد النبـــوى) التعـرض — ولو بايجاز — الــى بيان بداية الصــراع بين الحق والباطل وبيــان ماهي دعــوة الحــق ؟ وضــرورتها وحاجــة البشر اليهـــا ، كمـا تعرضــت الى تعــــريف الدعوة ، وعظيم شأن الدعـــوة الاسلاميـة وحكــم تبليغهــا .

وبينت كذلك خصائص الدعوة الاسلامية والسنن العامة لنشرهـــا وأساليــب نشرها اجمالا ، وكيف كانت تلك الخصائص والسنن والأساليـــب من الأسباب المهمــة في انجاح الدعوة.

هـذا وأنه بعد هذه الدراسة المتواضعة ، والجهد الذى قمت بـه لدراسـة الدعوة فقـد كشفت عن أهم الأسباب التي ساعدت في نجـاح الدعوة الاسلامية ، والتي لخصتها في هـذه الرسالة.

وكان مما لاحظته من خلال مطالعاتي وبحثي أن هذا الجانب الهام في الدعـوة الاسلامية وهـو : أسباب نجاحها لم ينل الاهتمام اللازم ، والبيان الكافي ، بالـرغم من أهميته ، وأثـره في كشف حقيقـة هذه الدعوة ، وبيانهـا للنـاس بيانا يحقـق الهدف من هذه الدعوة ، وهو دخول الناس فـي الاسلام ، واتباع سبيله ، وتطبيق منهاجه ، حيث لم أجد أحدا سبقني ـ فيما أعلم ـ لتخصيص هذه الموضوعات الهامة بالبحث ، وافرادها بالدراسة الوافية، عـدا الفقـرات والجزئيات المفـرقة بين كتب التفسير والحديث، والسيرة والتاريخ وحتى كتـب الدعوة التي تعرضت لموضوعاتها ، فقد كان مؤلفوها كثيرا مـا يعرضـون عن ذلك ، أو يمـرون عليه مـرورا عابـرا .

أما أسباب وعوامل نجاح الدعـوة فلم نجد من خصـه بالتأليف، بالرغـم من أهميته وأثـره في نجاح الدعوة ، ودوره في نشـر الاسلام ، وترغيـب الناس فيه ، واقبالهم عليه .

لذلك فأنا أدعو اخواني من الباحثين والطـلاب الدارسين ، الـى الاهتمام بهذا الموضـوع الواسع الأرجاء ، المتعدد الجوانب ، واكمـال البحـث والدراسة التي بدأتها ، حيث لا يمكـن استيفاء تلك الموضوعـات في رسالة واحـدة ، أو جهد متواضـع من طالب مثـلي ، بل ان الأمـر يحتاج عند دراستها وبحثها الى كتب ورسائل .

والأسباب التي كشفت عنها في هذه الرسالة لخصتها في بابين :

الباب الأول : العوامل الخارجية لنجاح الدعوة ، وهي الأسباب السابقة للدعوة وهي نوعان :

أولا : حاجة البشر للدعوة بعد ما أصابهم الزيغ ، والضلال عن طريق الحق ، والانحراف عن سبيل الفطرة السوى ، بسبب الأهواء ، والبعد عن عصور النبوات والصلاح .

ثانيا : الارهاصات والدلالات التي أقامها المولى للدلالة على صدق دعوته صلى الله عليه وسلم ، ولفت الأنظار اليها ، مثل تبشير الأنبياء بنبوته ، واختيار مكة بموقعها في النفوس منذ القدم ، وكذلك اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم من قريش بعد أن اصطفاها تعالى على بقية سكان الجزيرة ، وحملها هذا العبء العظيم ، وهو مواجهة الدعوة ، ونزول الوحي بينهم وبلغتهم ، وغير ذلك من الأسباب الهامة في نجاح الدعوة التي بسطتها في موضوعها .

الباب الثاني : كشفت فيه ، وأبنت الأسباب والعوامل اللاصقة بالدعوة ، وهي عوامل ذاتية لنجاح الدعوة ، وذات أثر كبير في نجاحها وهي لا تنفك عن الدعوة من كونها ربانية ، ودعوة الحق والفطرة .. الخ كما أوضحت العلاقة القوية بين الدعوة الاسلامية ، والقرآن الكريم وأثره العظيم في نجاح الدعوة ، لكونه المعجزة الكبرى للدعوة ، ولكون الاهتمام بالقرآن الكريم وتطبيقه من السنن العامة في نشر دعوة الاسلام .

وختمت العوامل ببيان الأسباب الذاتية في الدعاة ، وأثرهم الهائل في نجاح الدعوة ، وكيف كان لذلك الجيل المثالي ، وفي مقدمتهم الرسول صلى الله عليه وسلم أعظم الآثار لنجاح الدعوة ، وكيف أن واجب المسلمين اليوم هو السير على نهجهم ، اذا ما أرادوا للدعوة

الاسلامية النجاح ، وللمسلمين العزة والسعادة ، والغلبة على أعدائهم .

وسوى ماسبق بيانه فانني أسطر على هذه الصحائف في خاتمة هذه الرسالة بعض النتائج التي استنتجتها من بحثي ودراستي وكذلك بعض المقترحات التي أرى أنها ضرورية للدعوة ، ولازمة لدعاة الاسلام اليوم ، لعلي أكون بذلك قد أديت جزءا من واجب هذه الدعوة العظيمة وما التوفيق الا بالله .

أ — النتائج :

وبعد دراستي وعملي في هذا البحث فقد توصلت الى عدة نتائج هامة من الممكن تلخيصها في الآتي :

أولا : ان الدعوة الاسلامية هي دعوة الحق ، لذلك كان أمرها عظيم ، وشأنها كبير ، لكونها وظيفة الأنبياء والمرسلين ، كما أنها وظيفة هذه الأمة من بعدهم ، التي شرفها الله تعالى بواجب الدعوة الى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فكانت من أوجب الفرائض على هذه الأمة ، لورود الأدلة في ذلك خاصة عند ظهور المنكرات ، وقلة الدعاة ، وانتشار الفواحش والفساد ، وتداعي أعداء هذه الأمة عليها .

وينبني على هذا الأمر أنه لا يمكن لأمة الاسلام أن تعيش بين الأمم ، وتصل الى مكانتها المطلوبة ، وتحيا حياة سعيدة الا بهذه الدعوة ، بعد القيام بها ، والاهتمام بأمرها ، لأنها روح الاسلام التي بها يحيا ، وان ذلك لا يكون من الناحية النظرية فقط بل ان الجانب العملي أعظم شأنا ، وأكبر أثرا ، وأقوى خطرا .

ثانيا : نظرا لأهمية الدعوة الى الله ، وأثرها في نشر الاسلام ، ووجوبها

على المسلمين ، فلم يترك المشرع أمرها للناس بل جاء القرآن الكريم بالقواعد الثابتة ، والأسس القوية للدعوة ، وأبان مبادئها ووسائلها وأساليبها وذلك في عدة مواضع من الكتاب العزيز مثل قوله تعالى : " ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن " (سورة النحل - ١٢٥) .

كما بين أثرها في حياة المسلم ، وكيف جعلت منهم هذه الدعوة خير الأمم ، قال تعالى : " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم .. " (سورة آل عمران - ١١٠) .

ثالثا : تشابه واقع البشرية عند بعثه صلى الله عليه وسلم ، وقيام دعوته بواقعها اليوم من الضلال والجهل ، وسيطرة الشهوات وانتشار الفساد والموبقات - الا من رحم ربك - وان كانت جاهلية هذا الزمان أشد كفرا ، وأقبح ضلالة ، فعلى المسلمين اليوم السير بدعوتهم ، وجهادهم بنفس المسلك السليم ، والطريق المستقيم الذى سلكه صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، رضوان الله عليهم ، وهو المنهج الذى جاء به القرآن الكريم ، وان اختلفت أحوال الناس بسبب ماأصاب البشرية من ضلال ، وتطور مادى حيث ان الاسلام صالح لكل زمان ومكان ، لكونه الدين الذى ارتضاه المولى لعباده ، وأتم به عليهم نعمه الظاهرة والباطنة ، فمن اعتقد دينا غيره فهو مخالف لأمر خالقه مستحق لعقابه ، وكذا الحال من تحاكم

الى غير شرع الله ، أو رضى قانونا سوى قانون السماء .

رابعا : الدعوة الاسلامية هي : لا اله الا الله بكل ماتحمله هذه الكلمة من المعاني عقيدة وسياسة واقتصادا واجتماعا ، ومما يترتب على ذلك الاقتناع التام من كل مسلم بأن النصر والعزة لله تعالى دون غيره ، ويلزم من هذا أن يكون المسلم متيقنا في قرارة نفسه ان النصر والغلبة على الأعداء ، وأن القوة كلها ، من الله تعالى ، وليست من أي بشر لا شرقا ولا غربا ، مع الأخذ بالأسباب التي قررتها شريعة الله تعالى ، ومتابعة سنن الله في الكون والحياة .

خامسا : للدعوة الاسلامية من الميزات والخصائص ، تفوق كل دعوة سواها مهما كان مصدرها ، من ذلك كونها : دعوة ربانية من الله تعالى ، ودعوة الحق والفطرة ، ودعوة عامة شاملة ، ودعوة الواقعية والثبات ، ودعوة تقوم على البذل والعطاء والتضحية والجهاد .

كما أنه من ميزات دعوة الاسلام ما اقتضته حكمته تعالى عندما جعل للبشر جهدا هاما في نجاحها ، امتحانا لهم ليدركوا ماهيتها ، ويعرفوا قدرها وأهميتها ، وليسبروا غورها ، فيقبلوا عليها ، ويأخذوها عن طوع واختيار ، بلا اكراه أو غفلة بخلاف غيرها من الدعوات وفي ذلك حث للمسلمين على المثابرة في سبيل نشر دعوتهم والدفاع عنها .

سادسا : ان الدعوة الى الله ، وأعمال الدعاة تدخل في كل مايهم الناس، ويحقق مصالحهم ، ويكون مظهرا للحق ، وأمرا بالمعروف، ونهيا عن المنكر ، وحثا على مكارم الأخلاق .

بحيث يكون الداعية المهندس في مصنعه ، والطبيب في عيادته، والمزارع في حقله ، والوزير في وزارته ، ويكون الداعية الاقتصادى والسياسي وهكذا .

ومن ذلك فيجب على الدعاة أن يكونوا مع الناس في كل مكان وفي كل زمان ، في أماكن تواجدهم ، وفي مواضع تجمعهم ، في الأسواق وفي المدارس وفي الأندية ، وفي أجهزة الاعلام.

✓ سابعا : من ضرورات الدعوة أن يكون الداعية على علم وبصيرة فيما يدعوا اليه ، شجاعا قويا في الحق لاتأخذه فيه لومة لائم ، في الوقت الذى يكون فيه حليما رفيقا ، صابرا متحملا لما قد يناله من الأذى في سبيل دعوته ، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه رضوان الله عليهم ، ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين خير قدوة في ذلك، خاصة عندما نعلم أن تلك الصفات من أهم وسائل نجاح الدعوة .

ثامنا : وهكذا فان نجاح الدعوة الاسلامية كان وليد عوامل متعددة منها ذاتي ، ومنها مايرجع الى الجهاد العظيم الذى قام به الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الغر الميامين ، عندما وهبوا أنفسهم

وما يملكــونه لخدمة هذه الدعوة ونشرها والدفاع عنها .

ب ـ المقـــترحات :

هذا وفي ختام رسالتي هذه ، فاني لأجد من المناسب، وتكملـــة للفائـدة المتــوخاه من هذه الرسالة ، وقد أشرفت علــــى ختامها ، أن يكون مسك الختام بعد هذه الرحلة مع الدعـــوة الاسلامية ، وأسباب نجاحها ، أن أورد بعض المقترحات الـــتي أرى أنها ضــرورية لدعاة هذا العصــر ، والتي يجب أن يهـــتم بها دعاة الاسلام ويفهموها ، ويسيروا عليها اذا ما أرادوا النجــاح المدعــوة. بعد أن أصبحت البشرية أشـد ما تكــون حاجـــــة الى دعــوة الاسلام ، كما أن الدعوة أحوج ماتكــون الى دعــــاة مخلصـين ، يفهمــون روح الاســلام ، ويطبقونه كما فهمه وطبقـه الجيــل المثالي الأول من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلـــم ومــن تبعهم وســاروا على نهجهـــم.

وتتلخــص هذه المقترحــات فيما يلي :

أولا : تطويــر الوسائل:

لا شك أن لوسائل الدعوة وأساليبها دورا في نجاحها ، فكان واجب دعاة الاسلام في كل عصــر معرفة روح العصر الذى يعيشــون فيــه ، والاستفادة من كل الامكانيات المتاحــة التي تساعد على نشر الدعوة لذلك فان في مقدمة واجبات الدعاة الآن تطويــر وسائل الدعــوة،

بما يتمشى مع واقع العصر، والمجتمع الذى يعيشون فيه، ويكون ذلك بعــرض مبادئ الاسلام الأساسية، وبيـان محاسنه بصورة واضحـة وسليمة، يمكـن بواسطتها بيان مبادئ الاسلام، والكشف علـى أهـدافه ومحاسنه، وكيف أن له فضلا عميما، وخيرا وبركة علـى الانسانية كلها، منـذ شـع نوره في الأرض.

ومن ذلك استفادة الدعاة مما أوجـده العلم الحديث من المخترعات ولا شـك أن لذلك أثره في نجاح الدعوة، كاستخدام وسائـل الاعـلام والنشر بأنواعها، وأجهـزة الاتصال المتعددة، وإستفادة الدعاة من كل ذلك، بالدخـول الى وسائل الاعلام من صحافـة واذاعـة وتلفـاز، وكذلك استخدام أجهزة النشر والطبع المتطـورة لاثـارة المدعـوين، وجذبهم الى الاسلام بواسطة القصة والروايـة والمسرحية، والمنشورات والملصقات والدعاية.

مع التركيز على قطـع الطريق على ضعاف النفوس ممن يكيدون للاسلام، ويروجـون للفاحشة والرذيلة بواسطة ذلك، واستغـلال تلـك المرافـق لنشر وباءهم بعد أن مضى زمـن وهؤلاء يصولون ويجولـون ويهدون الاسلام، ويقوّضون بنيان الفضيلة والمروءة والعفة بواسطـة تلك الوسائل، عند غياب الدعاة، واعراضهم عنها، وعدم استفادتهم منها.

ثانيـا : <u>التركيز على قضايا العصـر:</u>

وفي مقدمة مايجب على الدعاة التركيز على القضايا المعاصرة، الـتي تواجه الانسانية عامة والأمة المسلمة خاصة، مثل كيفية مواجهة الغـزو الفكرى الذى تقوم به القوى المعادية للاسلام والمسلمين، مـع

الاهتمام بالشباب وتركيز دعوتهم عليهم لأنهم أسلس قيادا ، وأكثر مرونة ، وأشد قابلية.

وكذلك محاربة الجهل والفقر ، وبيان موقف الاسلام ، ودعوته الشاملة منها ، وكيف أن الاسلام عالج كل ذلك وحاربه ، ونجح بايجاد الحلول المناسبة له ، قبل قيام المنظمة الأممية ، وهيئاتها المتخصصة ، التي عجزت عن مواجهة تلك المعضلات التي تواجهها البشرية اليوم وواقعها المظلم.

ولما كان الدين الاسلامي يكوّن وحدة متكاملة ، وكلا لا يتجزء ، فانه لا يمكن القضاء على تلك المشكلات الا بتطبيق الدين الاسلامي ، والقبول منهجه المتكامل لجميع شئون الحياة.

ثالثا : <u>الحرص على قفل الثغرات التي يحاول الأعداء دخولها :</u>

منذ أن شع نور الاسلام ، واعداء الحق من أصحاب الضلال ، ودعاة الهدم يحرصون على ايجاد المداخل والثغرات التي يحاولون بواسطتها تشكيك المسلمين في عقيدتهم ، وصرفهم عن دينهم ، والدارس لهذا الصراع الطويل يجد كيف استطاع المسلمون عندما يتمسكون بهذا الدين قطع الطريق على هؤلاء الأعداء في كل زمان ومكان ، ونحن في عصر كثر فيه دعاة الضلال ، الذين مافتئوا يجدّون في تقويض العقيدة لدى المسلمين ، بكل وسيلة ممكنة فكان من واجب دعاة الاسلام التركيز على الثغرات والأهداف التي يحاول الفكر المعادي جادا ايجادها في جسم الأمة المسلمة الواحدة. والتي مافتئت القوى الماسونية والنصرانية والصهيونية والشيوعية وغيرها

من مذاهب الضلال ، وأفكار الهدم ، تحاول النفاذ منها ، لتستطيع تشكيك المسلمين في دينهم ، والتشويش على عقيدتهم ، بعد تكالب أولئك الأعداء ، وتداعيهم على المسلمين كما تداعى الأكلة على قصعتها ، وبعد أن أصبح المسلمون على كثرتهم غثاء كغثاء السيل .

مثل محاولتهم فصل الدين عن الدولة ، واباحة الربا بدعوى أنه ضرورة اجتماعية واقتصادية ، وكذلك تسمية الخمر بغير اسمها حتى يزينوها في أعين الناس.

وكذلك قولهم بوجود قضية للمرأة يجب حلها ، مظهرين نصحهم واخلاصهم لها ، في حين أن الاسلام أعطى المرأة كل حقوقها منذ بزغت شمسه ، وهذا معروف لدى المسلمين والحمد الله ، وحتى لدى غيرهم من المفكرين المنصفين .

فكان على الدعاة كشف أهداف أولئك الذين يدعون بالمطالبة للمساواة بين الرجل والمرأة ، وحقيقة هدفهم اتاحة الفرصة لذئاب البشر المفترسة لتفترسها ، وتجعلها وسيلة للذة الحيوانية ، والمكاسب المادية ، وهدم المجتمع من قاعدته ، وتقويض بنيانه من أساسه ، بافساد المرأة وصرفها عن واجبها المقدس في تربية النشء والقيام بشئون الأسرة.

رابعا : الاهتمام بتحريك الايمان والشعور الديني :

لا شك ان الدين هو الأساس القوى الذى يعتمد عليه في بقاء هذه الأمة ، وهو الوسيلة التي بموجبه تنتصر على أعدائها ، والثابت

على أرض الواقع انه كلما ضعف هذا الدين في النفوس ضعفت الأمة ، وانهزمت أمام أعدائها .

فكان واجب الدعاة العمل في دعوتهم على تحريك الايمان في النفوس ، واثارة الشعور الديني ، وربط ذلك بتنمية وتربية المجتمع واكمال الوعي في الأمة المسلمة على هذا الأساس.

لأن الدارس لأحوال الشعوب الاسلامية ، وعلاقتها مع غيرها ، يعرف أن تمسك الأمة بعقيدتها وحبها لدينها هو الحد الفاصل لانتصارها على أعدائها ، وان هذه العقيدة هي الحاجز السميك ، والسد المنيع ، الذى يقف شامخا في وجه من يحاول نبذ هذا الدين ، أو التطاول عليه ، والتسلط على أمة الاسلام ، حتى وان كان هذا من أبناء الأمة المحبوبين عليها ، أو حكامها المتسلطين عليها في بعض بلاد الاسلام.

فعلى الدعاة الاحتفاظ بالبقية الباقية من الايمان في النفوس، والمحافظة على جذور الايمان من أن تنطفئ ، والاستفادة من ذلك باثارة العاطفة الدينية والقيام بالتوعية الصحيحة ، والتربية السليمة ، وفهم حقائق الدين والاهتمام بقضاياه.

خامسا : <u>التخلق بأخلاق الدعاة :</u>

وان مما يجب أن يتحلى به دعاة الاسلام ، العلم ، الصبر ، والحلم ، والمروءة والفضيلة ، مع احتمال مايصيبهم عند دعوتهم ، كما أن عليهم استعمال الرفق والسهولة ، وعدم التنفير أو التقبيح أو الزجر عند الدعوة .

وعليهم استخدام الوسائل اللازمة للترغيب فيما يدعون اليه ، أو الترهيب

فيما يحذرون منه حسب المناخ .

وان مما يحسن ملاحظته ، والتنبيه اليه في هذا المقام هو ضرورة كون الدعاة يمتازون عن غيرهم من الدهماء[1] والجماهير وأصحاب المهن الأخرى ، ودعاة النظم والفلسفات بقوة الايمان ، واخلاص القلوب والنيات لما يدعون اليه ، حيث لايخفى أثر اخلاص النيات في انجاح أى عمل والوصول الى الهدف المقصود ، لأن النيات ضرورة للعمل ، كما في الحديث الصحيح : " انما الأعمال بالنيات"[2]. اضافة الى ضرورة زهدهم في الدنيا وزخارفها ، لأن ذلك من أقوى الأسباب في التأثير في المدعويين ، حيث أنه لابد أن يجد الناس في الداعية ما يفتقدونه لديهم ، وهو اعراض الداعية عن مرض التكاثر ، والتكالب على المادة مما حذر منه الاسلام .

سادسا : <u>ابعاد الحقائق الدينية عن التشويه والتحريف :</u>

كما أنه مما يلزم دعاة الاسلام أيضا صيانة الحقائق الدينية ، والمفاهيم الاسلامية من التحريف ، وتكلف معانيها بما ليس من روح الاسلام وهديه . والحذر مما وقع فيه البعض من محاولة اخضاعها لتصورات العصر ، وفلسفات البشر ، ولي أعناق الآيات القرآنية ومعانيها ، والتحريف في أحكام الاسلام لتتفق مع المصطلحات السياسية ، ولتسير وراء القوانين العلمية النظرية ، التي أحدثها البشر ، وهي خاضعة دائما للتغيير والتبديل بخلاف الحقائق الدينية التي أوجدها عالم السر وأخفى ، وأعطاها من القدسية والكرامة مالا يمكن أن تصل اليه تصورات البشر ونظمهم .

---

(١) : الدهماء : الدهمه السواد وتطلق على الكثرة .

(٢) : صحيح البخارى جـ ١ ص ٦ .

وانه لمن الحيف والظلم أن نسوى بين ما أوجده البشر، وما قرره رب البشر، ولأن تلك الحقائق والأحكام الشرعية هي حصون الاسلام المنيعة، واخضاعها للتصورات العصرية، أو تفسيرها بالمصطلحات الأجنبية اساءة لها، وهدم لهذا الحصن المنيع، من حصون الاسلام العظيمة، وهو اضعاف لها لا تقوية، وتحقير لها لا تعظيم.

لأن قضية أسماء العبادات والمصطلحات الشرعية ليست من السهولة التي يمكن كل انسان أن يتحدث عنها ويفسرها، لما قد يتبع ذلك من تقليل لقيمتها، واضعاف لتأثيرها في النفوس، مما ينتج عنه ضعف في الايمان، وهذا لا ينافي الغوص في أعماق هذه الحقائق الدينية، والأحكام الشرعية، للكشف عن أسرارها، وبيان محاسنها، على قدر علمنا، ويكفينا فخرا وشرفا ماقام به علماء الاسلام الأوائل من بيان مقاصد الشريعة، وكشف أسرارها، وذكر محاسنها دون أن يهدروا حقائقها.

سابعا : <u>واجب رجال التعليم والاعلام تجاه الدعوة:</u>

ما من شك أن البشرية تعيش عصر العلم والتطور والثقافة والمعرفة، ولابد من الاستفادة من ذلك في مجال نشر الدعوة، وبيان الاسلام للناس، خاصة وان الاسلام يحث على العلم، ويدعو اليه، قال تعالى:

" هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون " (سورة الزمر — ٩).

لذلك فان مؤسسات التربية والتعليم، وأجهزة الاعلام تتحمل حظا جسيما، وحملا كبيرا للقيام بأمر الدعوة في المدارس، ودور التربية، وفي مرافق الاعلام وأجهزته المختلفة، علاوة على مايوجبه الاسلام

على كل فرد مسلم من وجوب الدعوة الى الله ، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر حسب القدرة والاستطاعة.

ثامنا : المنظمات والمؤسسات الاسلامية ومسئوليتها :

تتحمل رابطة العالم الاسلامي ، ومنظمة المؤتمر الاسلامي ، والجامعات والمعاهد الاسلامية عبئا كبيرا في القيام بشئون الدعوة الاسلامية ، ونشر الاسلام ، وايجاد الدعاة، والتنسيق بين الدول الاسلامية في أمر الدعوة وتركيز الجهود على الأماكن الهامة ذات الحساسية القوية، والأثر في سير خط الدعوة وانتشارها، والذود عن بيضة الاسلام.

وعلى الرابطة أيضا الزام الدول الاسلامية المشاركة فيها بايجاد أجهزة متخصصة للدعوة الاسلامية، والحرص على اعادة نظام الحسبة كما كان في ماضي عهده الزاهر في بلاد الاسلام ، وكما هي الحال في المملكة العربية السعودية التي مابرحت تتحمل العبء الأكبر في الدعوة الى الله في الداخل والخارج .

تاسعا : ضرورة تضافر الجهود لخدمة الدعوة:

لازال المسلمون بحاجة الى تضافر الجهود من كل المسلمين لخدمة الدعوة في كل مكان، حيث أن الدعوة في أمس الحاجة الى دعاة مخلصين ، وامكانيات مادية ومعنوية ، ولابد من البذل الكبير للنفس والمال والفكر من أجل هذه الدعوة، وفي سبيل نجاحها من كل فرد حسب استطاعته، لأنه مهما بذلنا من عطاء، وأرخصنا من مال من أجل هذه الدعوة المباركة التي جعلتنا خير

الأمـم ، فان ذلك لايساوى شيئا بالنسبة للواجـب الملقـى على هـذه الأمـة.

عاشرا: الاهتمام بالأقليـات المسلمة:

المسلمون كالجسد الواحد ، لابد أن يحس بما يصيب أى جـزء منه ، لذلك كان واجب المسلمين الاهتمام بأمر اخوانهم فـي أى مكـان ، وهناك اخوة لنا يعيشون في بحر هائل من المعتقدات والضلالات وهم الأقليات الاسلامية وهم في حاجة الى مساعدتهـم، واحتضانهـم بالدفاع عن حقوقهم ، وحـل مشكلاتهم المادية والمعنوية وتلبيـة متطلباتهم.

الحادى عشر: تلبية حاجات المسلمين المادية:

كما يجب على المسلمين الحكومات والأفراد ـ خاصة الأغنياء ـ تقديـم المساعدات المادية للدعاة المحتاجين ، ومعاونة المنظمات والاتحادات الاسلاميـة القائمة في البلاد الاسلامية وخارجها ، مع التبشير بالاسـلام عن طريق تقديم المساعدات الطبية والعلاجية، ومساعدة منكوبـي الكوارث من حروب وفيضانات وزلازل من المسلمين، وحتى غيرهـم ممـن يستحق المساعدة، حيث تغنى بذلك المسلمين، المستحقـين، ونقطـع الطريق على المنظمات التبشيرية المعادية، التي تغلغلـت ـ للأسف ـ في المجتمعات بما فيها الاسلامية، وهي تحمـل فـي مساعداتها وخدماتها السم الزعاف، لأن حقيقتهـا صرف المسلمين عن دينهم ، ونشر دعوات الضلال والالحاد ، متخذين مـن حبائـل الشيطان وسائلهم لبلوغ هدفهم.

وتلك المساعدات لغير المسلمين وسيلة ترغيب لهم وتقريب الى دين الاسلام. يتجلى ذلك في المبادئ والأحكام التي جاء بها الاسلام عن علاقة المسلمين مع غيرهم من أهل الذمة والمعاهدين.

الثاني عشر : وجوب تطوير المراكز والمنظمات الاسلامية :

لا تخفى أهمية المراكز الاسلامية، والمنظمات والاتحادات الطلابية وغيرها في نشر الاسلام، ورعاية شئون المسلمين، وايجاد التآلف والتعارف بينهم لذلك فعلى رابطة العالم الاسلامي والدول الاسلامية الاهتمام بتلك المراكز والمنظمات، وزيادتها، واستغلالها، لتؤدى غرضها المطلوب في مجال الدعوة، وخدمة أبناء الاسلام، حيثما وجدوا، وأينما حلّوا.

الثالث عشر : الحاجة لاعداد مراكز تدريب :

اضافة الى ماسبق فان الحاجة تلح في اعداد معاهد ومراكز تدريب متخصصة لاعداد الدعاة والخطباء، وبلغات الأمم الحية.

الرابع عشر : ايجاد مجلس أعلى للدعوة :

وان مما يجب الاهتمام به ايجاد رابطة أو مجلس تنتظم تحته جميع الأجهزة التي تقوم بشؤون الدعوة في العالم، كما يلتزم المجلس بوضع خطة طويلة المدى للدعوة، ويقوم بعمليات احصائية عن سير الدعوة، وجهود الدعاة في ذلك.

وأخيرا .. فهذه دعوة الاسلام، وتلك بعض ميزاتها وخصائصها، وضعناها في الميزان فرجحت على جميع الدعوات لكونها دعوة الحق، والحق يعلو ولا يعلى عليه.
وهذه بعض الأسباب التي ساعدت في نجاح دعوة الاسلام أجملتها اجمالا.
وختاما ... فهذه رسالتي عن أسباب نجاح الدعوة الاسلامية .. أرجو من الله تعالى القبول والسداد، وأن يجعل عملنا جميعا خالصا لوجهه تعالى.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهـــــــــــارس

---

١ ـ فهرس الآيات القرآنيــــــــة (١)

الصفحـــــــــة	الآيـــــــــة
١	. ياأيها النبي انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيــــرا ...
٢	. لقد جاءكم رســـول من أنفسكم ...
٤ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٥٥ ، ٣١٤	. كنتم خير أمة أخـــرجت للناس ...
١٢ ، ٣٦ ، ٢٠٩	. انا لننصر رسلنا والذين آمنوا ...
١٠	. ان أريد الا الاصلاح ما استطعت ...
١٣	. ان يمســـسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله...
١٣	. والذى أنزل اليك من ربك هو الحق ...
١٣ ، ٢١	. ومن أحسن قولا ممـــن دعا الى الله ...
١٦ ، ١٨	. ولتكن منكم أمـــة يدعون الى الخير ...
١٧	. وما أرسلناك الا رحمــة للعالمين ...
٢١ ، ١٦٥ ، ٣١٣	. أدع الـــى سبيل ربك ...
٢١ ، ٢٣	. قل هـــذه سبيلي ...
٢٦ ، ٧٢	. ظهر الفســـاد في البر والبحـــر ...
٢٧	. ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ...

(١) : وهي مرتبة حسب ورودها في صفحات هذه الرسالة.

٢ — فهرس الأحاديث والآثار (١)

الحديث	الصفحة
• قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما بعد .. فاني أدعوك بدعاية الاسلام "	٢٠
• قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال تعالى : " اني خلقت عبادى حنفاء كلهم ..	٢٩
• نقل المسعودى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : " هذا أول يوم انتصفت فيه العرب ..	٦٠
• قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه : " أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ..	٧٠ ، ١٤٤
• قال ابن عباس رضي الله عنهما: " اذا سرك أن تعلم جهل العرب ...	٧١
• قال ابن عباس رضي الله عنهما : " صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب..	٧٤
• قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبة .. • عن عائشة رضي الله عنها : " مازلنا نسمع ان اسافا ونائلة ..	٧٨

(١) : المعنى بالآثار : ما أثر عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقمت بتخريجه .
وقد رتب الفهرس على حسب صفحات الرسالة .

٣ — فهـرس الأعـــــلام[1]

(أ) : الأسماء والألقـاب :

الهمـزة

[1] : وهي مرتبة حسب الحروف الهجائية وبما اشتهروا به من الأسماء أو الألقاب بدون اعتبار (أل) الداخلة على الأعـلام.
— أفردت الاعلام المكناه بـ(أب أو أم) وكذلك المصدرة (بابن أو بني) بفهـارس مستقلة في نهاية فهرس الأعـلام.

البـــــــاء

التاء

الثاء

الجيم

الحـــــــــاء

الخـــــــاء

الــــــدال

الـــــذال

الـــــراء

الـــــزاى

السـين

الشين

الصاد

الضاد

الطاء

العين

الغين

الفاء

القاف

الـلام

المـيم

النـــــــــون

الهـــــــاء

الـــــــــــواو

اليـــــــــاء

ب ـ الكنى (أبـــو و أم)

الهمـــــزة

البـــــاء

الجـــيم

الحـــاء

الـــــــدال

الـــــــراء

الســــــين

الصـــــــاد

الطـــــــاء

العـــــــين

الفـــــــاء

الكـــــــاف

جـ ـ ما أضيف الى (ابن أو بني)

الهمزة

التاء

الجيم

الحـــــــــــاء

الخـــــــــــاء

الـــــــــــزاى

الســـــــــــين

القـــــــاف

الكـــــاف

المـــــيم

الهـــــــاء

٤ — فهرس المصادر والمراجع(١)

أولا : القرآن الكريم وتفسيره وعلومه :

١ — القرآن الكريم

٢ — الاتقان في علوم القرآن ، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي — الطبعة الرابعة سنة ١٣٩٨هـ — مطبعة الحلبي مصر.

٣ — أحكام القرآن ، أحمد بن علي الرازى الجصاص، المطبعة البهية بمصر .

٤ — أحكام القرآن ، محمد بن عبدالله أبو بكر (ابن العربي) تحقيق : محمد البجاوى — نشر دار المعرفة — بيروت — الطبعة الثالثة ١٣٩٢هـ.

٥ — اعجاز القرآن — للقاضي أبو بكر الباقلاني ،الطبعة الرابعة — سنة ١٣٩٨هـ (بهامش الاتقان) .

٦ — اعجاز القرآن والبلاغة النبوية — مصطفى صادق الرافعي — الناشر : دار المعرفة — بيروت .

٧ — الانسان في القرآن — عباس محمود العقاد — الطبعة الثانية ١٩٦٩م— الناشر : دار الكتاب العربي — بيروت .

٨ — الايضاح لناسخ القرآن ومنسوخه — مكي بن أبي طالب القيسي — تحقيق الدكتور / أحمد فرحات — الطبعة الأولى — مطابع الرياض .

٩ — البرهان في علوم القرآن — بدر الدين محمد عبدالله الزركشي — تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم — الناشر : دار المعرفة — بيروت.

---

(١) : وهي مرتبة على حروف المعجم كل في بابه .

١٠ — بيان اعجاز القرآن — لأبي سليمان أحمد بن محمد الخطابي — ضمن ثلاث رسائل — تحقيق : محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام — الطبعة الثانية .

١١ — التبيان في علوم القرآن — محمد علي الصابوني — الطبعة الأولى — الناشر : دار الارشاد — بيروت ١٣٩٠هـ.

١٢ — التصوير الفني في القرآن — سيد قطب — دار الشروق بيروت .

١٣ — تفسير البيضاوى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) ناصر الدين الشيرازى البيضاوى — دار سعادت ١٣١٤هـ — ودار الكتب العربية بمصر .

١٤ — تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل) على بن محمد البغدادى المعروف ب (الخازن) — دار الفكر — بيروت .

١٥ — تفسير الطبرى (جامع البيان عن تأويل آى القرآن) لأبي جعفر محمد بن جرير الطبرى — الطبعة الثانية — دار المعرفة .

١٦ — تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان — نظام الدين الحسن النيسابورى — الطبعة الثانية — دار المعرفة — بهامش تفسير الطبرى .

١٧ — تفسير غريب القرآن — أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة — تحقيق : أحمد صقر — نشر دار الباز بمكة المكرمة — طبعة ١٣٩٨هـ .

١٨ — تفسير الفخر الرازى (مفاتيح الغيب) أبو عبدالله فخر الدين الرازى — المطبعة الأميرية بمصر — الطبعة الأولى سنة ١٣٥٧هـ.

١٩ — تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) — لأبي الفداء عماد الدين اسماعيل بن كثير الدمشقي (دار الفكر) للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٠ ـ الجامع لأحكام القرآن ـ لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي ـ منشورات دار الشعب .

٢١ ـ روائع البيان تفسير آيات الأحكام ـ محمد علي الصابوني ـ منشورات مكتبة الغزالي ـ دمشق ـ الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ.

٢٢ ـ الظاهرة القرآنية ـ مالك بن بني ـ ترجمة عبدالصبور شاهين ـ اصدار دار الفكر ـ ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٢٣ ـ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير ـ محمد بن علي بن محمد الشوكاني ـ الناشر مكتبة ومطبعة الحلبي ـ مصر.

٢٤ ـ الفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ـ الشهير ب "حاشية الجمل" سليمان بن عمر العجيلي الشهير ب (الجمل ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر.

٢٥ ـ في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ الطبعة الرابعة ـ سنة ١٣٩٧ هـ ـ دار الشروق .

٢٦ ـ مبادئ أساسية لفهم القرآن ـ أبو الأعلى المودودى ـ ترجمة : خليل الحامدى ـ الطبعة الثالثة ١٣٩١هـ.

٢٧ ـ مباحث في علوم القرآن ـ د . صبحي الصالح ـ الطبعة التاسعة عام ١٩٧٧م ـ دار العلم للملايين ـ بيروت .

٢٨ ـ مباحث في علوم القرآن ـ للشيخ مناع القطان ـ الطبعة الرابعة سنة ١٣٩٦هـ ـ مؤسسة الرسالة.

٢٩ — المرأة في القرآن — عباس محمود العقاد — الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٩م — دار الكتاب العربي — بيروت .

٣٠ — المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم — محمد فؤاد عبدالباقي — دار الفكر للطباعة والنشر — بيروت .

٣١ — مفردات الراغب (المفردات في غريب القرآن) لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني — تحقيق : محمد سيد كيلاني — دار المعرفة — بيروت .

٣٢ — مناهل العرفان علوم القرآن — محمد عبدالعظيم الزرقاني — دار احياء الكتب العربية — عيسى البابي وشركاه — مصر .

٣٣ — من روائع القرآن — د . محمد سعيد رمضان البوطي — الطبعة الثالثة — ١٣٩٢هـ — مكتبة الفارابي .

٣٤ — النبأ العظيم — الدكتور محمد عبدالله درّاز — الطبعة الثانية — ١٣٩٠هـ دار القلم.الكويت .

٣٥ — الوحي المحمدى — محمد رشيد رضا — الطبعة الثامنة — الناشر : المكتب الاسلامي — دمشق .

ثانيا : الحديث وشروحه :

٣٦ — الأدب المفرد — أبو عبدالله محمد بن اسماعيل البخارى — الناشر : دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر — بيروت : ١٤٠٠هـ — ١٩٨٠م .

٣٧ — الجامع الصحيح (سنن الترمذى) محمد بن عيسى الترمذى — مطبعة البابي الحلبي بمصر — الطبعة الأولى : ١٣٨٥هـ .

٣٨ — الجامع الصغير — جلال الدين عبدالرحمن أبي بكر السيوطي — الطبعة الرابعة — دار الكتب العلمية — وتوزيع دار الباز بمكة المكرمة.

٣٩ — رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين لأبي زكريا محيى الدين يحيى النووى — تحقيق : محيى الدين الجراح — مؤسسة مناهل العرفان — بيروت .

٤٠ — سنن ابن ماجه — أبو عبدالله محمد بن يزيد بن ماجة — تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي — مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر.

٤١ — سنن أبو داود السجستاني — أبو داود سليمان بن الأشعب السجستاني تحقيق — محيى الدين عبدالحميد — الطبعة الثانية ١٣٦٩هـ — دار السعادة بمصر.

٤٢ — سنن الدارقطني — علي بن محمد الدارقطني — تصحيح : عبدالله هاشم يماني — شركة الطباعة الفنية المتحدة بالقاهرة — الطبعة الأولى ١٣٨٦هـ .

٤٣ — سنن النسائي — أبو عبدالرحمن بن شعيب النسائي — الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ — مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

٤٤ — صحيح البخارى بحاشية السندى — لأبي عبدالله محمد بن اسماعيل البخارى — الناشر دار المعرفة — بيروت .

٤٥ — صحيح ابن حبان — أبو حاتم بن حبان البستي — الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ — الناشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .

٤٦ — صحيح ابن خزيمة لأبي بكر محمد بن اسحاق بن خزيمة النيسابورى — تحقيق — الأعظمي (المكتب الاسلامي) دمشق .

٤٧ - صحيح مسلم لأبي الحسين مسلم بن الحجاج - تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي - الناشر ادارات البحوث العلمية بالرياض - ١٤٠٠هـ.

٤٨ - صحيح مسلم بشرح النووى - الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ - منشورات دار الفكر - بيروت .

٤٩ - فتح البارى شرح صحيح البخارى - أحمد بن علي بن حجر العسقلاني - الناشر : شركة الحلبي القاهرة.

٥٠ - الكفاية في علم الرواية - أبو بكر أحمد بن علي (الخطيب البغدادى) - جمعية دائرة المعارف العثمانية - حيدر أباد ١٣٥٧هـ.

٥١ - المستدرك على الصحيحين - للحافظ أبي عبدالله الحاكم النيسابورى - منشورات مكتب المطبوعات الأسلامي - حلب .

٥٢ - مسند الامام أحمد - لأحمد بن محمد بن حنبل - تحقيق : أحمد شاكر - منشورات دار المعارف بمصر ١٣٦٩هـ.

٥٣ - المعجم الكبير للطبراني - لابن القاسم سليمان بن أحمد الطبراني - تحقيق : حمدى السلفي - الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - مطبعة الوطن العربي .

٥٤ - المعجم المفهرس لألفاظ الحديث - مجموعة من المستشرقين - مكتبة بريل في مدينة ليدن ١٩٣٦م.

٥٥ - المعجم المفهرس (مفتاح كنوز السنة) للدكتور : فنسك - ترجمة : محمد فؤاد عبدالباقي - الناشر ادارة ترجمان السنة بلاهور - باكستان .

٥٦ ـ المنتقى من أخبار المصطفى ـ مجد الدين أبو البركات عبد السلام ابن تيمية الحراني ـ تحقيق : محمد حامد فقي ـ الطبعة الأولى ١٣٥١هـ ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة .

٥٧ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر ـ لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجوزى (أبن الأثير) تحقيق : محمود محمد الطناحي ـ الناشر : المكتبة الاسلامية .

ثالثا : المعتقدات والأديان والمذاهب :

٥٨ ـ احياء علوم الدين ـ أبو حامد محمد الغزالي ـ منشورات دار المعرفة بيروت .

٥٩ ـ الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للاسلام ـ للدكتور / علي عبد الواحد وافي ـ مطبعة نهضة مصر للطباعة والنشر بالقاهرة .

٦٠ ـ اغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ـ شمس الدين محمد بن قيم الجوزية تحقيق : محمد سعيد الكيلاني ـ الناشر : مصطفى الحلبي البابي بالقاهرة .

٦١ ـ اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم ـ أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ـ تحقيق : محمد حامد الفقي ـ توزيع دار الباز بمكة المكرمة .

٦٢ ـ الله ـ عباس محمود العقاد ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٣٦٧هـ .

٦٣ ـ الانسان في ظل الأديان (الأديان والمعتقدات القديمة) للدكتور / عمارة نجيب محمد ـ طبعة ١٩٧٦م ـ المكتبة التوفيقية بالقاهرة .

٦٤ ـ الايمان ـ أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ـ منشورات المكتب الاسلامي بدمشق .

٦٥ — تلبيس ابليس — لأبي الفرج جمال الدين بن الجوزى — دار الكتب العلمية — بيروت .

٦٦ — خصائص التصور الاسلامي ومقوماته — سيد قطب — الطبعة الرابعة — دار الشروق .

٦٧ — شرح العقيدة الطحاوية — لأبي جعفر أحمد الطحاوى — الطبعة الثالثة — منشورات المكتب الاسلامي بدمشق .

٦٨ — الشيوعية والاسلام — عباس العقاد وأحمد عبدالغفور عطار — الطبعة الثانية — دار الأندلس — بيروت .

٦٩ — الطوطمية أشهر الديانات البدائية — للدكتور/ علي عبدالواحد وافي (سلسلة أقرأ) دار المعارف بمصر .

٧٠ — الفصل في الملل والأهواء والنحل — أبو محمد بن علي بن حزم — طبعة ١٣٢١هـ بمطبعة محمد أمين الخانجي بالقاهرة .

٧١ — كتاب الأصنام — أبو المنذر محمد السائب الكلبي — تحقيق : أحمد زكي .المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٣٢هـ .

٧٢ — معركتنا مع اليهود — سيد قطب — الدار السعودية للنشر والتوزيع .

٧٣ — معركة الوجود بين القرآن والتلمود — للدكتور / عبدالستار فتح الله سعيد — الناشر : دار النصر للطباعة الاسلامية بالقاهرة .

٧٤ — مقارنة الأديان — للدكتور / أحمد شلبي — الطبعة السادسة ١٩٧٩م. مكتبة النهضة المصرية .

٧٥ — الملل والنحل — أبو الفتح محمد عبدالكريم الشهرستاني — تحقيق : محمد سيد الكيلاني — الناشر : دار المعرفة بيروت — الطبعة الثانية .

٧٦ — منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية — أبو العباس تقي الدين أحمد بن تيمية — الناشر : مكتبة الرياض الحديثة .

٧٧ — هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى — شمس الدين محمد بن قيم الجوزية (ضمن الجامع الفريد) المحتوى على كتب ورسائل لأئمة الدعوة — مطبعة المدينة المنورة بالرياض .

٧٨ — اليهودية والنصرانية — أحمد عبد الغفور عطار — الطبعة الأولى — ١٣٩١هـ — دار الأندلس — بيروت .

رابعا : كتب الأصول والأحكام :

٧٩ — اغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان — أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ابن قيم الجوزية) — تصحيح وتعليق : محمد جمال الدين القاسمي — الطبعة الأولى بمطبعة المنار بمصر ١٣٢٧هـ .

٨٠ — (الأم) — محمد بن ادريس الشافعي — كتاب الشعب ١٣٨٨هـ .

٨١ — أعلام الموقعين عن رب العالمين — لشمس الدين أبو عبد الله محمد ابن أبي بكر (ابن قيم الجوزية) — تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد — الطبعة الثانية — ١٣٩٧هـ — دار الفكر — بيروت ..

٨٢ — بداية المجتهد ونهاية المقتصد — أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد القرطبي — الطبعة الثانية ١٣٨٦هـ — الناشر : مكتبة الكليات الأزهرية .

٨٣ — الشرح الكبير — لأبي الفرج عبدالرحمن بن أبي عمر بن قدامة المقدسي — مطبوعات كلية الشريعة بالرياض .

٨٤ — الفقيه والمتفقه — لأبي بكر أحمد بن ثابت البغدادى — الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ — مطابع القصيم بالرياض .

٨٥ — المحلى — أبو محمد علي بن أحمد بن حزم — تحقيق : أحمد شاكر — الناشر : مكتبة الجمهورية العربية ١٣٨٧هـ.

٨٦ — المغني — أبو محمد عبدالله بن أحمد بن قدامة — المطبعة اليوسفية والناشر — مكتبة الجمهورية العربية بمصر.

خامسا : السيرة والشمائل :

٨٧ — أعلام النبوة — أبو الحسن علي بن محمد الماوردى الشافعي — الطبعة الثانية ١٤٠١هـ — دار الكتب العلمية — بيروت .

٨٨ — الجهاد في الاسلام — للأساتذة : أبي الأعلى المودودى وحسن البنا وسيد قطب — الطبعة الثانية — الاتحاد الاسلامي العالمي .

٨٩ — جوامع السيرة — أبو محمد علي بن أحمد بن حزم — تحقيق الدكتور/ احسان عباس وزميله.الناشر : دار المعارف بمصر.

٩٠ — حياة محمد — محمد حسين هيكل — الطبعة الثانية عشرة — دار المعارف بمصر .

٩١ — الخصائص الكبرى — جلال الدين عبدالرحمن السيوطي — تحقيق : محمد خليل هراس — دار الكتب الحديثة ١٣٨٦هـ — القاهرة .

٩٢ — دلائل النبوة — أبو نعيم أحمد الأصفهاني — الطبعة الثانية ١٩٦٩م — مطبعة حيدر أباد .

٩٣ — الرسول صلى الله عليه وسلم — سعيد حوى — الطبعة الرابعة ١٣٩٩هـ مطبعة دار الكتب العلمية — بيروت .

٩٤ — الروض الأنف — عبدالرحمن بن عبدالله السهيلي — الطبعة الأولى ١٣٣٢هـ .

٩٥ — زاد المعاد في هدى خير العباد — شمس الدين محمد بن قيم الجوزية الطبعة الثالثة — ١٣٩٣هـ — دار الفكر — بيروت .

٩٦ — سيرة ابن هشام (سيرة النبي صلى الله عليه وسلم) لأبي محمد عبدالملك ابن هشام — تحقيق : محمد محيى الدين عبدالحميد — دار الفكر .

٩٧ — السيرة الحلبية (انسان العيون في سيرة الأمين المأمون) — علي برهان الحلبي الشافعي — طبعة ١٤٠٠هـ — دار المعرفة — بيروت .

٩٨ — سيرة الرسول (صورة مقتبسة من القرآن الكريم) — محمد عزة دروزة — الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ — مطبعة عيسى الحلبي — القاهرة .

٩٩ — السيرة النبوية لابن كثير — أبو الفدا عماد الدين اسماعيل ابن كثير — تحقيق : مصطفى عبدالواحد — دار احياء الكتب العربية — القاهرة ١٣٨٤هـ .

١٠٠ — شرح المواهب اللدنية — محمد عبدالباقي الزرقاني المالكي — الطبعة الأولى .

١٠١- الشفا بتعريف حقوق المصطفى - أبو الفضل القاضي عياض اليحصبي - دار الفكر - بيروت - ١٣٣٥هـ.

١٠٢- صفوة الصفوة - أبو الفرج عبدالرحمن بن علي الجوزى - تحقيق وتعليق : محمود فخورى - الناشر دار الوعي بحلب .

١٠٣- عبقرية محمد (العبقريات الاسلامية) - عباس محمود العقاد - بيروت - دار الآداب العربية ١٣٨٦هـ.

١٠٤- عصر النبي وبيئته قبل البعثة - محمد عزة دروزة - الطبعة الثانية - دار اليقظة العربية - بيروت .

١٠٥- فقه السيرة - دكتور محمد سعيد رمضان البوطي - الطبعة الثانية - ١٩٦٩م - بيروت .

١٠٦- فقه السيرة - محمد الغزالي - الطبعة السابعة - ١٩٧٦م - دار الكتب الحديثة - القاهرة .

١٠٧- فلسفة الجهاد في سبيل الله - عبدالحافظ عبد ربه - دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٣٩٢هـ.

١٠٨- القتال في الاسلام (أحكامه وتشريعاته) - محمد بن ناصر الجعوان - الطبعة الأولى - ١٤٠١هـ. الرياض .

١٠٩- محمد رسول الله - محمد رضا - طبعة ١٣٩٥هـ - دار الكتب العلمية - بيروت .

١١٠- محمد رسول الله - مولاى محمد علي - ترجمة : مصطفى فهمي وعبد الحميد جودة السحار - الناشر : مكتبة مصر بالقاهرة .

١١١ــ مع المصطفى ــ دكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ) ــ الطبعة الأولى ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت .

١١٢ــ المغازى (مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم) أبوعبدالله محمد الواقدى ــ طبعة ١٣٦٧هـ ــ القاهرة .

١١٣ــ النبوة والأنبياء ــ محمد علي الصابوني ــ الطبعة الأولى ١٣٩٠ هـ دار الارشاد ــ بيروت .

١١٤ــ النفخة الملوكية في أحوال الأمة العربية الجاهلية ــ عمر نورالدين القلوصي ــ الطبعة الأولى ١٣١١هـ ــ مطبعة المهندس ــ مصر .

١١٥ــ نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ــ محمد الخضرى ــ تحقيق : محيى الدين الجراح ــ الطبعة الثانية .

سادسا : كتب الدعوة والدعاة :

١١٦ــ أصول الدعوة ــ د/عبدالكريم زيدان ــ الطبعة الثالثة ١٣٩٦ هـ الناشر : مكتبة المنار الاسلامية .

١١٧ــ تاريخ الدعوة بين الأمس واليوم ــ آدم عبدالله الالورى ــ الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ ــ مكتبة وهبة بالقاهرة .

١١٨ــ تذكرة الدعاة ــ البهي الخولي ــ الطبعة السادسة ١٣٩٩هـ ــ مكتبة الفلاح بالكويت .

١١٩ــ تذكرة دعاة الاسلام ــ أبو الأعلى المودودى ــ ترجمة وتقديم : خليل الحامدى ــ الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ ــ المكتب الاسلامي بدمشق .

١٢٠ـ ثقافة الداعية ـ د / يوسف القرضاوى ـ الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

١٢١ـ الحسبة في الاسلام ـ أبو العباس تقي الدين أحمد بن تيمية ـ تحقيق : محمد زهرى النجار ـ منشورات المؤسسة السعدية بالرياض .

١٢٢ـ دعوة الحق ـ يوسف عبدالرازق ـ الطبعة الأولى ـ مؤسسة نصار للنشر والتوزيع بالقاهرة .

١٢٣ـ دعوة الاسلام ـ سيد سابق ـ دار الفكر ـ بيروت .

١٢٤ـ الدعوة الاسلامية أصولها ووسائلها ـ د . أحمد غلوش ـ مطبعة نهضة مصر ـ الفجالة ـ الناشر : دار الكتاب المصرى بالقاهرة ودار الكتاب اللبناني ـ بيروت .

١١٥ـ الدعوة الاسلامية فريضة شرعية ـ د / صادق أمين ـ طباعة جمعية المطابع التعاونية ـ عمان .

١٢٦ـ الدعوة الاسلامية دعوة عالمية ـ محمد الراوى ـ الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة ١٣٨١هـ .

١٢٧ـ الدعوة الى الاسلام ـ سير توماس أرنولد ـ ترجمة الدكتور/حسن ابراهيم وآخرين ـ الطبعة الثالثة ١٣٩٠هـ ـ مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة .

١٢٨ـ الرسالة الخالدة ـ عبدالرحمن عزام ـ الطبعة الخامسة ١٣٩٩هـ دار الشروق ـ بيروت .

١٢٩ــ عالمية الدعوة الاسلامية ــ د/علي عبدالحليم محمود ــ الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ ــ الناشر : دار عكاظ السعودية ــ جدة .

١٣٠ــ فقه الدعوة (دراسة موضوعية لمسيرة الدعوة ومنهجها في العهد المدني) للدكتور / جمعة علي الخولي ــ المكتبة التوفيقية بالقاهرة الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ.

١٣١ــ كيف ندعوا الى الاسلام ؟ ــ فتحي يكن ــ الطبعة الرابعة ١٤٠٠هـ ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت .

١٣٢ــ مشكلات الدعوة والداعية ــ فتحي يكن ــ الطبعة الثالثة ١٣٩٤ هـ مؤسسة الرسالة ــ بيروت .

١٣٣ــ مع الله ــ محمد الغزالي ــ الطبعة الثالثة ١٣٨٥هـ ــ دار الكتب الحديثة ــ القاهرة .

سابعا : كتب التاريخ والتراجم والأعلام :

١٣٤ــ أبو الأعلى المودودى صفحات من حياته وجهاده ــ أحمد ادريس ــ المختار الاسلامي ــ القاهرة ــ الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.

١٣٥ــ الاستيعاب في معرفة الأصحاب ــ أبو عمر يوسف بن عبد البر تحقيق : علي محمد البجاوى ــ مكتبة نهضة مصر .

١٣٦ــ أسد الغابة في معرفة الصحابة ــ علي بن محمد بن الأثير ــ الطبعة الأولى بمصر ١٣٨٦هـ.

١٣٧ــ الاصابة في تمييز الصحابة ــ أحمد بن حجر العسقلاني ــ دار نهضة مصر للطباعة ١٣٨٣هـ.

١٣٨- الأعلام - خير الدين الزركلي - الطبعة الرابعة ١٩٧٩م - دار العلم للملايين - بيروت .

١٣٩- الاكليل - أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني - تحقيق : محب الدين الخطيب - الطبعة السلفية ١٣٦٨هـ.

١٤٠- البداية والنهاية - أبو الفداء عماد الدين اسماعيل بن كثير - الطبعة الأولى ١٩٦٦م - مكتبة المعارف .

١٤١- بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب - محمد شكرى الألوسي - شرح وضبط - محمد بهجة - الطبعة الثانية - مطابع دار الكتاب العربي بمصر.

١٤٢- تاريخ أبي الفداء (كتاب المختصر في أخبار البشر) - للملك المؤيد عماد الدين اسماعيل (أبي الفداء) - اصدار دار البحار .

١٤٣- تاريخ الأمم والملوك - أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى - الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية المصرية .

١٤٤- تاريخ الحضارة الاسلامية - أبو زيد شلبي - الناشر : مكتبة وهبة - القاهرة .

١٤٥- تاريخ العرب قبل الاسلام - دكتور/ جواد علي - طباعة المجمع العلمي - القاهرة .

١٤٦- تاريخ ايران - شاهين مكاريوس - مطبعة المقتضب - القاهرة ١٣١٦هـ.

١٤٧- تاريخ العرب قبل الاسلام - عبدالملك بن قريب الأطعمي - عن نسخة بخط يعقوب بن السكيت - جامعة الملك سعود بالرياض.

١٤٨— تاريخ العرب وعصر الرسول — عبدالفتاح علي شحاته — مطبعة الأمان ١٣٦٨هـ — القاهرة .

١٤٩— التاريخ العربي القديم — ديتلت ينلس ورفقاه — ترجمة د. فؤاد حسنين علي — الطبعة الأولى — ١٩٥٨م — مكتبة النهضة المصرية .

١٥٠— حاضر العالم الاسلامي — لوثر وب ستيودارد — ترجمة : عجاج نويهض — المطبعة السلفية ١٣٤٣هـ — القاهرة .

١٥١— حضارة العرب — د/ غوستاف لوبون — ترجمة وتعريب : عادل زعيتر — الطبعة الثالثة ١٩٥٦م — القاهرة .

١٥٢— حلية الأولياء — أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني — مكتبة الخانجي — القاهرة — الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ .

١٥٣— خطط الشام — محمد كرد علي — الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ — الناشر: دار العلم للملايين — بيروت .

١٥٤— خطط المقريزى — أحمد بن علي المقريزى — دار التحرير للطباعة والنشر — القاهرة .

١٥٥— رجال حول الرسول — خالد محمد خالد — دار الفكر — بيروت .

١٥٦— صور من حياة الصحابة — دكتور عبدالرحمن رأفت الباشا — مؤسسة الرسالة — بيروت .

١٥٧— ضحى الاسلام — أحمد أمين. طبعة ١٣٧٢هـ — باشراف لجنة التأليف والنشر بالقاهرة .

١٥٨— الطبقات الكبرى — أبو عبدالله محمد بن سعد — طبعة ١٩٧٦م — دار صـــادر — بيروت .

١٥٩— ظهر الاسلام — أحمد أمين — الطبعة الثالثة — ١٣٨٢هـ — مكتبة النهضـــة المصرية.

١٦٠— الغارة على العالم الاسلامي — أ.ل . شاتيلـه — تلخيص وتعريب: محب الدين الخطيب وساعد اليافي — الطبعة الثالثة — ١٤٠٠هـ الدار السعودية .

١٦١— فتح العرب لمصـر — الفرد ج . بتلر — تعريب — محمد فريد أبـــو حديد — مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٥١هـ — ١٩٣٣م.

١٦٢— فجر الاســلام — أحمد أمين — الطبعة العاشرة ١٩٦٩م — دار الكتاب العـــربي — بيروت .

١٦٣— فلسفة الحضارة — ألبرت أشفيتر — عربه من الألمانية د . عبدالرحمن بـــدوى — الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ — دار الأندلس .

١٦٤— في تاريخ العرب قبل الاسلام — للدكتور سعـد زغلول عبدالحميد — دار النهضـــة — بيروت ١٩٧٦م.

١٦٥— في منزل الوحي — محمد حسـين هيكل — الناشر : مكتبة النهضـــة المصـرية — الطبعة الثانية ١٩٥٢م.

١٦٦— الكامل في التاريخ — أبو الحسن علي بن أبي الكرم بن الأثير — الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ — دار الكتاب العربي — بيروت .

١٦٧- كتاب الاعلام بأعلام بيت الله الحرام - قطب الدين الحنفي - الطبعة الأولى .

١٦٨- مروج الذهب ومعادن الجوهر - أبو الحسن علي السعودى - دار الأندلس - بيروت - الطبعة الثالثة ١٩٧٨م.

١٦٩- مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية - عباس محمود العقاد - الطبعة الأولى سنة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م دار الكتاب العربي - بيروت .

١٧٠- المعارف - عبدالله بن مسلم بن قتيبة - تعليق ومراجعة : محمد اسماعيل الصاوى - الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ - دار احياء التراث - بيروت .

١٧١- مع الرعيل الأول - محب الدين الخطيب - الطبعة الثالثة ١٣٨٣هـ. المطبعة السلفية بالقاهرة .

١٧٢- معجم المؤلفين - عمر رضا كحالة - مطبعة المترقي ١٣٨١هـ - دمشق .

١٧٣- المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام - دكتور جواد علي - دار العلم للملايين - بيروت .

١٧٤- مقدمة ابن خلدون - عبدالرحمن بن محمد بن خلدون - الطبعة الخامسة - الناشر : دار الكتاب العربي - بيروت .

١٧٥- النظم الاسلامية - للدكتورين : حسن وعلي ابراهيم حسن - الطبعة الثالثة ١٩٦٢م - مكتبة النهضة المصرية .

١٧٦- النظم الاسلامية (نشأتها وتطورها) للدكتور صبحي الصالح - الطبعة الثانية - دار العلم للملايين .

١٧٧— وفيات الأعيان — أحمد بن محمد بن خلكان — تحقيق : احسان عباس — الناشر : دار الثقافة — بيروت .

ثامنا : كتب اللغة والمعاجم :

١٧٨— أساس البلاغة — أبو القاسم جار الله محمد الزمخشرى — دار صادر بيروت .

١٧٩— تاج العروس — محمد مرتضى الزبيرى — منشورات مكتبة الحياة — بيروت .

١٨٠— القاموس المحيط — مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادى — الطبعة الخامسة — ١٣٧٣هـ — المكتبة التجارية بالقاهرة .

١٨١— لسان العرب — جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور — دار لسان العرب — بيروت .

١٨٢— مختار الصحاح — محمد بن أبي بكر عبدالقادر الرازى — الطبعة الأولى ١٩٦٧م — دار الكتاب العربي — بيروت .

١٨٣— المخصص — أبو الحسن علي بن اسماعيل الأندلسي المعروف ب(أبي سيدة) منشورات المكتب التجارى العربي — بيروت .

١٨٤— معجم البلدان — ياقوت بن عبدالله الحموى — دار احياء التراث العربي بيروت ١٩٧٦م.

١٨٥— معجم مقاييس اللغة — لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا — تحقيق : عبدالسلام هارون — الناشر : دار الكتب العلمية — ايران .

١٨٦— منار السالك الى أوضح المسالك — محمد عبدالعزيز النجار — الطبعة الأولى — مطبعة الفجالة الجديدة بمصر .

١٨٧ـ نهاية الارب في فنون العرب ـ شهاب الدين أحمد النويرى ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة دار الكتب المصرية .

تاسعا : كتب متنوعـــة :

١٨٨ـ أخلاقنا الاسلامية ـ دكتور مصطفى السباعي ـ الطبعة الثانيـة ـ ١٣٩٢هـ ـ المكتب الاسلامي بدمشق .

١٨٩ـ الاسلام على مفترق الطرق ـ محمد أسد ـ تعريب : عمر فروخ ـ الطبعة الثامنة ١٣٩٤هـ .

١٩٠ـ الاسلام الممتحن ـ محمد الحسني الندوى ـ الطبعة الأولـى ١٣٩٧هـ ـ المختار الاسلامي للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة .

١٩١ـ الاسلام وحاجة الانسانية اليه ـ دكتور محمد يوسف موسى ـ الطبعة الثانية ١٣٨١هـ ـ الشركة العربية للطباعة والنشر بالقاهرة .

١٩٢ـ الاسلام والمرأة ـ سعيد الأفغاني ـ مطبعة الترقي ـ دمشق .

١٩٣ـ الاسلام ومشكلات الحضارة ـ سيد قطب ـ دار الشروق .

١٩٤ـ الاسلام يتحدى ـ وحيد الدين خان ـ ترجمة ظفر الاسلام خان الطبعة السابعة ١٣٩٧هـ ـ المختار الاسلامي بالقاهرة .

١٩٥ـ التطور والثبات في حياة البشر ـ محمد قطب ـ الطبعة الرابعة ١٤٠٠هـ دار الشروق .

١٩٦ـ الحجاب ـ أبو الأعلى المودودى ـ دار الفكر بالقاهرة .

١٩٧ـ حقوق النساء في الاسلام ـ محمد رشيد رضا ـ المكتب الاسلامي ـ بيروت .

١٩٨— دراسات اسلامية — سيد قطب — صدّر له : محب الدين الخطيب الطبعة الثالثة.

١٩٩— السلام العالمي والاسلام — سيد قطب — الطبعة الخامسة ١٤٠٠ هـ دار الشروق .

٢٠٠— شبهات حول الاسلام — سيد قطب — الطبعة الخامسة ١٣٨٢هـ .

٢٠١— الغزو الفكرى والتيارات المعادية للاسلام — دكتور عبدالستار فتح الله سعيد — الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ — مكتبة المعارف بالرياض .

٢٠٢— ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ للسيد أبي الحسن علي الندوى — الطبعة العاشرة ١٣٩٣هـ — دار القلم بالكويت .

٢٠٣— مبادئ الاسلام — لأبي الأعلى المودودى — الطبعة السابعة — دار العربية .

٢٠٤— المستقبل لهذا الدين — سيد قطب — طبعة ١٣٩٤هـ — دارالشروق .

٢٠٥— المرأة بين الفقه والقانون — دكتور مصطفى السباعي — الطبعة الخامسة — المكتب الاسلامي .

٢٠٦— المرأة المسلمة — وهبى سليمان الألباني — الطبعة الثانية — الناشر : مؤسسة الرسالة — بيروت .

٢٠٧— المرأة وحقوقها في الاسلام — أبو النصر مبشر الطرازى — مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٩٦هـ.

٢٠٨— معالم في الطريق — سيد قطب — الناشر : دار دمشق للطباعة والنشروالتوزيع.

٢٠٩— مفتاح دار السعادة ومنشورات ولاية العلم والارادة — أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أبي (ابن قيم الجوزيه) — تصحيح ومراجعة فكرى أبو النصر — منشورات رئاسة البحوث العلمية بالرياض .

٢١٠— منهج القرآن في التربية — المؤلف : محمد شديد — الناشر : مؤسسة الرسالة — طبعة ١٣٩٩هـ — بيروت .

٢١١— هذا الدين — سيد قطب — طبعة ١٣٨٩هـ — ١٩٧٠م.

٢١٢— هل نحن مسلمون ؟ — للأستاذ محمد قطب — دار الشروق .

عاشرا : مجلات ودوريات متخصصة :

٢١٣— البعث الاسلامي — مقال للشيخ / محمد منظور النعماني — " معرب " العدد الثامن المجلد السادس عشر — ربيع الأول : ١٣٩٢هـ — ١٩٧٢م — ص : ٦١ بعنوان : الكفاح في سبيل نشر الحق.

٢١٤— حضارة الاسلام — بحث للأستاذ / السيد أبي الحسن علي الندوى بعنوان : بعض سمات الدعوة في هذا العصر — العدد التاسع ذو القعدة ١٣٩٧هـ.

٢١٥— مجلة كلية أصول الدين بالرياض — مقال للأستاذ الدكتور / عبدالستار فتح الله سعيد — بعنوان : نظرات في الاستدلال القرآني — العدد الثاني ١٣٩٩/١٤٠٠هـ.

٢١٦- محاضرات الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة في موسمها الثاني - عام ١٣٩٧/٩٦هـ - محاضرة للشيخ محمد الجذوب - ص: ٥٣ المجلد الثالث بعنوان : عقبات في طريق الدعوة الاسلامية .

٢١٧- هذه سبيلي - مقال للدكتور عمارة نجيب محمد - العدد الأول ص ٣٦٩ - السنة الأولى ١٣٩٨هـ بعنوان : ميزات الدعوة الاسلامية منهاجا وأسلوبا .

---

٥ — فهرس الموضوعات